مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العدد الثاني   السنة الأولى   رجب ١٤٣٨هـ   الموافق   إبريل ٢٠١٧م

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾
﴿ص﴾ ٢٩



موضوعات العدد:

مجلة تدبر

مجلة دورية علمية محكمة تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات المتصلة بتدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة

العددُ الثاني السَّنة الأولى رجب ١٤٣٨هـ الموافق إبريل ٢٠١٧م



مجلة تدبر

ص٣٢٨؛ ١٧×٢٤سم

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٥٨٨٣

بتاريخ: ١٤٣٨/٦/٢٤

ردمد: ٧٦٤٢-١٦٥٨

مجلة تدبر

سعر المجلة (٢٠ ريالاً سعودياً أو ما يعادلها)

المجلة مصرحة من وزارة الثقافة والإعلام بالمملكة العربية السعودية بالرياض

برقم ٣٧٠٨ وتاريخ ٠٤/ ٠٣/ ١٤٣٧هـ

للمراسلات والاشتراكات

جميع المراسلات وطلبات الاشتراك باسم :

رئيس التحرير

للمراسلة:

البريد الإلكتروني: tjs@tadabbor.com

جوال وواتس أب: ٩٦٦٥٠٣٠٧٢٣٣٣+

جوجل بلس، تويتر، فيسبوك، انستجرام، تليجرام: @tjstadabbor

الموقع الإلكتروني: http://tjs.tadabborq.com/

التصميم الداخلي للمجلة
ثروت سلطان
Tharwat Sultan

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة تدبر

دورية علمية محكَّمة، تعنى بتحكيم ونشر البحوث والدراسات العلمية المتصلة بمجالات تدبر القرآن الكريم، وتصدر مرتين في السنة.

الرؤية:

أن تكون المجلة خيار الباحثين الأول لنشر بحوثهم في تدبر القرآن الكريم.

الرسالة:

أن تكون وعاءً علميًّا محكَّمًا للباحثين لنشر أعمالهم العلمية في تدبر القرآن الكريم وما اتصل به وفق معايير مهنية عالمية للنشر.

الأهداف:

* **تشجيع** البحث العلمي المتصل بتدبر القرآن الكريم.
* **نشر** البحوث العلمية والدراسات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.
* **تحقيق التواصل العلمي** بين المعنيين بالدراسات القرآنية من خلال تبادل الخبرات.
* **فتح آفاق جديدة** للبحث العلمي المتخصص في مجالات تدبر القرآن.

مجالات النشر في المجلة

أولًا: البحوث والدراسات في مجالات تدبر القرآن الكريم:

* التأصيل العلمي في تدبر القرآن الكريم.

* الموضوعات القرآنية.
* المقاصد القرآنية.
* الإعجاز القرآني.
* البلاغة القرآنية.
* تعليم تدبر القرآن الكريم.
* الاستنباط من القرآن الكريم.

ثانيًا: تقارير الملتقيات والمؤتمرات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

ثالثًا: ملخصات الرسائل العلمية المتميزة في المجالات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

رابعًا: ما تطرحه هيئة التحرير من قضايا تستكتب فيها المتخصصين في المجالات المتصلة بتدبر القرآن الكريم.

قواعد وشروط النشر

أولًا: طبيعة المواد المنشورة:

تهدف المجلة إلى إتاحة الفرصة للباحثين في جميع بلدان العالم لنشر إنتاجهم العلمي في مجال تدبر القرآن الكريم، الذي تتوافر فيه الأصالة والجدة، وأخلاقيات البحث العلمي، والمنهجية العلمية.

وتقوم المجلة بنشر المواد التي لم يسبق نشرها باللغة العربية، وتقبل المواد في أي الفئات التالية:

* البحوث الأصيلة.
* المراجعات العلمية.
* مستخلصات الرسائل العلمية المتميزة.
* تقارير الملتقيات والمؤتمرات العلمية.

ثانيًا: إرشادات للباحثين لتقديم بحوثهم:

١. لا يتجاوز عدد صفحات البحث (٥٠) صفحة مقاس (١٧×٢٤) متضمنة الملخصين العربي والإنجليزي، والمراجع، ولا يقل عن (٢٥) صفحة.

٢. هوامش الصفحة تكون ٢ سم من (أعلى، وأسفل، ويمين، ويسار)، ويكون تباعد الأسطر مفردًا.

٣. يستخدم خط (Lotus Linotype) للغة العربية بحجم (١٦)، وبحجم (١٢) للحاشية والمستخلص، وبحجم (١١) للجداول والأشكال.

٤. يستخدم خط (Times New Roman) للغة الإنجليزية بحجم (١٢)، وبحجم (١٠) للحاشية والمستخلص والجداول والأشكال.

٥. تكتب الآيات القرآنية بخط (Lotus Linotype) بحجم (١٦).

٦. توضع حواشي كل صفحة أسفلها على حدة، ويكون ترقيم حواشي كل صفحة مستقلًا، وتضبط الحواشي آليًّا لا يدويًّا.

٧. تكتب بيانات البحث باللغتين العربية والإنجليزية، وتحتوي على: (عنوان البحث، اسم الباحث والتعريف به، بيانات التواصل معه، عناوين رسائله العلمية).

٨. لا يتجاوز عدد كلمات المستخلص (٢٥٠) كلمة، ويتضمن العناصر التالية: (موضوع البحث، وأهدافه، ومنهجه، وأهم النتائج، وأهم التوصيات) مع العناية بتحريرها بشكل دقيق.

٩. يُتبع كل مستخلص (عربي/ إنجليزي) بالكلمات الدالة (المفتاحية) المعبرة بدقة عن موضوع البحث، والقضايا الرئيسة التي تناولها، بحيث لا يتجاوز عددها (٦) كلمات.

١٠. سلامة البحث من الأخطاء اللغوية والنحوية.

عناصر البحث

يَنظِمُ الباحِثُ بَحثَه وَفقَ مُقتَضَياتِ (مَنهجَ البَحثِ العِلميّ) كَالتَّالي:

١- كتابة مقدمة تحتوي على: (موضوع البحث، وحدوده، وأهدافه، ومنهجه، وإجراءاته، وخطة البحث).

٢- تبيين الدراسات السابقة - إن وجدت - وإضافته العلمية عليها.

٣- تقسيم البحث إلى أقسام (مباحث) وفق (خطة البحث)، بحيث تكون مترابطة.

٤- عرض فكرة محددة في كل قسم (مبحث) تكون جزءًا من الفكرة المركزية للبحث.

٥- يكتب البحث بصياغة علمية متقنة، خالية من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع الدقة في التوثيق.

٦- كتابة خاتمة بخلاصة شاملة للبحث تتضمن أهم (النتائج) و(التوصيات).

٧- كتابة الحاشية السفلية يكون بذكر (عنوان الكتاب، واسم المؤلف، والجزء/ الصفحة) حسب المنهج العلمي المعمول به في توثيق الدراسات الشرعية واللغة العربية.

مثال: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٢٣٣).

أما الآية القرآنية: فيشار إليها في المتن فقط باسم السورة يتبعه نقطتان: ثم رقم الآية [النساء: ٥٥].

يُوَثِّقُ البَاحِثُ المَرَاجِعَ فِي نِهايَةِ البَحْثِ حَسَبَ النِّظَامِ التَّالي:

١- **إذا كان المرجع (كتابًا):** («عنوان الكتاب». فالاسم الأخير للمؤلف (اسم الشهرة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى، فاسم المحقق - إن وجد -، فبيان الطبعة، فمدينة النشر، فاسم الناشر، فسنة النشر).

مثال: «الجامع الصحيح». الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وآخرين. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٤م.

٢- **إذا كان المرجع (رسالة علمية لم تطبع):** («عنوان الرسالة». فالاسم الأخير للباحث (اسم العائلة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى. فنوع الرسالة (ماجستير/ دكتوراه)، فالمكان: فاسم الكلية، فاسم الجامعة، فالسنة).

مثال: «يعقوب بن شيبة السدوسي: آثاره ومنهجه في الجرح والتعديل». المطيري، علي بن عبد الله. رسالة ماجستير، السعودية: كلية التربية، جامعة الملك سعود، ١٤١٨هـ.

٣- **إذا كان المرجع (مقالًا من دورية):** («عنوان المقال»، فالاسم الأخير للمؤلف (اسم العائلة)، فالاسم الأول والأسماء الأخرى، فاسم الدورية، فالمكان، فرقم المجلد (رقم العدد)، فسنة النشر، فالصفحة من ص... - إلى ص...).

مثال: «الإمام عفان بن مسلم الصفار ومنهجه في التلقي والأداء والنقد». المطيري، علي بن عبد الله. مجلة جامعة القصيم: العلوم الشرعية، القصيم. م (٣)، (١)، ١٤٣١هـ، ٣٥ - ٨٥.

٤- هذا بالإضافة إلى ذكر بعض الاختصارات إن لم يوجد لها أي بيان في بيانات المرجع، وهي كالتالي:

* بدون اسم الناشر: (د. ن).
* بدون رقم الطبعة: (د. ط).
* بدون تاريخ النشر: (د. ت).

يوثق الباحث المراجع في نهاية البحث حسب النظام التالي:

١ - **إرسال البحث لموقع المجلة** يُعد تعهدًا من الباحث بأن البحث لم يسبق نشره، وأنه غير مقدم للنشر، ولن يقدم للنشر في جهة أخرى حتى تنتهي إجراءات تحكيمه في المجلة.

٢ - **لهيئة تحرير المجلة** حق الفحص الأولي للبحث، وتقرير أهليته للتحكيم، أو رفضه.

٣ - **يطلع الباحث على خلاصة تقارير المُحكّمين** ليعدل بحثه وفقها، ويبين رأيه فيما لا يؤخذ به من أقوالهم، وتحسم الهيئة الخلاف بينهما.

٤ - **في حال (قبول البحث للنشر)** يتم إرسال رسالة للباحث بـ(قبول البحث للنشر)، وعند رفض البحث للنشر يتم إرسال رسالة (اعتذار) للباحث.

٥ - **للباحث بعد نشر عمله في المجلة** أن ينشره مرة أخرى بعد مضي ستة أشهر من صدورها، على أن يشير إلى نشره في المجلة.

٦- **إرسال البحث عبر الموقع الإلكتروني للمجلة** يُعد قبولًا من الباحث بـ(شروط النشر في المجلة)، ولهيئة التحرير الحق في تحديد أولويات نشر البحوث.

٧ – **الآراء الواردة في البحوث المنشورة** تعبر عن وجهة نظر الباحثين فقط، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

٨ – **نظام التوثيق المعتمد في المجلة** بالنسبة للمراجع الأجنبية هو نظام (جامعة شيكاغو).

٩ – **في حال (نشر البحث)** يمنح الباحث نسختين من المجلة مع عشر نسخ مستلة من عدد المجلة التي تم نشر بحثه فيها.

المَوَادّ العِلمِيّة المَنشورة في المجلّة تُعَبِّر عن آراءِ أصحابها

الفهرس

الموضـــــــــوع	الصفحة



افتتاحية العدد

كلمة رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن نظامًا قويمًا، وحبلًا متينًا، من تمسك به نجا، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِي صراطًا مستقيمًا، جعله الله هاديًا للتي هي أقوم، وتبيانًا لكل شيء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ فهو مشتمل على كل علم نافع، من علوم الأولين والآخرين، وما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم.

وصلى الله وسلم على سيدنا ورسولنا محمد، إمام الأتقياء وسيد الأنبياء، الذي أرسله ربه شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة، وأقام الملة.

وبعد:

فإن العناية بكتاب الله تعالى ونشر علومه ومعارفه، من أجلِّ الأعمال وأفضلها في الدنيا والآخرة.

ومع تشعب العلوم والمعارف، وتنوع الاهتمامات، وتعددت التخصصات، وكثرة الدارسين والمهتمين والباحثين عن المعرفة - تدعو الحاجة إلى تنوع أوعية النشر وتعددها، للرقي بالدراسات القرآنية وتطويرها؛ خدمة لكتاب الله واهتمامًا بنشر هداياته علمـًا وعملًا.

وقد أسهمت المجلات العلمية المحكمة المتخصصة بجهد كبير في خدمة المعارف والعلوم والعناية بالموضوعات البحثيّة والمنهجية والعلمية، وتأتي مجلة «تدبر» كإسهام معرفي في خدمة القرآن الكريم وعلومه، والدراسات المتعلقة به.

ويسعدني أن أقدم بين يدي القارئ الكريم العدد الثاني من هذه المجلة، والذي جاء -بفضل الله- زاخرًا بالبحوث العلمية التي تناولت قضايا هامة، ذات صلة مباشرة بحياتنا اليومية، وذلك بعد أن تم عرضها وتحكيمها ومناقشتها، ثم إجازتها للنشر.

وإن من توفيق الله سبحانه أن هدى لاختيار اسم هذه المجلة (مجلة تدبر)، وقد استُلهم فيه حاجة العصر الذي اقتضت طبيعته البحث والتخصص والمواكبة، حتى نتمكن من مخاطبة أهله بما يناسبهم.

وقد خطَت مجلة تدبر في باكورة أعدادها خطواتها الواثقة بموضوعاتها المتنوعة في مجال تدبر القرآن وخدمته، مع ما لقيه صدور العدد من عقبات الولادة التي تخطّاها بعون الله وتوفيقه، ثم بجهود أعضاء هيئة التحرير وزملائهم المهتمين، الذين لا يرجون منّا جزاءً ولا شكورًا، بل احتسبوا ذلك لله، وسطرت بذلك قصة نجاح يحكيها العدد الأول من المجلة؛ فقد لقي العدد ترحيب الزملاء في الجامعات والمعاهد والمراكز، والمشايخ الأجلاء، والمهتمين بالدراسات القرآنية.

وها نحن نضع بين يدي القارئ الكريم العدد الثاني من مجلة تدبر، بموضوعات متنوعة، وباحثين من عدد من بلدان العالم، مع تقارير للرسائل العلمية والمؤتمرات المختصة بتدبر القرآن ومجالاته.

والمجلة تطمح وتطمع في تقديم موضوعات حيَّة وجادَّة، ومتميزة في موضوع تدبر القرآن ومجالاته، والعلوم الخادمة لتدبر القرآن والعمل به، والتأثر بصبغته في الحياة والعلوم.

ولنا أملٌ بأن يتحقق ذلك بشكل أفضل في الأعداد القادمة -بإذن الله- بتظافر الجهود بين الباحثين والمهتمين، وتفاعلهم مع الفاحصين وأعضاء هيئة التحرير، في اختيار الموضوعات وتقويمها للأفضل بإذن الله.

ولذا ندعو الباحثين إلى إثراء المجلة بالجديد، والبحث في مسائل التدبر وقضاياه، التي لا تزال بحاجة للمزيد من الإثراء والتحليل والدراسة والتأطير؛ ليتميز تدبر القرآن والتأثر به، ويؤتي ثماره، وتعود حضارة أهله قائمةً على سوقها، منافسةً حضارات الأمم الماديّة.

فإنّ المجلة منهم ولهم، وهي ترتقي بهم. وبجهودهم يستمر العطاء، وبنوعيته وجهد الجميع مع توفيق الله يتحقق التميز والارتقاء.

وإنني لأدعو الله لهيئة تحرير المجلة بالتوفيق والسداد، وأن يكونوا عند حسن الظنِّ بهم؛ لِما يبذلونه من جهودٍ حثيثةٍ للارتقاء بالمجلة وأبحاثها.

والحمد لله، والشكر له سبحانه ابتداءً وانتهاءً على التوفيق والسداد.

ثم الشكر لكل من ساهم ودعم بفكره أو ماله أو جهده، والله لا يضيع أجر المحسنين.

رئيس التحرير

أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي

الأستاذ بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

مجلة تدبر



أولاً: البُحُوث

مجلة تدبر



البحث الأول :

بلاغة القرآن في تذييل الآيات
دراسة تأصيلية

أ.د. أحمد بن محمد الشرقاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر.
والأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وجامعة الشارقة سابقاً

sharkawe2000@yahoo.com

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر في - التفسير وعلوم القرآن باطروحته منهج الشيخ سعيد حوى في كتابه الأساس في التفسير (دراسة مقارنة)
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين جامعة الأزهر في التفسير وعلوم القرآن باطروحته (المرأة في القصص القرآني) دراسة موضوعية مقارنة .
- من مؤلفاته :
- المرأة في القصص النبوي.
- الكتب السابقة في القرآن الكريم دراسة موضوعية
- القرآن والحضارة، القرآن والكون، القرآن والمرأة.
- صلاة الاستخارة، الصبر عند فقد الولد، يتيمة الدهر في تفسير سورة العصر، المنهل القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، مناهج المفسرين، الوسيط في تاريخ التشريع، مناهج البحث والمكتبة الإسلامية.

ملخص البحث

من وجوه البلاغة القرآنية الفريدة تذييل الآيات بما يتناسب مع مضمونها، ويأتي مبينا ومقررا لمعانيها، ولقد وقف المفسرون عند هذه السمة القرآنية، وأمعنوا النظر فيها، وهذه الدراسة تدور حول بيان معنى التذييل ، وأهمية دراسته، والفرق بينه وبين الفاصلة، وتبرُزُ أَهَمِّيَّةُ دراسةِ التذييل في وجوه منها : الاستعانةُ بهذا العلمِ على فهمِ كتابِ اللهِ، وإبرازُ جانبٍ مُهم من جوانبِ الإعجازِ القرآني، وبيانُ مشكلِ التذييلِ، وردُّ شُبُهَاتِ المستشرقينَ وأعداءِ الدين حول الوحدة القرآنية. فضلا عن الاستعانة بهذا العلمِ في تثبيتِ حفظِ القرآنِ، كما تعرضُ الدراسة لفوائد التذييل وأصولُ الوقوفِ على لطائفهِ، وسماته، ولقد استفاد الباحث من مراجع البلاغة والتفسير وعلوم القرآن، وعُني بالتأصيل لهذه الموضوع ، مفرقا بين التذييل والفاصلة، مبيّنا أثر دراسة هذا العلم على فهم المعاني واستنباط الدقائق، ودفع الإيهام.

كلمات مفتاحية :

بلاغة ، تأصيل، تذييل ، الآيات، القرآن.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمدُ لله واهِبِ النِّعَمِ، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ واسعُ الجودِ عظيمُ الكرَمِ، أرسل رسولَهُ رحمةً لجميعِ الأمَمِ، وخصَّهُ بجوامِعِ الكلمِ وأطايبِ الحِكَمِ، وأكملَ له الدينَ وأتمَّ عليه النِّعَم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبِهِ أولي العزائِمِ والهِمَمِ، وعلى من تَبِعَ سُنَّته وسار على هديِهِ على الوجهِ الأتمِّ.

وبعدُ:

فالقرآنُ الكريمُ رسالةٌ خالدةٌ، ونِعَمٌ متجددةٌ، هدًى ونورٌ، ومنهاجٌ ودستورٌ، وخطابٌ لكلِّ العصور، ورحمةٌ وشفاءٌ لما في الصدور، وتدبُّرُ القرآنِ الكريمِ سبيلُنا إلى اقتطافِ ثَمَرَاتِهِ، واجتلاءِ أنواره، واقتباسِ هداياتِهِ، ومعرفةِ أحكامِهِ، والوقوفِ على لطائفِهِ وحِكَمِهِ؛ ومما هو حريٌّ بالتدبُّر والإمعانِ ما خُتمتْ به الآياتُ من تذييلاتٍ، تنمُّ عن بلاغةٍ وافيةٍ، وتَبِينُ عن حِكَمٍ ساميةٍ.

وهذا بحثٌ في التذييل، كتبته منذ ثماني سنوات، وكنت أعيد النظر فيه بين الفينة والأخرى، ولعله الآن جديرٌ بالنشر، وقد جعلته بعنوان «**بلاغة القرآن في تذييل الآيات - دراسة تأصيلية**». وأسأل الله القبول.

أهمية الموضوع

- **للموضوع أهمية بالغة، نجملها فيما يأتي:**

١) **إبراز جانب من جوانب الإعجاز القرآني** في تناسقه وجماله وروعته،

وتفرُّده بهذا الأسلوب.

٢) **الرد على شبهات أعداء الإسلام** الذين زعموا أن القرآن الكريم ليس له اتساق، ولا يجمعه سياق.

٣) **الاستعانة بهذه الدراسة** على تدبُّر كلام الله تعالى وفهمه وتفسيره.

الدراسات السابقة

قامت جامعة الأزهر بتكليف بعض الأساتذة ببحوث تطبيقية حول تذييل بعض الآيات، وكنتُ ممن كُلِّفت بكتابة التذييل؛ فكتبت في حزب من القرآن، من سورة آل عمران، ومن سورة النساء، سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، وتم تحكيم هذا البحث وإجازته من قِبَل اللجنة العلمية الدائمة لترقيات الأساتذة، وكنتُ أرجع إليه بين الفينة والفينة، ثم قررتُ إعادة كتابته مع التركيز على الجانب التأصيلي، والتمثيل لكل ما أذكر.

لكن لم أجد دراسة تأصيلية لهذا الموضوع باستثناء دراسة حديثة ظهرت عام ٢٠١٣م، لباحثة جزائرية، بعنوان «التذييل في القرآن - دراسة بلاغية - سورة البقرة نموذجًا»، نالت بها الباحثة فاطمة معزوز درجة الماجستير في الأدب، ولقد قرأتها فوجدت فرقًا كبيرًا بين دراستي وبينها من جهة التأصيل والتمثيل، ومن جهة المفاهيم والرؤى؛ فهي لم تضع تعريفًا محددًا لجمل التذييل القرآنية، وترى الباحثة أن جملة التذييل قد تقع في وسط الكلام، والذي اخترته أنها تقع في ختام الآية، وقامت بالمقارنة بين التذييل وأشياء أخرى ليست مناظرة له ولا ملتبسة به حتى تحتاج لمقارنة، كما أنها أطالت كثيرًا في قرابة ٥٠ صفحة في الكلام عن السياق بما يُعدّ عبئًا على البحث.

هذا بالإضافة إلى ما كُتب في الفاصلة من الناحية البلاغية، وأهمّ الدراسات العلمية دراسة الفاصلة للأديب محمد الحسناوي، وباستثناء ذلك فالدراسات أخذت منحى التطبيق دون التأصيل، فعنيت دراستي بالتأصيل مع التمثيل، مع استفادتي بجهود السابقين.

خُطَّة البحث

- **أما عن خُطَّتي في هذا البحثِ، فهي على النحوِ الآتي:**

* **قمتُ بتقسيمِ البحثِ إلى: مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمةٍ.**
* **المقدمةُ:** والحديثُ فيها عن أهميةِ الموضوعِ، وخطةِ البحثِ، ومنهجِهِ.
* **تمهيد:** معنى التذييل، وأهمية دراسته. ويحتوي على مبحثين:
* **المبحث الأول: تعريف التَّذييل في اللغة والاصطلاح، والفرق بينه وبين الفاصلة.**
* **المبحث الثاني: أَهَمِّيَّةُ دراسةِ التذييل في القرآن**، وقد اشتمل على ما يأتي:
  - أولًا: الاستعانةُ بهذا العلمِ على فهمِ كتابِ اللهِ.
  - ثانيًا: إبرازُ جانبٍ مُهم من جوانبِ الإِعجازِ القرآني.
  - ثالثًا: بيانُ مُشكلِ التذييلِ.
  - رابعًا: ردُّ شُبُهَاتِ المستشرقين وأعداءِ الدين حول الوَحدة القرآنية، وترتيب القرآن.
  - خامسًا: الاستعانةُ بهذا العِلْم في تثبيتِ حفظ القرآن.
* **الفصل الأول: فوائد التذييل وأصولُ الوقوفِ على لطائفهِ، وفيه مبحثان:**

* **المبحث الأول: فوائد التذييل:** وقد اشتمل على ما يأتي:

- أولًا: التبيين.
- ثانيًا: تقرير المعاني.
- ثالثًا: جمال العبارة.
- رابعًا: إثراءُ المَعْنَى.
- خامسًا: حُسْن التعليل.
- سادسًا: حُسْن الخِتام.
- سابعًا: الاحتراس.
- ثامنًا: التنوع والتفنُّن.
- تاسعًا: التعميم.

* **المبحث الثاني: أصولُ الوقوفِ على لطائفهِ،** وقد اشتمل على:

- أولًا: مراعاةُ مقاصدِ القرآنِ الكريم.
- ثانيًا: الدرايةُ باللغةِ العربيةِ وأساليبِها وفنونِها.
- ثالثًا: مراعاةُ قواعدِ التفسيرِ وأُصُولِهِ.
- رابعًا: النظرةُ الكليةُ للسورةِ.
- خامسًا: النظرُ في السياقِ.
- سادسًا: التذَوُّق وصفاءُ الذهنِ ومعايشةُ القُرْآنِ.

* **الفصل الثاني: فنون التذييل وسماته. وفيه مبحثان:**

* **المبحث الأول: من فنون التذييل في القرآن**. وقد اشتمل على:

- أولًا: التتميم.
- ثانيًا: التصدير.
- ثالثًا: التوشيح.
- رابعًا: التمكين.
- خامسًا: الإيغال.

* **المبحث الثاني: من سمات التذييل:**

- أولًا: مراعاة الفاصلة.
- ثانيًا: التناسب.
- ثالثًا: التعميم.
- رابعًا: الوضوح والبيان.
- خامسًا: التكرار.
- سادسًا: العمق والدقة.
- سابعًا: التنوع والتفنن.

* **ثم الخاتمة وقد ضمَّنْتُهَا:**

- خلاصةَ البحث ونتائجَه.
- أهمَّ التوصيات.
- ثبتًا بمراجعِ البحث.
- فهرسَ الموضوعات.

منهج البحث

يجمعُ هذا البحثُ بين المنهج التحليلي والمنهج الاستنباطي، حيثُ التأمُّلُ والتدبُّرُ والاستنتاجُ والاستخلاصُ، والاستنباطُ، إضافةً لما يأتي:

١) **القيام بدراسة تذييلات القرآن دراسة تدبرية؛** للوقوف على خواصّها ولطائفها.

٢) **الاطِّلاع على ما كُتِبَ عن فن التذييل،** وكذلك الفاصلة قديمًا وحديثًا.

٣) **رجعتُ إلى ما تيسَّر لي الرجوعُ إليه من كتب التفسير وعلوم القرآن،** حتى تكوَّنتِ الفكرةُ واتضحت الرؤيةُ، فبدأتُ بالدراسةِ النظريةِ؛ حتى تكونَ عونًا وضياءً على فهمِ معاني التذييل واستخراجِ لَطَائِفِهِ ودُرَرِهِ.

٤) **الجمع بين التأصيل والتمثيل؛** لإبراز روائع أسلوب التذييل وجلال مقاصده.

٥) **الآيات القرآنية منسوخةٌ برسم المصحف العثماني،** مع بيان اسم السورة ورقم الآية.

٦) **ضبطُ الأحاديث والآثارِ مع تخريجِهَا،** وبيان حكمها، وتوضيح غَرِيبِهَا.

٧) **ضبطُ الأشعار وعزوُها إلى من قالها،** مع بيانِ مَوْضِعِ الشاهِدِ منها إذا احتَاجَ إِلى بيانٍ.

وبعدُ:

فهذا جهدُ المُقِلِّ، فإن كان فيه من خيرٍ، فلله الحمدُ وله الفضلُ، وأسألُهُ تعالى القَبُولَ، فهو خيرُ مأمولٍ، وإن كان فيه من تقصيرٍ، فأرجُو من القارئ الكريمِ أن ينظر لي بعينِ الوُدّ، ويدعو لي بالمغفرة والرحمة.

وصلِّ اللهم على معلِّم الناسِ الخيرَ والحكمة، نبيِّنا وإمامِنا وقدوتِنا محمدٍ ناصح الأمة، ومن كشف الله به الغُمّة، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والهمّة، ومن تبعهم بصدق وعزمة، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

❋ ❋ ❋

تمهيد

معنى التذييل وأهمية دراسته

المبحث الأول

تعريف التَّذييل في اللغة والاصطلاح، والفرق بينه وبين الفاصلة

أولًا: التَّذييلُ في اللغة:

أصلُه من الذَّيْلِ وهو: آخِرُ كُلِّ شَيْءٍ، ومنه طرفُ الثوبِ، ورِداءٌ مُذَيَّلٌ: طَوِيلُ الذَّيْل، وذَيْلُ المَرْأةِ: طرف ردائها، وذالَتِ المرأة تَذيلُ: جرَّت ذيلَها على الأرضِ وتبخترتْ، وقد ذَيَّلَ ثَوْبَهُ تَذْييلًا، ومنه قول طَرَفَةَ بنِ العَبدِ:

فَذالَتْ كما ذالَتْ وَليدَةُ مجلسٍ ... تُري رَبَّها أذْيالَ سَحْلٍ(1) مُمَدَّدِ(2)

وفي الحديث «عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَمْ تَجُرُّ الْمَرْأَةُ مِنْ ذَيْلِهَا؟ قَالَ (شِبْرًا)، قُلْتُ إِذًا يَنْكَشِفُ عَنْهَا! قَالَ: (ذِرَاعٌ لَا تَزِيدُ عَلَيْهِ)»(3).

(1) ذالت: ماست، وتبخترت الناقة في مشيتها كما تتبختر وليدة، أي صبيَة عُرِضَت على أهل مجلس، فأرخت ثوبها، واهتزت بأعطافها، أو تراقصت حتى دار ذيل ثوبها، والسحل: الثوبُ الأبيضُ النقيُّ والممدد الذي ينجر في الأرض. يراجع شرح القصائد العشر، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي (ص: ٧٧).

(2) يراجع: لسان العرب لابن منظور ١١/ ٢٦٠، ومختار الصحاح للرازي ١/ ٢٢٦، والمصباح المنير للفيومي ١/ ٢١٣، وتاج العروس للزبيدي ٧/ ٣٢١ مادة ذ ي ل.

(3) رواه النسائيُّ في السنن كتاب الزينة – باب ذيول النساء حديث ٥٣٣٧، ورواه ابنُ ماجه في السنن كِتَاب اللِّبَاسِ بَاب ذَيْلِ الْمَرْأَةِ كَمْ يَكُونُ؟ حديث ٣٥٨٠، ورواه أحمد في المسند ٦/ ٢٩٥ و٣٠٩، ورواه البيهقي في السنن ٢/ ٢٣٣ عن محمد بن إسحاق عن نافع عن صفية بنت أبي عبيد عن أم سلمة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا إسناد رجاله ثقات لولا عنعنة ابن إسحاق لكنه توبع، فرواه مالك في الموطأ=

ثانيًا: التذييل في الاصطلاح:

جاء في سرِّ الصناعتين: «التذييل: إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتوكَّدُ عند من فهمه»[(١)]، وهذا تعريفٌ ليس جامعًا مانعًا؛ إذ تشمل الإعادة على إطلاقها، دون تقيد بختام الجملة، كما أنه أدرج في التعريف مقصود التذييل.

وفي سرِّ الفصاحة: «وأما التذييلُ: فهو العبارةُ عن المعنَى بألفاظٍ تزيدُ عليه»[(٢)]. وليس هذا التعريف بالجامع المانع.

وجاء في كتاب البديع في نقد الشعر: «اعلم أن التذييل: هو أن تأتي في الكلام جملةٌ تحققُ ما قبلها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وكذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] وهو كثير في القرآن»[(٣)]. ولم يبين أسامة بن منقذ في تعريفه موقع جملة التذييل.

وفي الإيضاح: «التذييلُ: تعقيبُ الجملةِ بجملةٍ تشتملُ على معناها للتوكيدِ»[(٤)].

ولم يُشر القزويني إلى موقع جملة التذييل التي تأتي في ختام الكلام، كذلك لم يبين مقاصد التذييل الأخرى كالتبيين، ودفع الإيهام، والتعميم.

= ٣/ ١٠٥: عن أبي بكر بن نافع عن أبيه نافع مولى ابن عمر به، ومن طريق مالك أخرجه أبو داود في السنن، كِتَاب اللِّبَاسِ بَاب فِي قَدْرِ الذَّيْلِ ٢/ ١٨٤ حديث ٣٥٩٠، وابن حبان في صحيحه حديث ١٤٥١، وأبو بكر بن نافع ثقة من رجال مسلم؛ فالإسناد صحيح على شرطه.

(١) كتاب «الصناعتين» لأبي هلال العسكري، الفصل الرابع عشر في التذييل ص ٢٨٥.

(٢) سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي ص ١٦٤: ١٦٧، ويراجع تلخيص المفتاح للقزويني ص ٢١١.

(٣) البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ، باب التذييل ص ٥٣ باختصار.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين القزويني باب الإطناب ص ١٩٠، ويراجع: علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ص ١٧٧.

وجاء في تحرير التحبير: «التذييلُ: هو أن يذيِّلَ المتكلمُ كلامَهُ بجملةٍ يتحققُ فيها ما قبلها من الكلامِ، وتلك الجملةُ على قسمين: قسمٌ لا يَزِيدُ على المعنى الأَول، وإنما يؤتَى به للتوكيدِ والتحقيقِ، وقسمٌ يُخْرِجُهُ المتكلمُ مخرجَ المثلِ السائرِ ليحققَ به ما قبله»[1]. قلتُ: بل جملةُ التذييل مع كونها محققةً ومبينةً لما قبلها إلا أنها تثري المعنى، وتضيف معنى زائدًا.

■ **ويلاحَظُ على هذه التعريفات:**

* **أنها تَشْمَلُ التذييلاتِ الواردةَ في القرآنِ**، وكذلك ما وردَ في كلامِ العربِ من نثرٍ وشعرٍ.
* **الغرضُ من التذييل**: تحقيقُ المعاني وتوكيدُها وتقريرُها، فضلًا عن الإيضاحِ والتبيينِ.
* **أن التذييلَ عند علماءِ البلاغةِ** قد يقعُ في وَسَطِ الكلامِ، أو في آخِرِهِ.
* **التوافُقُ والانسجامُ** بين معنى جملةِ التذييلِ والكلامِ المُذيَّل.
* **جملة التذييل القرآنية مستقلة بلفظها ومعناها غالبًا**، فتسير مثلًا سائرًا يحسن اقتباسه.

ولا يختلفُ كثيرًا تعريفُ التذييلِ عند علماءِ التفسيرِ وعلومِ القرآنِ عن تعريف البلاغيين؛ ففي البرهان والإتقان: التذييل: «أن يأتيَ بجملةٍ عقب جملة، والثانية تشتمل على المعنى الأول؛ لتأكيد منطوقه أو مفهومه؛ ليظهر المعنى لمن

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الأصبع باب التذييل ص ٣٨٧، ويراجع في ذلك: خزانة الأدب وغاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي ١/ ٢٤٢، ومعجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة ص ٢٣٤، والمعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني د. إنعام نوال عكاوي ص ٣٠٠، وجاء في التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: «التذييلُ: تعقيبُ جملةٍ بجملةٍ مشتملةٍ على معنَاهَا للتأكيدِ» التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي ١/ ١٦٨.

لم يفهمه ويتقرر عند من فهمه»[(١)].

ولم يحدد لنا الزركشي موقع جملة التذييل، كما أن جملة التذييل تأتي تعقيبًا لجملة أو أكثر، لا لجملة واحدة.

والذي أراه أنَّ جملةَ التذييلِ: جملةٌ مستقلة تأتي في ختامِ الآي بعدَ تَمَامِ المعنى لبيانه وتقريرِه.

جملة مستقلة لفظًا ليس لها تعلقٌ لغويٌّ بما قبلها، بل هي مستأنفة غالبًا، وقد تأتي مقرونة بحرف العطف.

تأتي في ختام الآي: فالتذييل هو في خواتيم الآيات ولا يكون في وسطها، لبيان المعنى وتوضيحه أو دفع إيهام، ولتقريره: لتوكيده وتحقيقه.

والتذييل قد يقع ختامًا لآية، أو لآيتين، أو أكثر.

فخرج بذلك: الجملة المتصلة بما قبلها لفظًا: كالواقعة في جواب الشرط، أو خبر المبتدأ وغيرها، فليست تذييلا؛ إذ لا يمكن فصلها عمَّا قبلها فلا تستقل بمعنى، لذا فلن نتوقف في دراستنا التطبيقية عند الآيات التي لم تختم بتذييل: أي بجملة مستقلة محققة لما قبلها من المعنى.

ثالثًا: الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

الصلةُ بينهما واضحةٌ جليَّةٌ؛ فذيلُ الشيء هُو نهايتُه، وذيلُ الثوبِ طرفُهُ، وذيلُ الكلامِ آخرُهُ ومُنتَهَاهُ، والتذييلُ هو الجملةُ التي تردُ بعد تمام المعنى؛ للبيان أو التقرير أو لكليهما معا، فكأنَّه شبَّه هذه الجملةَ لزيادتِها، وكونِ المعنى يتمُّ بدونها

(١) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ هـ) - النوع الخامس عشر ٣/ ٦٨، والإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) - ١/ ٣١٤.

بالزائد من ذيلِ المرأةِ الذي ينجرُّ على الأرضِ، فَيَزِيدُ الثوبَ حُسنًا وتأنُّقًا، وقد جَرَت الأذواقُ على ضرورةِ التناسقِ بين الثوبِ وذيلِه، من جهةِ الألوانِ والنقوشِ والخيوطِ وغيرِها، مع مراعاةِ التنوعِ والتفننِ والتناسب في الشكل، شأنُ التذييلِ الذي لا بدَّ وأن يتناسبَ مع سابقِه، ويدلَّ عليه ويقرِّره ويزيدَه روعةً وحُسنًا، والتذييلُ يكونُ في النثر والشعرِ، وهو لونٌ من ألوانِ البلاغةِ وفنٌّ من فنونها، وهو من روائعِ أساليبِ القرآنِ وبدائعِ نظمِه.

رابعًا: الفاصلة في اللغة والاصطلاح:

١- الفاصلة في اللغة:

من الفصل والبيان، قال الأزهري: «وأواخِرُ الآياتِ في كِتَابِ اللهِ فَوَاصِلُ، بِمَنْزِلَةِ قَوَافِي الشِّعر، واحِدَتُها فاصلةٌ...»[(١)].

وقال ابن منظور: «الفواصلُ أواخرُ الآياتِ في كتابِ الله [(٢)]، «وسُمِّيتْ فواصلُ؛ لأنه ينفصلُ عندها الكلامانِ، حيث إن آخرَ الآيةِ فَصْلٌ بينها وبينَ ما بَعْدَها»[(٣)].

٢- الفاصلة في الاصطلاح:

جاء في البرهان للزركشي: «الفاصلةُ كلمةُ آخرِ الآيةِ كقافيةِ الشعرِ وقرينةِ السجعِ»[(٤)].

وعرَّفها الرُّماني والباقِلاني بأنها: «حروفٌ متشاكلةٌ في المقاطع، يقعُ بها إفهامُ المعاني»[(٥)].

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري: أبي منصور الأزهري ١٢/ ١١٨ باب الصاد واللام مادة «ف ص ل» باختصار.

(٢) لسان العرب لابن منظور ١١/ ١٨٩، ويراجع كتاب التوقيف على مهمات التعاريف، للإمام المناوي ص ٥٥٨.

(٣) الفاصلة القرآنية، للدكتور عبد الفتاح لاشين ص ٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٥٣ النوع الثالث: معرفة الفواصل ورؤوس الآي، ويراجع: الإتقان في علوم القرآن، النوع التاسع والخمسون: في فواصل الآي ٢/ ٩٦.

(٥) النكت في إعجاز القرآن، للرماني ص٩٧، وإعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني ص ٢٧٠، ويراجع: مرشد الخلان، عبد الرازق على إبراهيم موسى ص ٣٤.

وقيل في تعريفها: «هي الكلمةُ التي تُخْتَمُ بها الآيةُ، وبها يتمُّ معناها، ويزدادُ وُضُوحًا وجلاءً»[1]، وعلى هذا فليس كلُّ خِتَامِ آيةٍ فاصلةً؛ لأن الآيةَ قد تُختمُ قبل تمامِ المعنَى.

وعرَّفها أبو عمرو الداني بأنها «كلمةُ آخِرِ الجملة» قال: «وأما الفاصلة: فهي الكلام التام المنفصل عما بعده، والكلام التام قد يكون رأسَ آية وكذلك الفواصل، يكنَّ رؤوسَ آيٍ وغيرها، فكل رأس آيةٍ فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعُمّ النوعين وتجمع الضربين»[2].

وعرَّفها د. أحمد بدوي: بأنها الكلمة التي تُخْتَمُ بها الآية من القرآن[3].

واختار الأديب محمد الحسناوي في كتابه «الفاصلة في القرآن»، أن الفاصلة: «هي كلمة آخر الآية: كقافية الشعر، وسجعة النثر»[4].

وفرَّق د. السيد خضر بين تعريف الفاصلة من جهة الصوت، ومن جهة الدلالة، أما بالاعتبارِ الصوتي فهي آخِرُ كلمةٍ في الآيةِ، وأما باعتبارِ الدلالةِ فيقول: «وباعتبار الدلالة نجد جملة الفاصلة، وفيها تكون كلمة الفاصلة جزءًا من تركيب جملة مستقلَّة في نهاية الآية، وهي جمل تأتي للتعقيب أو لتقرير مضمون الآية غالبا»[5].

قلتُ: وليس كل فاصلة قرآنية جزءًا من تذييل؛ إذ كل آية لها فاصلة، وإن لم تختم بتذييل.

(١) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم نذير حمدان ص ٤١.
(٢) البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو الداني ص ١٢٦.
(٣) من بلاغة القرآن، أحمد بدوي ص ٧٥.
(٤) الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي ص ٢٩.
(٥) الفواصل القرآنية دراسة بلاغية، للدكتور السيد خضر ص ٥٧.

خامسًا: بين التذييل والفاصلة:

* الفواصل تقع في الشعر والسجع وغيرهما من فنون الكلام كما تقع في كتاب الله تعالى.
* الفاصلةُ هي المقطع الأخير من الكلمة الأخيرة في الآية، تمَّ بها المعنى أم لم يتمَّ.
* التذييلِ تقريرٌ للمعنى وبيانٌ له.
* التذييل لا يقعُ إلا بجملةٍ، أما الفاصلة فالمقطع الأخير من آخر الآية.
* لكُلّ نهايةِ آيةٍ فاصلةٌ، وليس لكلّ آيةٍ تذييلٌ.
* الفاصلة للآية كالقافية للبيت، بها يعرف ختامُها، ويُراعَى في الفواصلِ غالبا التوافق اللفظي والانسجام الصوتي، مع السياق.
* معرفة الفواصل أمرٌ يسيرٌ، بينما الوقوف على التذييل يحتاج لدراسة وتدقيق.
* درج بعض المفسرين والبلغاء على الاكتفاء بمراعاة الفواصل كتعليل، وربما يغلق بذلك الباب عن النكات البلاغية واللطائف والدقائق المعنوية التي تُحجبُ عن القارئ، فلا يرى سوى مراعاة الفاصلة، أو رعاية الفواصل.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني

﴿ أَهمِّيَّةُ دراسةِ التذييل في القرآن ﴾

۞ تذييلُ الآيات القرآنية:

سمةٌ فريدةٌ من سمات القرآن الكريم، تدلُّ على بلاغَتِه وروعتِه، وجمالِه وجلالِه، وتُعينُ على فهمِ المعنى، واستنباطِ الأحكام، من هنا مسَّت الحاجةُ إلى الوقوفِ عند تذييلاتِ الآياتِ، وإطالةِ النَّظرِ فيها، وإبرازِ معانِيها، وبيانِ تناسبِها وتآخيها.

وفيما يلي أتناولُ أهميةَ التذييل، بشيء من التفصيلِ، فأقولُ - وعلى الله قصدُ السبيلِ -:

۞ أولًا: الاستعانةُ بهذا العلمِ على فهمِ كتابِ الله:

أَمَرَنَا اللهُ بتدَبُّرِ كتابِهِ وإمعانِ النظرِ في مبانِيهِ ومعايشةِ معانيه وتذوُّقِ أساليبِهِ وتتبُّعِ تراكيبِهِ؛ لاستنباطِ الأحكامِ، واستجلاءِ المعاني، وإن دراسةَ أساليبِ التذييل: مما يُعينُ على فهمِ معنى محكمِ التنزيلِ، ويَبينُ عن كثيرٍ من اللطائفِ والدقائقِ.

قال الرماني: «الفواصل: حروفٌ متشاكلةٌ في المقاطعِ، توجبُ حُسْنَ إفهامِ المعاني»[(١)].

تأمل في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ١٢٨ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩﴾ [النساء: ١٢٨، ١٢٩].

---

(١) إعجاز القرآن للرماني ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد زغلول سلام ص ٩٧.

* لماذا خُتمت الآية الأولى بـ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وخُتمت الثانية بـ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؟

فالآية الأولى: إذا خافت الزوجةُ إعراضَ زوجها وانصرافَه عنها، فلها أن تتغاضَى عن بعضِ حقوقِها في النفقة أو في المبيتِ إرضاءً لزوجها، فإذا اتفقَا على ذلك فلا بأسَ، إبقاءً للعشرة بينهما، فالصلحُ خيرٌ، وإن ترتَّب عليه التَّغاضي عن بعض الحقوق؛ ذلك أن النَّفْس قد جُبِلَتْ على الشُّح، يحرص الإنسان على نيل حقوقه كاملة، وربما قصَّر في حقوق غيره، لكن إذا وفَّى الإنسانُ حقَّ غيره وتنازل عن بعض حقوقه، فهذا من باب السماحة، ومن شيم أهل التقى والإحسان، لذا كان تذييلُ الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: أي وإن تُحسنوا في صلتكم بربكم بمراقبته تعالى، وتُحسنوا في تعاملاتكم مع الناس، ﴿وَتَتَّقُواْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والتقوى وسائر الأعمال، ﴿خَبِيرًا﴾: بطبائع النفوس وبواعثها، ﴿خَبِيرًا﴾ ببواطن الأمور وظواهرها، ﴿خَبِيرًا﴾ بأعمالكم يجازيكم عليها، «فالإحسانُ والتقوى هما مناطُ الأمر في النهاية، ولن يضيعَ منهما شيءٌ على صاحبه، فإن الله خبيرٌ بما تعملُهُ كل نفس؛ خبيرٌ ببواعِثِهِ وكوامِنِهِ. والهُتَافُ للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى، والنداءُ لها باسم الله الخبير بما تعمل، هُتافٌ مؤثر، ونداءٌ مُستجابٌ، بل هو وحدَه الهُتَافُ المؤثِّرُ والنداء المستجاب»[1]. «وإنْ تُحْسِنُوا بإمساكِهِنَّ بمعروفٍ وحُسْنِ المعاشرةِ، مع عدمِ موافقتِهن لطباعِكم، وَتَتَّقُوا ظلمَهُن بالنشوزِ والإعراضِ، فاللهُ تعالى يثيبُكم عليه»[2].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٢٥٢.
(٢) حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ٢/ ٤٥٠. ويراجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/ ٤٠٧.

وفي الآية الثانية: دعوةُ الأزواج إلى الإصلاح والتقوى، بالعدل بين الزوجات والوفاء بحقوقهنَّ وحُسن معاشرتهنَّ، فمن فَعَلَ ذلك غَفَرَ اللهُ له ما سَلَفَ من إفراطٍ وتفريطٍ، وعفَا عما بَدَرَ منه من ميلٍ قلبيٍّ لا سلطانَ له عليه. ولمَّا كان الميلُ المنهيُّ عنه ظلمًا، هو الميلُ الماديُّ في النفقةِ والمسكنِ والقسمةِ، وجاءت الدعوةُ إلى تحرِّي العدل والإنصاف، والسعيِّ للإصلاح بقدر المستطاع، نَاسَبَ ذلك البشارة بالمغفرة والرحمة على ما فات قبل نزول هذه الآيات، أو على ما ليس بوسعِ الإنسانِ طالما أنه اجتهدَ بقدرِ طاقتهِ إلى مراعاةِ حدِّ العدالةِ والإصلاحِ.

ثانيًا: إبراز جانبٍ مهمٍّ من جوانب الإعجاز القرآني:

فالبحثُ فيه يكشفُ عن تناسبٍ دقيقٍ وترابط عميق بين صدرِ الآية وما تضمَّنته من معانٍ، وبين ختامها حيث تقريرُ المعاني وتوكيدُها، والتذييل يَزيدُ المُذيَّل حُسنًا ورونقًا وروعةً، فبالتذييل تزداد المعاني جلاءً، وتزدادُ الألفاظُ والعبارات روعةً وسناءً، وتتجلَّى لطائفُ الصلات ودقائقُ المناسبات بين الآياتِ بما يكشفُ عن الوحدة الموضوعيةِ للقرآن، ويبرزُ جانبًا من جوانب إعجازه البلاغي.

ولقد ذكر الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من وجوه إعجاز القرآن الوجه الثالث: «..أنه بديعُ النظمِ عجيبُ التأليفِ، متناهٍ في البلاغةِ إلى الحدِّ الذي يُعْلَمُ عجزُ الخلْقِ عنه...»[1].

قال البوصيري:

لها مَعانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ في مَدَدٍ ... وفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الحُسْنِ والقِدَمِ

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٥ ويراجع ما ذكره في ص ٣٧. ويراجع: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٠٩ وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ص ٢٨٠، والأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٧/ ٣٦٠٢.

فما تُعَدُّ وَلا تُحصى عَجَائِبُها ولا تُسامُ عَلَى الإكثارِ بالسَّأَمِ
فالدُّرُّ يَزدادُ حُسْنًا وَهْوَ مُنْتَظِمٌ وَليسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غيرَ مُنْتَظِمِ(١)

وقال د. محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه النبأ العظيم: «لعمري لئن كان للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءته الصادقة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، لعمري إنه في ترتيب آيِه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات»(٢).

وقال الشيخ سعيد حوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن منزِّلَ هذا القرآنِ المحيطَ بكل شيء جعَلَ في كتابه من أسرار الإعجاز، ومن تشابك الصِّلات بين سُوَرِه وآياته ما به يعرف أن هذا لا يمكن أن يكون إلا إذا كان مُنزِّل هذا القرآن هو الله رب العالمين، الذي أحاط بكل شيء علمًا»(٣).

ثالثًا: بيان مُشْكَلِ التذييل:

فقد تخفى وجوه المناسبة بين ختام الآية والسياق، وهنا تأتي أهميةُ دراسةِ هذا العلمِ والتعمُّقِ فيه لإيضاحِ المشكلِ ودفعِ ما يوهِمُ ظاهرُهُ التعارضَ.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ١١٨].

فهذا من المُشكِل، قال أبو حيان: «وظاهر قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

(١) البردة للبوصيري، شرح البردة، تأليف السوسي على كان حيا قبل ١١٦١ مخطوط ٥,٨١١ ش.س ٤٦٨٦ بجامعة الملك سعود لوحة ٢٧.
(٢) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٠٩.
(٣) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى ٧/ ٣٦٠٢. وينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ص ٢٨٠.

أنه جواب الشرط، والمعنى ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنع عليك ما تريده، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما تفعله تُضِلّ من تشاء وتهدي من تشاء...»[1].

قلتُ: في جواب الشرط مناسبةٌ لطيفةٌ؛ فإنه لما ادَّعى النصارى أن الله تعالى أرسل عيسى ابن مريم - وهو في زعمهم الباطل واعتقادهم الفاسد - ابنه الوحيد، الذي أرسله ليكون فداء وكفارة لخطايا البشرية، وكأنه تعالى - على زعمهم - عَجَزَ عن مغفرتها بغير هذا الأسلوب الغريب العجيب، من هنا بيَّن سبحانه قدرتَهُ على المغفرة؛ حيث لا يمتنع عليه شيء، فإن شاء أن يُعذِّب وإن شاء أن يغفِر دون افتقارٍ إلى واسطةٍ أو وسيلةٍ تتنافى مع عزَّته تعالى وحكمته، والعقل السليم يمجُّ هذه العقيدةَ الملتويةَ التي تأباها الفطرة السويَّة، وما هي إلا مضاهاةٌ لبعضٍ من الأديان الوثنية القديمة، والتي تحمِلُ أسطورةَ الثالوث والصلب والفداء.

كذلك لمَّا جاء في صدر الآية على لسان المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ناسبَ ذلك مقام العزَّة والحكمة، فهو تعالى العزيز الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء، وهو الحكيم في أقداره وأحكامه ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقيل: المعنى إن تُبقِهم على كُفرِهم حتى يموتوا، وتُعذِّبهم فإنهم عبادك، وإن تهدهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده، الحكيم فيما تفعله، تضلُّ من تشاء وتهدي من تشاء.

رابعًا: ردُّ شبهات المستشرقين وأعداء الدين حول الوحدة القرآنية:

في دراسة هذا الموضوع ردٌّ علميٌّ على أعداء الإسلام من الطاعنين في وحدة القرآن الكريم عمومًا، وتناسب التذييل في القرآنِ على وجهِ الخُصُوصِ، حيث

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٦٢، ويراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣٤٨.

أثاروا الشُّبَهَ حول ترتيبِ القرآنِ، وزَعَمُوا أن آياتِ القُرْآنِ لا يجمعُهَا سياقٌ، وأوصوا بإعادةِ ترتيبِ القرآنِ.

ففي دائرة المعارف البريطانية: أن القرآن لا حكمة في ترتيبه، واستدلوا على هذه الدعوى بالفواصل والتذييلات القرآنية، حيث جاء فيها: «وكان القرآن يعطي للقارئ أنه مجرد إنشاء جاء بطريقة عشوائية، ويؤكِّد صحَّة ذلك طريقة ختم هذه الآيات، بآيات مثل: (إن الله عليم)، (إن الله حكيم)، (إن الله يعلم ما لا تعلمون)، وأن هذه الأخيرة لا علاقة لها مع ما قبلها، وأنها وضعت فقط لتتميم السجع والقافية»(١).

ويقول المستشرق الفرنسي بلاشير(٢): «إن إعادة ترتيب السور الذي اقترحه [نولدكه](٣) ينال هنا كامل الأهمية؛ لأنه يلقي على المصحف أضواء مطمئنة، ويرد وضع النصوص إلى آفاق سهلة الإدراك لكونها مقرونة إلى السياق التاريخي المعقول (يعني وفق نزولها).

ويقول بلاشير أيضا: «ويتوصل القارئ الغربي إذ ذاك بمنطق لا تكلُّف فيه إلى الاقتناع بأن الحياة قد أعيدت للصحف فما عاد يظهر على شكل متتابع مُصطَنع وغير منتظم للنصوص، بل على شكل سلسلة من الموضوعات عالجها محمد خلال عشرين عامًا وفقا لمقتضيات دعوته».

---

(١) يراجع قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، للدكتور فضل حسن عباس ص ٧٩ – ٩٣.

(٢) مستشرق فرنسي من أشهر كتبه تاريخ الأدب العربي وكتابه القرآن: نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره – تراجع ترجمته في كتاب المستشرقون للأستاذ/ نجيب العقيقي (١/ ٣٠٩: ٣١٢).

(٣) مستشرق ألماني ت١٩٣٠م له مؤلفات عديدة منها تاريخ النص القرآني – تراجع ترجمته في كتاب المستشرقون للأستاذ/ نجيب العقيقي (٢/ ٣٧٩: ٣٨٣).

ثم يقول في الموضوع نفسه: «والمهم منذ تلك اللحظة أن يقبَل قارئُ القرآن بالانقياد، وتدلُّ التجربة فيما يبدو أن التقيد بالمراحل الزمنية للترتيب الذي اقترحه نولدكه وأخذ به بعض المترجمين يجعل قراءة المصحف سهلة بل ممتعة»[1].

وما ذهب إليه بلاشير ومن قبله نولدكه أغرب إليه المستشرق اليهودي جولدزيهر في كتابه مذاهب التفسير الإسلامي، حيث يقول: «إن القرآن في جميع الشوط القديم للتاريخ الإسلامي لم يحرز الميل إلى التوحيد العقدي للنص إلا انتصارات طفيفة»[2].

وأقول: إن التذييلات والفواصل القرآنية مبنيَّةٌ أولًا على مراعاةِ المعنَى، وثانيًا على اعتبار تناسب اللفظِ والنَّظم، وإن كان مراعاةُ اللفظِ والنظمِ ليس مطَّردًا، **ومرجعُ ذلك إلى أُمُورٍ منها:**

- أن المعنَى هو الأَصلُ، واللفظُ والنظمُ تابعٌ له.
- التفنُّنُ والتنوُّعُ في الأساليبِ القرآنيةِ، وهذا من سماتِ القرآن التي تفرَّد بها عن غيره؛ ذلك أنه ليس بسجعٍ ولَا شعرٍ، كما أنه ليس كالكلام المرسل، معاذ الله أن يشتبهَ كلامُه تعالى بكلام غيره.
- الأسلوبُ القرآني سهلٌ يسيرٌ لا تكلُّف فيه، بل يتسم بالرصانة والعمق، مع عذوبته وحلاوته.

خامسًا: الاستعانةُ بهذا العلم في تثبيت حفظ القرآن الكريم:

من فوائد دراسة التذييل أيضًا تثبيت حفظ القرآن الكريم، حيث يقع اللبسُ

---

(١) القرآن: نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، لبلاشير، ترجمة رضا سعادة ص٢٣: ٤٤.

(٢) الإطناب.

أحيانًا في ختامِ الآيةِ، فيعينُ هذا العلمُ على تجنُّبِ ذلك، ولقد عُني العلماءُ والباحثون بالتأليفِ في الآياتِ المشتبهاتِ، جمعًا وتحليلًا (١).

❊ ❊ ❊

(١) ومن الكتب المؤلفة في ذلك: درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠هـ)، ط دار الآفاق الجديدة بيروت، والبرهان في متشابه القرآن، للكرماني محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت٥٠٠ هـ)، ط دار صادر بيروت، ودار الاعتصام بالقاهرة، وملاك التأويل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، للإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ) ط دار الغرب الإسلامي بيروت، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لبدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣هـ)، ط جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي، ودار الوفاء بالمنصورة.

الفصل الأول

فوائد التذييل وأصولُ الوقوفِ على لطائفهِ

المبحث الأول

فوائد التذييل

للتذييلِ فوائدُ عديدةٌ، فهو لونٌ من ألوان الإطنابِ[(١)] به تآلُفُ الجُمَلِ وتألُّقُها، وتعانقُ العبارات وتأنُّقُها، وانجلاءُ المعاني وتدفُّقُها، وهو من المحسِّناتِ البلاغيةِ؛ حيثُ حُسْنُ الختامِ، وبَرَاعَةُ المقطعِ، وتَعَانُقُ الأطرافِ، وَعُمْقُ الصِّلَةِ، ومن الفوائدِ الجمَّة:

أولًا: التبيين:

فالتذييلُ إيضاحٌ وتبيين، به انجلاءُ المعانِي، وتبيانُ الحِكَم، فالقرآنُ الكريمُ كتابٌ مبينٌ، آياتُهُ بيناتٌ وحُجَجُهُ ساطعاتٌ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤]، بل إن الهدف الأساسي للتذييل هو البيان، ومن المعلوم أن القرآن يُبيِّن بعضه بعضًا.

تأمل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

جملة التذييل: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: وهي بيانٌ للمخرجِ من هذه الفتنِ، والعصمةِ من تلك المكائدِ، فمن يلوذ بجنابه ويُديمُ طرقَ

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي لجولدزيهر ص ٥ ترجمة د عبد الحليم النجار.

أبوابه ويستمسكُ بكتابه، ينجِّيه من طُرُقِ أهلِ الزيغِ والضلالِ، ويهديه إلى صراطِهِ المستقيمِ.

قال القاسمي: «أي: من يتمسك بدينه الحق الذي بيّنه بآياته على لسان رسوله، وهو الإسلام، والتوحيد، المعبر عنه بسبيل الله، فهو على هدى لا يضل متبعه.

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون حثًّا لهم على الالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم - انتهى - فالجملة حينئذ تذييل لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾... إلخ؛ لأن مضمونه أنكم إن تطيعوهم لخوف شرورهم ومكايدهم، فلا تخافوهم والتجؤوا إلى الله في دفع ذلك؛ لأن من التجأ إليه كفاه»[(١)].

وتأمَّل التَّذْييل في قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ١٣٣﴾ [النساء: ١٣٣]، فلماذا أتى بصفة القدرة؟

قال أبو حيَّان: «وأتى بصيغةِ المبالغَةِ في القدرةِ؛ لأنه تعالى لا يمتنعُ عليه شيءٌ أرادَهُ، وهذا تخويفٌ، وبيانٌ لاقتدارِهِ»[(٢)].

ثانيًا: تقريرُ المعاني:

يأتي التذييلُ مقررًا لما سبقه من معانٍ، ومؤكدًا لها، وهذه سمةٌ من سمات البيان القرآني، حيث تتآلفُ المعاني ويعضِّد بعضُها بعضًا. تأمل في ختام الآية التي تدعو للتوبة دائما بالمغفرة والرحمة المؤكدة بأساليب التوكيد؛ لفتح باب الطمع والرجاء واليقين في مغفرة الله والبشارة برحمته، فالمخطئ في أمسِّ الحاجة لهذا التأكيد، ليُقبِل على التوبة ويطمئن قلبه، فما من ذنب في القرآن مهما عَظُم ومهما

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ص ٩١٢، ويراجع الكشاف، للزمخشري (١/ ٤٢٢).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٣٨٣.

قبح، وما من تقصير أو تفريط، إلا وقد أعقبه القرآن بالدعوة للتوبة، وما من دعوة للتوبة إلا واقترنت وذيلت ببيان وتقرير مغفرة الله ورحمته، تأمل قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، وأفاد التعبيرُ بـ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: الدوامَ والاستمرارَ، أي كان ولا يَزَالُ[١].

والجمعُ بين هذينِ الاسمينِ الجليلين ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يشيرُ إلى الكرمِ الغامِرِ، والفضلِ العميمِ، فهو تعالى مع تجاوزِهِ عن الزلاتِ، وإقالتِهِ العثراتِ، وعفوِهِ عن السيئاتِ، رحيمٌ بعبادِهِ، مُتفضِّلٌ عليهم يغمرُهم بلطفِهِ، ويشملُهُم بكرمِهِ وإِحْسَانِهِ، وفي ذلك تقويةٌ لداعِي الرجاءِ في حُصُولِ المغفرةِ، وشحذٌ للهِمَمِ. وتقديمُ المغفرةِ على الرحمةِ لأنَّه بالمغفرةِ تُستدركُ الرحمة، فهي سبيلُها ومُقدِّمتُها، بالمغفرة غَفَرَ لهم ما بَدَرَ من إفراطٍ أو تفريطٍ، وبالرحمةِ بلَّغَهُمْ أعْلَى المراتبِ وَمَنَحَهُم الأجرَ قبلَ تَمَامِ الأعمال، وبالمغفرةِ نجَّاهُم من النيرانِ، وبالرحمةِ أدخلهم الجِنان.

---

(١) قال الإمام السيوطي: «كان فعل ناقص... معناه في الأصل المضي والانقطاع نحو ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [التوبة: ٦٩]، وتأتي بمعنى الدوام والاستمرار نحو ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء ١٠٠]، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١] أي لم نزل كذلك، وعلى هذا المعنى تتخرجُ جميعُ الصفات الذاتية المقترنة بكان». الإتقان ١/ ١٩٢، وقريب من ذلك ما ذكره الإمام الراغب الأصفهاني: في المفردات ٢/ ٣٢٦.

وفي إيثار صيغة المبالغة ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [صيغة فعول وفعيل] تأكيدٌ وبيانٌ لشمولِ مغفرتِه تعالى وسَعةِ رحمته، وفي ذلك ترجيةٌ لهم.

ومن تقرير المعنى أيضا: التذييل بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

جملة التذييل: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: تنويهٌ بمقامِ إبراهيمَ وحثٌّ على اتِّباعِ ملَّتِهِ، فقد اصطفى اللهُ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واتخذه خليلًا.

قال الزمخشري: «وفائدتُها استطرادٌ لتأكيد وجوب اتِّباع ملَّته؛ لأنَّ مَنْ بَلَغَ مِن الزُّلْفَى عند اللهِ أن اتَّخذَه خَلِيلًا، كان جديرًا بأن يُتَّبع»(١).

ومن تقريرها ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠] من تذييل. فتأمل كيف ناسب هنا ذكر السعة، تقريرا لما تقدَّم من توسعتِهِ.

قال الرازي: «... فهو تعالى واسعُ الرزق، واسعُ الفضل، واسعُ الرحمة، واسعُ القدرة، واسعُ العلم، فلو ذَكَرَ تعالى أنه واسعٌ في كذا لاختصَّ ذلك بذلك المذكور، ولكنه لما ذكر الواسعَ وما أضافه إلى شيء معينٍ، دلَّ على أنه واسعٌ في جميعِ الكمالاتِ»(٢). وناسب ذكر وصف الحكمة، لبيان أنه تعالى حكيم في سعته وفضله على عباده، حكيم في أحكامه وأقداره.

ولتقرير الأحكام: تُذَيَّلُ الأوامرُ بما يُرَغِّبُ فيها ويُحَبِّبُهَا للنفوسِ، وتُذَيَّلُ النواهِي بما يَزْجُرُ عنْها ويُنَفِّرُ منهَا ويُرَهِّبُ من عاقبتِهَا. من ذلك على سبيل المثال

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٣٠١.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١١/ ٦٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: ١١].

قال ابن عاشور: «تذييل للمنهيات المتقدمة وهو تعريض قوِيٌّ بأن ما نُهوا عنه فُسوق وظلم، إذ لا مناسبة بين مدلول هذه الجملة وبين الجملِ التي قبلها لولا معنى التعريض بأن ذلك فسوق وذلك مذموم ومعاقب عليه، فدلّ قوله: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ على أن ما نهوا عنه مذموم؛ لأنه فسوق يعاقَب عليه ولا تُزِيلُه إلا التوبة؛ فوقع إيجاز بحذف جملتين في الكلام اكتفاء بما دل عليه التذييل»[(١)].

ومن تذييل القصة المقرر لمعانيها قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]، حيث وردت هذه القصة، وجاء التذييل منوِّهًا بأهمية القصص في التفكر والاعتبار.

قال ابن عاشور: «... وهذا تذييل للقصة الممثل بها يشملها وغيرها من القصص التي في القرآن، فإن في القصص تفكرًا وموعظة، فيرجى منه تفكرهم وموعظتهم؛ لأن للأمثال واستحضار النظائر شأنًا عظيمًا في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفية إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصة المخصوصة من تذكُّر مشاهدة الحالة بالحواسّ، بخلاف التذكير المجرد عن

(١) نفس المرجع ١٤/ ٢٤.

التنظير بالشيء المحسوس»[1].

۞ ثالثًا: جمالُ العبارة:

فالتذييلُ لونٌ بديعٌ من ألوانِ البلاغةِ، به تتألقُ العباراتُ روعةً وجمالًا، وتنسجمُ الحروفُ والأصواتُ سُهولةً وانتظامًا، وتنسابُ الكلماتُ عُذُوبةً وسلاسة، مع تناسُقِ الألفاظِ واتساقِ العِبَارَاتِ، فهو سهلُ المساقِ حَسَنُ الاتساقِ، حُلوُ المذاق، قريبٌ من فهمِ السامعِ، عذبُ المساغِ في اللَّهواتِ والمسامعِ، وإنما يتجلَّى جمالُ العِبارةِ في تناسُبِ الألفاظِ وتناسُقِهَا، وتنوُّعِ الأساليبِ وتَأَلُّقِهَا، وثراءِ المعاني وتأنُّقها، فكلَّما أمعنْتَ النظرَ وأطلتَ التدبُّر وأجلْتَ الفِكَرَ، وجدتَ نفسَك أمام معنى جديدٍ، غير الذي سَبَقَ إلى فهمك أولَ مرَّةٍ، وكذلك حتى ترى للجملةِ الواحدةِ أو للكلمةِ الواحدةِ وُجُوهًا عدَّةً، كُلُّهَا يحتملُها النصُّ وتستوعبُهَا العبارةُ القرآنيةُ، كأنما هي دُرَّةٌ يتيمةٌ تُبهِر الأبصارَ كلَّما نظرتَ إليها من أيِّ ناحيةٍ وجدتَ حسنًا وجمالًا، وروعةً وبهاءً، ولمعةً وضياءً، أو كروضةٍ غَنَّاء في واحةٍ فيحاء، هبَّتْ نسائمُها، فتضوَّعَتْ رياحينُها، وغرَّدتْ أطيارُها، وتبسمتْ أزهارُها، وتضاحكتْ جداولُها، وتفتَّقتْ ثمارُها، وَأينعَتْ قِطافُها؛ إنها رياضُ القرآن الكريمِ، وواحةُ الذِّكر الحكيم:

وحديقةُ الفرقانِ ضاحكةُ الرُّبَا ... بالتُّرجُمانِ شَذِيَّةٌ غَنَّاءُ
والوحيُ يقْطُرُ سَلْسَلا من سَلْسَلٍ ... واللَّوْحُ والقلمُ البديعُ رَوَاءُ[2]

وتأمَّل جناس الاشتقاق وهو من ألوان البديع في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧﴾ [النساء: ١٠٧]. بين ﴿يَخۡتَانُونَ﴾،

(١) نفس المرجع ٦/ ١٤.
(٢) الشوقيات، لأمير الشعراء أحمد شوقي، الهمزية (١/ ٣٥).

و﴿خَوَّانًا﴾ وهذا لونٌ من ألوان البديع، وفيه تنفيرٌ واستهجانٌ لصفةِ الخيانةِ.

والالتفات من التكلُّم للغَيبةِ، مع إظهار اسم الجلالةِ في ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: ١٠٨]: «لإدخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة»(١). مراعاةٌ لمقام الرهبة والإجلال، ولفتٌ للأذهان، ولتستقلَّ الجملةُ؛ فتخرجُ مخرج المثل.

والتعبيرُ بالاسم الظاهر في موضع الإضمار كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ١٠١﴾ [النساء: ١٠١]: لبيانِ سببِ هذه العداوةِ، وهو الكفرُ، فهي عداوةٌ لا يُرْجى انقضاؤُها، كَمَا قِيلَ:

كُلُّ الْعَدَاوَاتِ قَدْ تُرْجَى مَوَدَّتُهَا إِلَّا عَدَاوَةُ مَنْ عَادَاكَ فِي الدِّينِ

والتعبيرُ بالاسم الظَّاهرِ في مقام الإضمار ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لتشريفِ وتعظيمِ أمرِ الصلاةِ، وكذلك ليَخْرُجَ التذييلُ مَخْرَجَ المثل، ولهذا حَسُنَ الإظهارُ ليستقلَّ عما قبلَهُ. وكذلك العدول عن الضمير للاسم الظاهر ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقلْ عليكم؛ فعبَّر بالاسم الظاهر للتأكيد على أنها لا تُقبلُ إلا من أهلِ الإيمانِ، وأنه حَرِيٌّ بهم أن يقيمُوها فَهِيَ بُرهَانٌ وشِعارٌ على إيمانِهم.

وحَسُنَ فصلُ جملة التذييل عما قبلها: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ١٠٣﴾ [النساء: ١٠٣] لِما بين الجملتينِ من كمالِ الانقطاع؛ فجملةُ التذييلِ خبريةٌ، والتي قبلها جملةٌ إنشائيةٌ طَلَبِيةٌ؛ لذَا حَسُنَ الفَصْلُ بينَهُمَا.

(١) فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني من شيوخ الأزهر، ٤٠٥

■ **والتقديم والتأخير:**

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء: ١٠٧]: تقديمُ الخيانةِ على الإثمِ لأنهم خانُوا الأمانةَ وألصقُوا التهمةَ بالأبرياءِ، فَوَصْفُ الخيانةِ لأنهم سَرَقُوا وَأَنْكَرُوا الوديعةَ، والإثم: باعتبارِ تهمةِ البريء.

قال أبو حيان: «وقُدِّمَتْ صفةُ الخيانةِ على صفةِ الإثمِ، لأنها سببٌ له، أو لتواخي الفواصل»(١)، فتقديمُ الخيانةِ على الإثمِ: لترتيبِ أفعالهم؛ فهم خانوا أولًا، ثم افترَوا على الآخرين، وهذا الافتراءُ إثمٌ كبيرٌ، كما أن الخائن آثمٌ، فالخيانةُ إثمٌ.

■ **والطباق:**

في جملة التذييل ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

■ **واللفُّ والنشر المرتب:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤]، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ يقابله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يقابله ﴿عَلِيمٌ﴾.

رابعًا: إثراءُ المَعْنى:

حيثُ يضيفُ التذييلُ معانيَ جديدةً، يستخلصُها مَنْ تدبَّر في تذييل الآياتِ، وأمعنَ النظَرَ في السياقِ، حيث تتدفقُ المعاني، وتتواردُ الخواطر، وتتفتَّقُ الفِكَرُ،

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٣/ ٣٥٩ بتصرف.

وتتفجَّرُ ينابيعُ البيان.

تقرأُ النصَّ القرآني:

فتلقَى فيه ثراءً ووفاءً بالمعنى المرادِ، فهو رسالةُ كلِّ العصورِ وخطابٌ لجميع الأجيالِ؛ معجزة خالدة ورسالة متجددة ونهرٌ مُطَّرِد، وبحرٌ زاخرٌ لا ساحلَ له.

يقول صاحبُ المناهلِ تحتَ عنوان (قصد القرآن في اللفظ مع وفائه بالمعنى): «ومعنى هذا أنك في كلٍّ من جمل القرآن تجدُ بيانًا قاصدًا مقدرًا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية، دون أن يزيد اللفظ على المعنى، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق، ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير تجده قد جلَّى لك المعنى في صورة كاملة لا تنقص شيئا يعتبر عنصرًا أصليًّا فيها أو حلية مكملة لها، كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلًا فيها وغريبا عنها، بل هو كما قال الله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١]»[١].

كما يأتي التذييل بلطائف المعاني، ودقائق الفوائد من ذلك على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧﴾ [التغابن: ١٧].

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾: أي شاكرٌ للمحسن إِحسانه، حليمٌ بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم، بل يرحم ضعفَهم ويُمهلهم لعلهم يتوبون، ومِنْ شُكْرِهِ تعالى لعباده مجازاتُه لهم بالأجرِ الجزيلِ على العملِ القليلِ.

---

(١) مناهل العرفان، للزرقاني ٢/ ٢٣٣.

وقد أشار الشنقيطي: هاهنا إلى لطيفة فقال: «وقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾ أي لا يعجل بالعقوبة بل يستر ويتجاوز عن الذنوب، ومجيء هذا التذييل هنا يُشْعِرُ بالتوجيه في بعض نواحي إصلاح الأسرة، وهو أن يقبلَ كلٌّ من الزوجين عملَ الآخر بشكر، ويقابل كلَّ إساءةٍ بحلمٍ ليتم معنى حُسن العشرة، ولأن الإنفاق يستحق المقابلة بالشكر والعداوة تُقابَلُ بالحِلْم»[(١)].

وثراءُ المعنى:

من دلائل عَظَمَةِ القرآن، ومن وجوهِ إعجازِهِ وفنونِ بلاغَتِهِ وينابيعِ عطائِهِ لا تنضبُ معانِيه ولا تنقضي عجائبُه ولا تَنْفَدُ خزائنُهُ.

ومع هذا الثراء والتنوع فلا تلقى تناقضًا ولا تلمسُ اختلافًا بين هذه المعاني، بل تراها متآخيةً متلازمةً.

قال البوصيري:

جاءَ النبيُّون بالآياتِ فانصرمتْ ... وجئتَنَا بكتابٍ غيرِ مُنصرمِ
آياتُهُ كلمَا طَالَ المدَى جُدُدٌ ... يَزِينُهُنَّ جمالُ العِتْقِ والقِدَمِ
فالدُّرُّ يزدادُ حُسنًا وَهْوَ منتظمٌ ... وليسَ ينقُصُ حسنًا غيرَ مُنتظمِ[(٢)]

من هنا تتجلَّى فوائدُ الوقوف على لطائف التذييل؛ وذلك لفهمِ المعاني ومعرفة الوجوه. عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا: لا يفقهُ الرجلُ كلَّ الفقهِ حتى يَرَى للقرآنِ وُجُوهًا كثيرةً[(٣)].

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٨/ ٣٣٠.
(٢) البردة للبوصيري، شرح البردة، تأليف السوسي على، مخطوط لوحة ٢٧.
(٣) المصنف، لابن أبي شيبة ٧/ ١٨٧، والمصنف، لعبد الرزاق ١١/ ٢٥٥ حديث ٢٠٤٧٣، والطبقات الكبرى، لابن سعد ٢/ ٣٥٧.

خامسًا: حُسْنُ التعليل:

قد يأتي التذييلُ لبيان علَّةٍ أو لِتَجْلِيةِ حكمةٍ، ولذلك في القرآن أمثلةٌ كثيرةٌ، منها ما ذكره البقاعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧]، قال: «ولما كان المراد - كما أشار إليه بكان - الإخبار بجميع الأعمال الكائنة بالفعل أو القوة، حَسْنَ التعليل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧]، أي بصاحبتها من الخواطر والعزوم، وذلك بما دلت عليه الصحبة كل ما لم يبرز إلى الخارج، فهو بما برز أعلم»(١).

ومثال ذلك: التَّذْييلُ في قولِهِ تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢].

جملة التذييل: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ وذلك إشارة إلى سبب كفرهم وقتلهم الأنبياء، وهو إصرارهم على العصيان واعتداؤهم، ويمكن أن تكون إشارة إلى جميع ما ذُكِرَ في الآيةِ من ضرب الذِّلَّةِ والمسكنة وغضب الله عليهم وكفرِهم وقتلِهم الأنبياءَ بغير حقٍّ. وما مصدرية أي بسبب عصيانهم واعتدائهم، وهذا نشر على ترتيب اللف فكفرهم بالآيات سببه العصيان، وقتلهم الأنبياء سببه الاعتداء»(٢).

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٧/ ٢٣٢، ومثال ذلك أيضًا ما ذكره الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ١٩]، يراجع روح المعاني للألوسي ١٨/ ٢٥٧.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٤/ ٥٧ باختصار.

وفي حاشية محيي الدين شيخ زاده: «إشارة إلى علة العلة، ولهذا المعنى قال أرباب المعاملات: مَن ابتُلِيَ بترك السنة وقع في ترك الفرض، ومَن ابتُلِيَ بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة، ومَن ابتُلِيَ بذلك وقع في الكفر»[(١)].

وقال صاحب المنار: «جرَّأهم على ذلك سبقُ المعاصي والاستمرارُ على العداءِ، فتدرَّجوا من الصغائر إلى الكبائر، إلى أكبر الموبقات وهو الكفر وقتل الأنبياء والمصلحين، فصار هذا العصيانُ والاعتداءُ خُلُقًا للأمة، وطبعًا لها يتوارثه الأبناء عن الآباء بلا نكير»[(٢)]. «وهذه الجملة: مؤكدةٌ لما قبلها، فالعصيان والاعتداء هو عين الكفر وقتلهم الأنبياء، ويحتمل أنها ليس مؤكدةً بل هي علةُ العِلَّةِ؛ فعلَّةُ ضَرْبِ الذِّلَّةِ والمسكنة والغضب من الله: كفرُهم وقتلُهُم الأنبياء، وعلةُ الكفرِ والقتلِ: عصيانُهُم أمرَ الله وتجاوزَهم الحدّ»[(٣)].

والتعبير بالماضي ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ لإفادة تحقق العصيان، وبالفعل «كان» مع المضارع ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ لبيان اعتداءاتهم المتكررة المستمرة بلا توقف، مع مراعاة الفاصلة.

(١) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي ٣/ ١٤٩.

(٢) تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار للسيد رشيد رضا ٤/ ٧٠ وقد ذكر الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه التفسير القرآني للقرآن، وكذلك الشيخ سعيد حوى في كتابه الأساس في التفسير، كلاما طيبا حول هذه الآية وما قبلها، وهو قريبٌ مما ذكرناه وترجع قيمةُ ما كتبه الخطيب إلى أنه كتبه بعد النكسة بثلاثة شهور كما أشار إلى ذلك في تفسيره: «لنتخذ منها أملًا يدفئ صدورنا، ويطمئن قلوبنا، ويخفف آلام جراحنا التي نعانيها من هذا الحدث الذي نعيش فيه في مرارةٍ وألمٍ وقلقٍ... وإننا مطمئنون إلى فهمنا للآية الكريمة، واثقون من معطياتها التي لا تتخلف أبدا» نفس المرجع ١/ ٥٥٩.

(٣) حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للشيخ محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمِي العلوي الهرري الشافعي ٥/ ٦٥.

مثال آخر: التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣]. أي فرضًا محدَّدَ الأوقات، لا يجوزُ إِخْرَاجُها عن أوقَاتِهَا في شيء من الأحوالِ، بل لا بد من أدائِهَا في أوقاتِها سَفَرًا وحَضَرًا، وأَمْنًا وخَوْفًا.

فقد جاءت جملةُ التذييل مؤكدةً ومقررةً لما قبلها، ومبينةً الحكمة في هذه الرخصة، وهي التمكنُ من إقامة الصلاة التي لها أوقاتُها المعلومةُ، قال ابن عاشور: «والجملةُ مسوقةٌ مساقَ التعليل للحرصِ على أدائها في أوقاتها»[١].

سادسًا: حُسْنُ الخِتامِ:

كما يأتي التذييل إيذانًا بتمام الكلام، فيتضَوَّعُ منه مسكُ الختام، ويفوحُ عبقُهُ، فإنه آخرُ ما يبقى في الأذهانِ، ولَذا تفنن فيه الأدباء وبرعوا فيه «لأنه ربما حفظ من دون سائر الكلام، فيتعين أن يجتهد في رشاقته وحلاوته وجزالته»[٢]. فكما أن لحُسن المطلع روعتَه ووقعَه، كذلك للخاتمةِ وقعُها في النفوسِ، وروعتُها في القلوبِ، وأثرُها الذي يبقَى في الأذهانِ؛ فهي آخرُ عهدِ المستمِع بالمتكلِّمِ.

وحين نقرأ كلامَ الباري نلمسُ ذلك الإحكامَ، ونستشعرُ تلك الروعةَ، ونتذوقُ هذه العذوبةَ والحلاوةَ في كل ما ورد ختامًا لقصة أو مقطع أو سورة، حيث يأتي السياق معقِّبا أحسن تعقيب، فيأتي بتمام الموضع واكتماله، ويسوق نتائجه ويبرزُ أبعاده، كما يُجَلِّي عِبَرَهُ وعظاتِهِ، وفوائدَهُ وثمراتِهِ.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ٥/ ١٨٩.

(٢) الفوائد المشوق لابن القيم ص ١٣٨.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرُۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠].

قال ابن عاشور: «تذييلٌ مؤذنٌ بانتهاء الكلام، لأنّ هذه الجملة جمعت عبودية كلِّ الموجودات لله تعالى، فناسبت ما تقدَّمَ من الردِّ على النصارى، وبيَّنت أنَّ جميعها في تصرّفه تعالى، فناسبت ما تقدّم من جزاء الصادقين...»(١).

ومن الأمثلة على ذلك: المناسبة بين ختام سورة الأنعام وما حوته، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ **[الأنعام: ١٦٥]**.

قال ابن عاشور: وجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ تذييل للكلام وإيذان بأنّ المقصود منه العمل والامتثال؛ فلذلك جمع هنا بين صفة ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ ووصف ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ ليناسب جميع ما حوته هذه السّورة. وبهذا ينتظم تذييل السورة بمضمونها؛ حيث تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها في القلوب.

سابعا: الاحتراس:

وهو أن يكون الكلام محتملًا لشيء بعيد، فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال(٢)،

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٤/ ٣٥٣. باختصار. ويراجع التحرير والتنوير لابن عاشور ٥/ ٢١٩، و١٠/ ٤١. ويراجع: التفسير الموضوعي لسورة الأنعام، للمؤلف، ولقد عُنِيَ العلماءُ بإبراز الصلة بين نهاية السورة ومضمونها كما فعل البقاعي وأبو السعود وسيد قطب وسعيد حوَّى وغيرُهم وللإمام السيوطي رسالةٌ وجيزةٌ بعنوان «مراصد المطالع في تناسب المطالع والمقاطع» وهي مطبوعةٌ.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٦٤ - القسم الثاني والعشرون الاحتراس، ويراجع: الإتقان ٢/ ١٩٩، والإيضاح في علوم البلاغة ص١٩٢ النوع السابع عشر التكميل ويراجع: إعجاز القرآن للباقلاني ١/ ٩٥.

وقيل: «توق عن إيهام خلاف المقصود»(١).

ومثال ذلك الاحتراس في قولِهِ تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران: ١١٠]، حيث جملةُ التذييل: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ وفيها احتراسٌ لدفعِ ما قد يُتوهَّمُ من انتفاء الإيمان عن سائر أهل الكتاب، فإن منهم من آمن، وإنما يسري النفيُ على أكثرهم الذين آثروا الكفر، وثبتوا عليه وهذا من دقَّةِ تعبير القرآن، وإنصافه في الحكم على الآخرين، حيث بيَّن أن من أهل الكتاب من اختار طريق الإيمان، وفي هذا درسٌ للدعاةِ والمصلحين أن يتحرَّوا الدقةَ في الحكم، ويتجنبوا التعميم في الأحكام، بِلا دليلٍ.

مثال آخر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢﴾ [النساء: ١٠٢].

جاءت جملة التذييل احتراسًا ودفعًا لما قد يتوهم. قال أبو السعود فقال: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾: تعليلٌ للأمر بأخذ الحذر، ﴿أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ بأن يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا بأموركم، ولا تهملوا في مباشرة الأسباب كي يحل بهم عذابُهُ بأيديكم، وقيل: لما كان الأمرُ بالحَذَرِ من

(١) فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني ص ٤٠٤.

العدو مُوهِمًا لتوقع غَلَبَتِهِ واعتزازِه، نَفَى ذلك الإيهامَ بأن الله تعالى ينصرُهُم ويُهينُ عدُوَّهُم لتقوَى قلوبُهم»(١).

ومن أمثلة الاحتراس في تذييل الآيات قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: ٤٤]. إذ الدعاء عليهم مشعِرٌ بأنهم مستحقون الهلاك احتراسًا إذ قد يُتَوَهَّمُ أن الهلاك «يشمل من يستحق ومن لا يستحق، فأكَّد بالدعاء على المستحقين»(٢).

ثامنا: التنوعُ والتفننُ:

كذا من فوائد التذييل التنوعُ في الأساليب والتفننُ في الكلام، وذلك: بإبراز المعنى الواحد في قوالبَ متعددةٍ وصياغاتٍ متنوعةٍ وفي سياقاتٍ مختلفةٍ؛ لتقريرِ هذهِ المعاني وترسيخِها، مع مراعاةِ السياقِ الذي به تنتظِمُ المعانِي، ونجد في تذييلات الآيات ذلك فتارة يقدم صفة وتارة يؤخرها على ما اقترنت به، وتارة يختم الآية بتعليل أو رجاء، ثم يختم ما يليها بتعليل آخر أو رجاء، وتارة يختم بوصف ثم يعقبه بوصف آخر، حتى اشتملت التذييلات على معظم أسماء الله الحسنى، وختمت ببيان جميع مقاصد القرآن، وغير ذلك من وجوهٍ ومعانٍ، وهذا من خصائص الأسلوب القرآني، كما قال ربنا ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ [الإسراء: ٨٩].

فتصريف الآيات مجيء المعاني في صور متعددة، وسياقات متنوعة تقريرًا لها

---

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٢/ ٢٢٨. وحاشية القونوي على تفسير البيضاوي لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي القونوي ٧/ ٢٨٦.

(٢) روح المعاني للألوسي ٢٠/ ٣٠٢.

وإثراء وبيانًا فوق بيان، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

تاسعا: إخراج الكلام مخرج المثل:

فالملاحظ أن جملة التذييل مع ارتباطها الوثيق بما قبلها، إلا أنها مستقلة بمعناها وتركيبها ودلالتها، بحيث يمكن اقتباسها بل يحسن ويجملُ ذلك، كما هي عادة الخطباء والأدباء، وقد سبق تقسيم ابن أبي الأصبع التذييل لقسمين: «قسمٌ لا يَزِيدُ على المعنى الأول، وإنما يؤتَى به للتوكيدِ والتحقيقِ، وقسمٌ يُخْرِجُهُ المتكلمُ مخرجَ المثلِ السائرِ ليحققَ به ما قبله»(١).

ومن ذلك التَّذْييلُ في قولِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠٨]. وأغلب تذييلات القرآن خرجت مخرج المثل، فتصلح لاقتباسها في المواعظ والحوارات والخطب.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الأصبع باب التذييل ص ٣٨٧، ويراجع في ذلك: خزانة الأدب وغاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي ١/ ٢٤٢، ومعجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة ص ٢٣٤، والمعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني د. إنعام نوال عكاوي ص٣٠٠، وجاء في التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: «التذييلُ: تعقيبُ جملةٍ بجملةٍ مشتملةٍ على معناها للتأكيد» التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبد الرؤوف المناوي ١/ ١٦٨. ويراجع فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني من شيوخ الأزهر، ص ٤٠٣.

كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]. جاء في ختام عهد أبي بكر لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا بالخلافة اقتباسه[1] لقوله تعالى ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾[2]. وكان ختام كثير من الخطب: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨][3].

* * *

(١) الاقتباس: تضمين الكلام نثرًا أو نظمًا شيئًا من قرآن أو حديث»، التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي(١٠٣١هـ)، ص٨١.

(٢) الكامل في اللغة والأدب للمبرد (١/ ١٤).

(٣) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، (٢/ ٤٥١).

المبحث الثاني

أصولُ الوقوفِ على لطائفه

تحدثت في المبحث السابق عن فوائد التذييل، وفي هذا المبحث أبيِّن أصول الوقوف على لطائف التذييل، فأقول والله المستعان: للوقوفِ على بلاغةِ التذييل ومعرفةِ حِكَمِهِ وأسرارِهِ أصولٌ مهمّةٌ، لا بدَّ من مراعاتِها، ومصاحبتِها حينَ نجولُ في رياضِ القرآن، ونُجيلُ النَّظَرَ في تذييلاتِهِ، وهنا نشيرُ إلى أهمِّ هذه الأصولِ، فنقولُ - ومِنَ اللهِ القَبُولُ -:

أولًا: مراعاةُ مقاصد القرآن الكريم:

دراسةُ مقاصدِ القرآنِ مما يُعِينُ على تنسُّمِ عِطرِه وشذاه، وتذوُّقِ لطائِفِهِ وقطوفِهِ، والتحقُّقِ من دلالاتِهِ والتعمُّقِ في هداياتِهِ، والتبحُّرِ في دقائقِ معانِيهِ.

بل إن كثيرًا من التذييلات يكشف لنا عن مقاصد القرآن عمومًا ومقاصد مواضيعه (أحكامه، وقصصه، وأمثاله، ومواعظه، ووصاياه).

لعلكم تعقلون (سبعة مواضع)، لعلكم تتقون (ستة مواضع)، لعلكم تشكرون (في ثمانية مواضع)، لعلكم تفلحون (أحد عشر موضعًا)... وهكذا.

بل يلاحظ التناسب بين هذه المقاصد، ففي سورة الأنعام آيات الوصايا العشر قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، فالتعقل طريق التذكر والتذكر طريق التقوى. فثمرة التعقل والتذكر تقوى الله تعالى. ونظيره ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

ثانيًا: الدرايةُ باللغةِ العربيةِ وأساليبِها وفنونِها:

فمن المؤهّلاتِ الأساسيةِ لمن يدرسُ التذييلَ وغيرَهُ من عُلُوم البلاغَةِ، أن يكون على درايةٍ بلغةِ العربِ وأساليبِهم وفنونِهم في الكلام.

قال مجاهدٌ: «لا يحلُّ لأحدٍ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ أن يتكلمَ في كتابِ اللهِ إذَا لم يكُنْ عالمًا بلغاتِ العربِ»[(١)].

فجملة التذييل لا بد أن تكون مستقلة عما قبلها لفظًا ومعنى، وهذا أمرٌ يحتاج من الباحث لدراية بقواعد اللغة، فليس كل نهاية آية تذييلًا، إذ قد يكون خبرًا لمبتدأ، أو جوابًا لشرط سابق، أو حالًا مما قبله.

والنظر في هذا يمكّن الباحث من معرفة التذييل من غيره، فلا يمر بآية ويغفل عن ختامها بتذييل، أو يقول: إنها ختمت بتذييل وما هو بتذييل، كذلك إبراز جماليات التذييل يحتاج لاطلاع على فنون البلاغة؛ إذ التذييل لون من ألوان البديع، وبعضهم يذكره في أغراض الإطناب وفنونه.

ثالثًا: مراعاةُ قواعدِ التفسيرِ وأصوله:

قواعدُ التفسيرِ هِيَ: أحكامٌ كليةٌ تُعِينُ على فهمِ القرآنِ واستنباطِ أحكامِهِ،

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ١/ ٢٩٢، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٤٤٣.

ولا بد لمن طَرَقَ بَابَ التفسيرِ أن يكون على درايةٍ بقواعِدِهِ التي يُسْتَضَاءُ بها في هذا الطريق؛ فمن خلالها يسيرُ المفسِّر على بيِّنةٍ من أمرِه، ويستعينُ بمعرفتِهَا على فهمِ كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واستخلاصِ المعاني، واستنباطِ الأحكامِ، والوقوفِ على العِبَرِ والفوائِدِ، فينبغي مراعاة قواعد التفسير عامة، فضلًا عن مراعاة القواعد المتعلقة بالتذييل خاصةً.

ومنها على سبيل المثال: مراعاةُ السياقِ القريبِ والبعيدِ، أعنِي السياقَ العامَّ للسورةِ، والسياقَ القريبَ للآيةِ موضع البحث، فالتذييلُ جزءٌ من الآيةِ؛ لذا ينبغي تدبُّرُها في سياقِها. الأصلُ هو القولُ بمقتضَى الظاهرِ، فلا نقولُ بالعدولِ إلا بقرينة، في العدولِ عن مقتضى ظاهِرِ الكلامِ ما يَنُمُّ عن دقائقَ عجيبةٍ ولطائفَ بليغةٍ.

رابعًا: النظرة الكلية للسورة:

كما ينبغي استحضارُ مقاصد القرآن بوجه عامٍّ؛ كذلك على المفسر أن يقف أمام مقاصد السورةِ ومعالمها؛ فإنَّ هذا مما يفتحُ له آفاقا رحيبةً في فهم لطائفِ التذييلِ، وهذا يتمُّ من خلال تلاوةِ السورةِ وتدبُّرها ومدارستها، مع مراعاة النظرة الكلية الشاملة التي تعين على فهم مقاصدها والوقوف على محورها العام الذي تنتظمُ في سلكِه آياتُها وتدُورُ في فُلْكِهِ موضوعاتُها، مما يساعدُ في جني لطائفِ التذييلِ، والأمرُ يتطلبُ القراءةَ المتأنيةَ للسورةِ، مع تكرارِ القراءةِ بتدبُّرٍ وإمعانٍ.(١)

وقد قرر ذلك المبحث الإمامُ الشاطبيُّ فقال: «اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالاقتصار على بعضِها غير مفيد

---

(١) يراجع في هذا الموضوع: مبادئ أساسية في فهم القرآن، لأبي الأعلى المودودي ص ٤٩: ٥١، ويراجع ما ذكره السيوطي حول هذا المعنى في الإتقان ٢/ ١٢٨ وما ذكره الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم للأستاذ ص ١٥٣، ١٥٤.

للمقصود منها، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها»[1].

تأمل في سورة الأنبياء: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨١، ٨٢]: تلحظ عناية الله تعالى ورعايته ولطفه وإحاطة علمه وحفظه لأنبيائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولم تتكرر هذه الصيغ وتجتمع في سورة أخرى، وفي هذا مناسبة لعنوان السورة (الأنبياء) ومقصودها، بيان إكرام الله ولطفه بهم.

خامسًا: النظر في السياق:

فمن الأمور الأساسية للناظر في تذييل الآيات أن يُنْعِمَ النظرَ في السياق السابق واللاحق، حتى يقف على لطائف التذييل وفوائده: عن مسلم بن يسار قال: إذا حدثتَ عن اللهِ حديثًا فقفْ حتى تنظُرَ ما قبلَهُ وما بعدَهُ[2].

وقال الزركشيُّ في البحر المحيط: «... والسياقُ يرشِدُ إلى تبيين المجملات

(١) الموافقات، للشاطبي ٣/ ٤١٥. ويراجع: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للبقاعي ص١٥٥، ويُراجعُ ما ذكره السيوطيُّ في الإتقان حول هذا المعنى: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢/ ١٢٨.

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام (٢/ ٢٦١ حديث ٦٩٥).

وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات، وكلُّ ذلك يُعْرَفُ بالاستعمال».

وقال في البرهان: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علمٌ جمٌّ، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[١].

تأمل التذييل في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨﴾ [آل عمران: ٩٨].

لما ختم الآية السابقة بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ناسب أنْ يُنكِرَ على كفارِ أهل الكتابِ كفرَهم بآيات الله مع قيامِ الحُجَّةِ عليهم، فكفرهم أشنعُ وأقبحُ من كفر غيرهم لأنهم أوتوا الكتاب فكفروا جحودًا وعنادًا، وبغيا وحسدًا، «فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم متعمِّدون الكفر بالله وبرسوله على علم منهم، ومعرفةٍ من كفرهم»[٢].

وتأمَّل التذييل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، كيف جاء بعده الأمر بالاعتصام ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وتأمَّلْ حسن وروعة الترتيب بين التذييلات: التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النساء: ١١٦].

التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٣٨) ويراجع البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي (٦/ ٥٢).
(٢) جامع البيان للطبري ٦/ ٥٢.

﴿خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]. لما بيّن الوصف والحال بيّن العاقبة والمآل، فهذا الضال عاقبته الخسران.

سادسًا: التذوّق وصفاءُ الذهنِ ومعايشةُ القُرْآنِ مع الاستعانة بالله:

الوقوفُ على لطائف التذييل، وإدراكُ معانيه ومراميه، يحتاجُ إلى تذوُّقٍ سليمٍ، وسجيَّةٍ نقيَّةٍ.

قال السَّكَّاكيُّ: «اعلم أن شَأْنَ الإعجازِ عجيبٌ، يدركُ ولا يمكنُ وصفُه، كاستقامةِ الوزنِ تدركُ ولا يمكنُ وصفُها، وكالمَلاحة، ومُدْرِكُ الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا...»(١).

ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]، حيث وقع التذييلُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قيل: عزيزٌ في حكمه فهو الغالب القاهر، وفي شرعه الحكيمِ العزةُ والكرامة والأمنُ والاستقامةُ، فهو عزيزٌ في شرع الرّدع، حكيم في إيجاب القطع.

وقيل: عزيزٌ في انتقامِهِ من السارقِ وغيرِهِ من أهلِ المعصيةِ، حكيمٌ في فرائضِهِ وحدودِهِ، روي أنَّ أعرابيًّا سَمِعَ قارئًا يقرأ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ إلى آخرها، وَخَتَمَهَا بقوله: والله غفور رحيم، فقال: ما هذا كلامُ فصيحٍ، فقيل له: ليس التلاوةُ كذلك، وإنما هي ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: بخٍ بخٍ: عزَّ، فَحَكَمَ، فقَطَعَ(٢).

وقال ابن الجوزي في مقدمة تفسيره لسورة التوبة – براءة -: «وقد نُقل عن

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ١/ ١٨١، ويراجع الإتقان في علوم القرآن، للإمام السيوطي ١/ ٤٤٤.
(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٢٠٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٤٢٥.

بعض العرب أنه سمع قارئًا يقرأ هذه السورة، فقال الأعرابي: إني لأحسب هذه من آخر ما نزل من القرآن، قيل له: ومن أين علمت؟ فقال: إني لأسمع عهودًا تُنْبَذُ ووصايا تُنَفَّذ»[1]. وهكذا أدرك الأعرابي أن السورة من أواخر ما نزل، وذلك بسليقته الحاضرة وذوقه الصافي.

كذلك ذكر بعض المفسرين قصةً أخرى لأعرابي تلي على مسامعه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩]، فختمها القارئ خطأ «فاعلموا أن الله غفور حكيم»، فأنكر الأعرابي ذلك وقال بفطرته النقية وقريحته الصافية: ما هكذا نزلت! «إن كان هذا كلام الله فلا يقول: كذا، فالحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل!»[2].

من هنا ندرك أثر صَفَاءِ الذِّهن في تذوق كلامِ الله، وتنسُّم عَبَقِه وَشَذَاهُ، فهذا أعرابي عاش حياةً فطريةً في البادية جعلت منه صاحب ذهنٍ وقّاد، وسمع مرهف، وتدبُّرٍ واعٍ لكلام الله تعالى، فتدبر القرآن لا يتمُّ إلا بصفاءِ ذهنٍ وحضورِ قلبٍ وإلقاءِ سمعٍ، والتذييلُ من دقائقِ المعاني ولطائفِ الأساليبِ التي تحتاجُ في استجلائِها إلى تجريدِ الفكرِ واستجماع القلبِ، فلا بدَّ من حضورِ القلبِ وصفائِهِ حتى يرى تلك المعاني بوضوحٍ وجلاءٍ، ويحيا بها عملا وسلوكا، فكلما تفرَّغَ القلبُ من همومِ الدنيا ومشاغِلِهَا، وطَهُر من التعلُّقِ بها وجعل الآخرةَ همَّه وشُغلَه، تَجَلَّتْ له المعاني وأقبلتْ عليه اللطائفُ وَحَضَرَتْهُ الفوائدُ.

---

(١) نفس المرجع ٣/ ١٤٤.

(٢) الكشاف، للزمخشري، (١/ ٢٨٠)، والتفسير الكبير، الرازي (٥/ ٣٥٤)

قال الزَّرْكَشِيُّ في البرهان: «اعلم أنه لا يحصُلُ للناظرِ فهمُ معاني الوحي، ولا يظهرُ له أسرارُهُ وفي قلبه بدعةٌ، أو كِبرٌ، أو هوى، أو حبُّ الدنيا، أو وهو مُصِرٌّ على ذنبٍ أو غيرُ متحققٍ بالإيمانِ أو ضعيفُ التحقيقِ أو يعتمدُ على قولِ مُفَسِّرٍ ليس عنده علمٌ أو راجعٌ إلى معقولِهِ، وهذه كلُّهَا حُجُبٌ وموانعُ بعضُها آكَدُ من بعض»[(١)].

كذلك: واجبُ من ينهضُ لهذه المهمةِ الجليلةِ الشأنِ مهمةِ الوقوف على تذييلات القرآن: أن يتعايش مع القرآن بقلبه ووجدانه وروحه وعاطفته، وَيَتَمَثَّلَ القرآنَ الكريمَ في جميع شؤونه وسائر أحواله، [(٢)]، فمعايشةُ القرآنِ الكريم: مِنْ أعظمِ السُّبُلِ إلى فهمِ أحكامِهِ والوقوفِ على معانيه وإدراك حِكَمِهِ ومراميه، ومن تأمَّل على سبيل المثالِ في العواملِ التي أعانت الصحابة على التعمُّق في فهمِ كلامِ الله؛ لوجد من أهمِّها معايشتُهُمْ للقرآن، وحياتُهُم في ظلاله يتنسَّمُون عبيره وشذاه، ويترسَّمون سبيلَهُ وهُداه، ويقتبسون من أنواره، ويقتطفون من أزهاره، ويجتنونَ من ثماره، ولن تتفتح لنا أكمامُ التذييلاتِ، ولن تتفتَّق لنا الثمراتُ إلا حين نتعايش مع كتاب الله تعالى تلاوةً وتدبُّرا، وعلمًا وعملًا، ودعوةً وتربيةً، ولا بد مع ذلك

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي ٢/ ١٨٠، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٢/ ٤٧٩. ويراجع: أخلاق حملة القرآن، للآجُرّي ٤٠ (بتصرف).

(٢) كما كان نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعيشُ بالقرآنِ ويحيا بالقرآنِ ويتنفَّسُ بالقرآن، فكان القرآنُ له زادا، وسراجا، وروحا، ومنهاجا، فالقرآنُ حياةُ القلوبِ، ونورُ الدروبِ، ومِنْهَاجُ الحياةِ، روى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ ابْنِ عَامِرٍ: أنه سأل أمَّ المؤمنين عائشة: قال لها يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: (أَلَيْسَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟) قَالَ: قُلْتُ بَلَى، قَالَتْ (فَإِنّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة اللّيل، ومن نام عنها أو مرض – ١/ ٥١٢ حديث ١٣٤١.

كله من الاستعانة باللهِ تعالى الذي أَمَرَنَا اللهُ بتدَبُّرِ كتابِهِ، وإمعانِ النظرِ في مبانِيهِ ومعايشةِ معانِيه وتذوُّقِ أساليبِهِ وتتبُّعِ تراكيبِهِ؛ لاستنباطِ الأحكامِ، واستجلاءِ المعاني.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

فنون التذييل وسماته

المبحث الأول

من فنون التذييل في القرآن

بيَّنا فيما سبق، فوائد التذييل، وأصول الوقوف على لطائفه، وهنا نبين فنونَه، وسماته، والمقصود بفنونه: أنواعه، والسمات هي خصائصه، والغرض من هذا المبحث، زيادة توضيح معنى التذييل، وإبراز لطائفه وجمالياته.

للتذييل في القرآنِ: أنواعٌ كثيرةٌ متنوعةٌ، وألوانٌ رائعةٌ ماتِعةٌ، تنمُّ عن حُسنٍ وجمالٍ، وبهاءٍ وجلالٍ، وفصاحةٍ وبيانٍ، منها:

أولًا: التتميم:

«وهو أنْ يؤْتَى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرُ المرادِ بفَضْلَةٍ تُفِيدُ نُكْتَةً»[(١)]. ومثاله قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: ١٦]، «قيل: لما لم يكن قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ مفيدًا لذهاب رؤوس أموالهم، أتبعه بقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، فكمُلَ المعنى بذلك، وتمَّ به المقصودُ»[(٢)]، وإن صح المعنى بدونه، ولكن أفاد معنى متممًا.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، النوع الثامن عشر ٢/ ٧٥. ويراجع الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (٣/ ٢١٣)، والفضلة كالحال والمفعول ونحوه. وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لتقي الدين السبكي (٧٧٣)، (١/ ٤١٦). فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، لعبد الرحمن الشربيني ص ٤٠٥

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ١/ ٨٠.

وجاء في الطراز: «التتميم: الإتيان بجملة عقيب كلام متقدم، لإفادة التوكيد له والتقرير لمعناه، ومثاله قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧] فقوله: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ إنما ورد على جهة التوكيد، لما مضى من الكلام الأول، ومثاله: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ثم قال: ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾»(١).

ثانيًا: التصدير:

وهو التناسب اللفظي والمعنوي بين صدر الآية وعجزها، وهو من رد العجز على الصدر، ومثاله قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٦]. فجاء ختام الآية مناسبا لأولها.

قال الشيخ أبو زهرة: «ذيَّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآية بهذا النص الحكيم للإشارة إلى أنهم ظالمون، فهم ظلموا أنفسهم، وظلموا الرسول، وظلموا الحقائق وطمسوا على بصائرهم، فلا يمكن أن تدخل الهداية إلى قلوبهم»(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. وهذا من أدب الدعاء، ومن باب التوسل لله بأسمائه، وقد بدأت الآية بالطلب (وهب) وختمت باسم الله الوهاب، بما يزيد العبد رجاء لربه، فضلًا عن التوسل بأسماء الله تعالى. وقد لاحظت في القرآن الكريم ختام الأدعية بأسماء الله الحسنى، سواء في أدعية الأنبياء أو الصالحين أو الأدعية التي ذكرها القرآن بإطلاق، وهذا يدل على وحدة المنهج، تأمل على سبيل المثال دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة المؤيد بالله ٧٤٥هـ (٣/ ٢٠١).
(٢) زهرة التفاسير، الشيخ محمد أبو زهرة ٣/ ١٣٠٦.

إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩]، ودعاء امرأة عمران ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

ودعاء موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف: ١٥١]، ودعاء زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩]. وهكذا نلمس من خلال التذييل وحدة منهج الأنبياء والصالحين في الدعاء.

ومثاله أيضًا **التَّذْييلُ** في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]. فبدأت ببيان وجوهٍ لفضل الله على نبيه، وختمت ببيان عموم فضله تعالى على نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وهذا من رد الصدر على العجز، تقريرًا للمعنى وإثراء له، فضلًا عن جمال النظم.

قال الرازي: «وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب»(١).

ثالثًا: التوشيح:

أن يكون معنى الآية مشيرًا إلى تذييلها، ومثَّلوا له بقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ

(١) التفسير الكبير، الرازي (١١/ ٢١٦)، ورد الصدر على العجز: أن يجعل أحد اللفظين المكرّرين، أو المتجانسين، أو الملحقين بهما في أوّل الفقرة، والآخر في آخرها. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لتقي الدين السبكي (٧٧٣)، (٢/ ٢٩٣).

ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ [يس: ٣٧].

قال ابن أبي الأصبع: «فإن من كان حافظًا لهذه السورة متفطنًا إلى أن مقاطع آيِهَا النونُ المرادفةُ، وسمع في صدر الآية انسلاخ النهار من الليل، علم أن الفاصلة مظلمون؛ لأن من أسلخ النهار عن ليله أظلم: أي دخل في الظلمة، ولذلك سمي توشيحًا، لأن الكلام لمَّا دل أولُهُ على آخِرِهِ نَزَّلَ المعنى منزلةَ الوشاح، ونزل أولُ الكلامِ وآخرُهُ منزلةَ العاتِقِ والكشحِ، اللذين تحوط عليهما الوشاح»[(١)].

ومثاله قوله تعالى فتبارك الله ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤].

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا أنَّه قال: لمَّا نزلتْ هذهِ الآيةُ قال عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هكذا نزلَ يا عمرُ[(٢)].

وقال مقاتل والزجاج: كان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، إذْ أُنْزِلَتْ عليه هذه الآية: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ فقال عمر: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾، فقال النبي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: «**هكذا أُنزِلَتْ عَلَيَّ**»[(٣)] وروي مثل ذلك عن عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ بِالْإِسْلَامِ، فَدَعَاهُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ يَكْتُبُ لَهُ شَيْئًا، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ التي في المؤمنين

(١) تحرير التحبير، لابن أبي الأصبع ص ٣٥٨.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٥٣)..

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ١٥٣)، وبحر العلوم، السمرقندي (٢/ ٤٧٦)، وعزاه السيوطي: ٦/ ٩٤ إلى الطبراني وابن مردويه.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] أَمْلَاهَا عَلَيْهِ فَلَمَّا انْتَهَى إلى قَوْلِهِ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] عَجِبَ عبدُ الله من تَفْصِيلِ خَلْقِ الإنسان فقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَكَذَا أُنْزِلَتْ عَلَيَّ...**»[١].

رابعًا: التمكين:

وهو أن تمهد قبلها تمهيدا تأتى به الفاصلة ممكَّنة في مكانها مستقرة في قرارها مطمئنة في موضعها، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقًا تامًّا، بحيث لو طُرِحَت اختلَّ المعنى واضطرب الفهم[٢].

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فلقد مهَّد لهذا التذييل بما يدلُّ عليه أبلغ دلالة، فلقد رد الله الأحزاب ففرَّق جمعَهم وشتت شملَهم، ولم يتحققْ لهم ما رَمَوا إليه من هذا الغزو، وكفى الله المؤمنين القتال.

قال البقاعي: «ولما كان هذا أمرًا باهرًا، أتبعه ما يدل على أنه عنده يسير فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ أي الذي له كل صفة كمال دائمًا أزلًا وأبدًا ﴿قَوِيًّا﴾ لا يعجزه شيء ﴿عَزِيزًا﴾ يغلب كل شيء»[٣].

ولزيادة التمكين يعود الاسم الظاهر، فترى العدول عن المضمر إلى الظاهر: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

---

(١) أسباب النزول للواحدي (ص: ٢٢٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٧٨، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٣٥١.

(٣) نظم الدرر، للبقاعي، (٦/ ٩٥).

قال ابن عاشور: «تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة، فيتخلى عن المعاصي والخبائث، ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه»(١).

خامسًا: الإيغال:

وهو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحًا وشرحًا وتوكيدًا وحُسنًا، وأصل الكلمة من قولهم: أوغَلَ في الأمرِ، إذا أبْعَدَ الذهابَ فيهِ، فتسميته بالإيغال؛ لأن المتكلم قد تجاوز المعنى الذي هو آخذٌ فيه، وبلغ إلى زيادةٍ على الحدِّ(٢). ومنه: «ختم الكلام بما يفيد نكتة يتمُّ المعنى بدونها»(٣).

وزعم بعضهم أنه خاصٌّ بالشعر، وُردَّ بأنه وقع في القرآن، من ذلك: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ [يس: ٢٠ - ٢١]، فقوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ إيغال؛ لأنه يتم المعنى بدونه، إذ الرسول مهتد لا محالة، لكن فيه زيادة مبالغة في الحثِّ على اتباع الرسل والترغيب فيه.

قال الزركشي: «فَإِنَّ الْمَعْنَى تَمَّ بِقَوْلِهِ: ﴿أَجۡرٗا﴾، ثُمَّ زَادَ الْفَاصِلَةَ لِمُنَاسَبَةِ رُءُوسِ الآي، فأوغل بها كما ترى، حتى أتى بها تفيد معنى زائدا عَلَى مَعْنَى الْكَلَامِ»(٤).

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (١/ ٦٣٦).

(٢) استفدت هذا المعنى من بعض كتب البلاغة، يراجع البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ (ت ٥٤٤)، ص١٠٠، والصناعتين، لأبي هلال العسكري: حسن بن عبد الله ٣٧٢، ٢٩٦ والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، (٢/ ٣٣٣)

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ص ١٩٩.

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٩٧).

وقال ابن أبي الأصبع: «ومن إيغال الكتاب العزيز أيضًا قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾، فإن المعنى تمَّ بقوله سبحانه: ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾، ثم أراد الفاصلة لمناسبة رؤوس الآي، فأوغل بها كما ترى، حيث أتى بها تفيد معنى زائدًا على معنى الكلام، وجاء في الكلام إيغال حسن بعد تتميم»[1].

قال ابن عاشور: «أي وهم متصفون بالاهتداء إلى ما يأتي بالسعادة الأبدية، وهم إنما يدعونكم إلى أن تسيروا سيرتهم، فإذا كانوا هم مهتدين فإن ما يدعونكم إليه من الاقتداء بهم دعوة إلى الهدى، فتضمّنت هذه الجملة بموقعها بعد التي قبلها ثناء على المرسلين وعلى ما يدعون إليه، وترغيبًا في متابعتهم.

واعلم أن هذه الآية قد مثَّل بها القزويني في «الإيضاح» و«التلخيص» للإطناب المسمى بالإيغال، وهو أن يؤتى بعد تمام المعنى المقصود بكلام آخر يتم المعنى بدونه لنكتة، وقد تُبيِّن لك مما فسَّرنا به أن قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ لم يكن مجرد زيادة، بل كان لتوقف الموعظة عليها، وكان قوله: ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ كالتوطئة له. ونعتذر لصاحب «التلخيص» بأن المثال يكفي فيه الفرض والتقدير»[2].

❋ ❋ ❋

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ابن أبي الأصبع (ص: ٢٣٦)

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٢/ ٢١٤)

المبحث الثاني

سمات التذييل

للتذييل في محكم التنزيلِ سماتٌ فريدةٌ، لا يُمكنُ الإحاطةُ بها، ومن بينِ هذه السمات:

أولًا: مراعاة الفاصلة:

وهذه سمةٌ بارزةٌ في تذييلاتِ الآيات، ذلك أن للقرآن أسلوبًا فريدًا ومسلكًا عجيبًا لا يشبه كلام البشر؛ فهو ليس بشعر ولا سجع ولا يشبه الكلام المرسل؛ ذلك؛ لأنه كلام من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثانيًا: التناسب:

«ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر، والقرآن العظيم كله متناسب، لا تنافر فيه ولا تباين»[(١)]. **وللتناسب صورٌ عديدةٌ منها:**

تناسب الأطراف:

ويسمى «تعانق الأطراف»، وذلك في تشابه الألفاظ فضلًا عن تناسب المعاني، ومثال ذلك ختام يونس: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩]، مع مطلع سورة هود ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٣ – ٥٤].

---

(١) الفوائد المشوقة لابن القيم ٨٧، ٨٨.

فالمجرمون لا يجدون مصرفًا لِما هم فيه، وكيف وقد ذهبت الدنيا دارُ العمل، وصاروا في دار الجزاء، وقد نكبوا عن طريق النجاة وأعرضوا عنه في الدنيا، وهو كتاب الله تعالى الذي صرَّف الله تعالى فيه من الآيات والعبر ووجوه الوعيد وأساليبه المتنوعة ؛ ليذَّكروا ويعتبروا فما زادهم إلا نفورًا وإعراضًا.

■ **تناسب أول تذييل في مطلع السورة مع تذييل ختامها :**

كما في سورة الحشر، قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ [الحشر: ١]، مع قوله تعالى في ختامها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر: ٢٤].

■ **تناسب تذييل ختام السورة بتذييل ختام السورة التي تليها :**

تأمل في ختام سورة الحجر وختام سورة النحل تجد توجيهات للنبي ﷺ تثبِّت قلبه وتشدُّ أزره ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، وفي ختام النحل ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨].

وتأمَّل ختام سورة المزمل بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [المزمل: ٢٠]، مع ختام سورة المدثر ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾ [المدثر: ٥٦].

■ **التناسب بين الألفاظ والمعاني، ويسمى بائتلاف اللفظ مع المعنى :**

وهو عند أهل البلاغة أن تكون الألفاظ مناسبة للمعنى المقصود موائمة له،

«فإذا كان المعنى فخمًا كان اللفظ الموضوع له جزلًا، وإذا كان المعنى رقيقًا كان اللفظ رشيقًا، وإذا كان المعنى غريبًا كان اللفظ كذلك، وهو وادٍ من أودية البلاغة، وكنز من كنوز البيان، وسيأتي مثالٌ له عند الحديث عن العمق والدقة.

ثالثًا: التعميم:

ومن السمات الغالبة على التذييل القرآني التعميم، حيث يغلب على التذييل أسلوب التعميم؛ مما يخرجه مخرج المثل السائر، والقاعدة الراسخة.

تأمل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٦] فقد ورد في سبب نزولها: عن ابن عباس رضي الله عنهما قالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، أَسْلَمَ ثُمّ ارْتَدّ وَلَحِقَ بِالشّرْكِ ثُمّ تَنَدّمَ فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ سَلُوا لِي رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا: إِنّ فُلاَنًا قَدْ نَدِمَ، وَإِنّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَتْ ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران: ٨٦]، إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عمران: ٨٩] فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قومُهُ فَأَسْلَمَ[(١)].

فقد أفاد التذييل التعميم؛ احتراسًا من قصر عدم الهداية على شخص بعينه، أو أهل طائفة بعينها، بل كل ظالم ليس جديرًا بهداية الله تعالى، إذ العبرةُ بعمومِ

(١) رواه النسائي في السنن عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ كتاب تحريم الدم. باب توبة المرتد. الحديث رقم: ٤٠٦٦ وأخرجه ابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن ص ٤٢٧ والحاكم في المستدرك ٢/ ١٤٢، ٤/ ٣٦٦ وقال في كلا الموضعين: صحيح الإسناد ولم يُخرِّجاهُ ووافقه الذهبي، كما رواه الطبريُّ في تفسيره بإسنادٍ صحيح: جامع البيان ٣/ ٣٢٨ والبيهقي في اسنن الكبرى ٨/ ١٩٥.

اللفظِ لا بخصوصِ السببِ، وسياقُ الآيات في كفارِ أهل الكتاب، وإن كانت تشملُ كلَّ من اختار طريق الكفر بعد جلاءِ البرهانِ، أو ارتدَّ عن الإسلامِ.

قال السعدي: «فهؤلاء ظلَموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتَّبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه، ظلمًا وبغيًا واتباعًا لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية؛ لأن الذي يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن يُيسِّر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية»[1].

رابعًا: الوضوح والبيان:

من سمات التذييل القرآني الوضوح والبيان، فلا غموض فيه ولا خفاء، وهذه سمة عامة من سمات القرآن، فهو كتاب بيِّنٌ واضح، فيأتي التذييل واضحًا بيِّنًا، وقد سبق الحديث عن التوضيح والتبيين في فوائد التذييل.

خامسًا: التكرار:

وهو مُسْتطابٌ في كلام الخالقِ جَلَّ وَعَلَا؛ له حلاوتُه وتأثيرُه، وله فوق ذلك مقاصدُه، وهو وسيلةٌ من وسائل البيان والتقرير والإقناع، ومنهجٌ تربوي أصيلٌ، وفيه موعظةٌ وتذكيرٌ، وزيادةُ تفصيلٍ وبيانٍ.

وإذا كان التكرار في كلام البشر كثيرًا ما يملُّ منه القارئ والسامع، فإن التكرار في القرآن سمةٌ من سماتِهِ الرائعة وأساليبه البديعة، ودليلُ على صدقه وبرهان على أنه من كلام الخالق جَلَّ وَعَلَا وقد قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ

(١) تفسير السعدي (١/ ١٣٧).

﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: ٢٣]، أي يشبهُ بعضه بعضًا في روعته ورفعته، وجماله وجلاله ومقاصده، وأحكامه وحكمه، وقصصه وأمثاله وحواراته[(١)].

سادسًا: العمق والدقة:

من سمات التذييل القرآني: العمق والدقة في المعاني والألفاظ؛ فالقرآن كتاب محكمٌ مفصَّلٌ نزل من لدن حكيم خبير.

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: ١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل: ٦].

قال ابن عطية في مقدمة التفسير: «إن كتاب الله لو نُزِعَت منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد، ونحن يتبيّن لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهه في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذٍ في سلامة الذوق، وجودة القريحة»[(٢)].

سابعًا: التنوع والتفنن:

ذكرتُ في فوائد التذييل كونه من ألوان التصريف في القول، ومن أساليب القرآن وفنونه، وهنا أذكر كون التنوع والتفنن سمةً من سمات التذييل بوجه خاص، فللتذييل صورٌ متنوعة وفنونٌ رائعةٌ تتناسب مع المضمون والسياق،

---

(١) ويراجع ما ذكره الزرقاني في مناهل العرفان ٢/ ٢٦٢.

(٢) مقدمة المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٩، وقد نبَّه الباقلاني كذلك على دقة القرآن الكريم في اختيار الألفاظ، وأن الكلمة في القرآن تنزل في مكانها المناسب لها، مستقرة غير نافرة، وضرب لهذا أمثلة كثيرةً إعجاز القرآن الباقلاني ١/ ١٨٤، ويراجع ما ذكره الخطَّابي حول هذا المعنى في كتابه: بيان إعجاز القرآن للخطابي: أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٩.

وتضفي على رياض القرآن وحدائقه المونقة بهجةً وضياءً وروعةً ورواء، وصدق من قال:

عباراتُنَا شتَّى وحسنُكَ واحِدٌ وَكُـلٌّ إلى ذاكَ الجمَالِ يُشِيرُ

■ **ومن التنوع في التذييل:**

اتفاق صدر الآية مع اختلاف فاصلتها، وله شواهدُ كثيرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [براهيم: ٣٤]، حيث سبق الحديث عن الكفر وعاقبته، ومن بدَّلوا نعمة الله كفرًا: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

فسياق السورة في الحديث عن نِعَم الله تعالى المبثوثة في هذه السورة الكريمة، ومنها مغفرتُه تعالى ورحمتُه لعباده.

وأشار الرازي إلى نكتة لطيفة، فقال عند تفسيره لموضع النحل: «البحث الثاني: أنه تعالى قال في هذا الموضع: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة، كأنه يقول: إذا حصلَت النعم الكثيرة فأنتَ الذي أخذتَها وأنا الذي أعطيتَها، فحصل لك عند أخذها وصفان: وهما كونك ظلومًا كفارًا، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفورًا رحيمًا، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلومًا فأنا

غفور، وإن كنت كفارًا فأنا رحيم، أعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير، ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء، ونسأل الله حُسن العاقبة والرحمة»[1].

■ **ومن التنوع والتفنن:**

التَّذْيِيلُ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [آل عمران: ٩٨].

التَّذْيِيلُ في الآية التي تليها: قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩].

فالآية الثانية أشد من الأولى في الوعيد؛ حيث جمعوا إلى جانب كفرهم صدهم عن سبيل الله، فكان التهديد الثاني أشد من الأول، لأنه أنكر عليهم في الآية السابقة مجاهرتهم بالكفر وإصرارهم عليه، ثم أنكر عليهم في هذه الآية سعيَهم واحتيالهم في الصدِّ عن سبيل الله من آمن، وحرصَهم الدائب على نشر الزيغ والانحراف والإضلال أشد من الضلال.

قال البيضاوي: «لما كان المنكَرُ في الآية الأولى كفرَهم وهم يجهرون به ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾، ولما كان في هذه الآية صدهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾»[2].

فالمتأمل في الجملتين يلحظ التدرج في مخاطبتهم وترهيبهم، وأضيف إلى ذلك أن التذييلات المتلاحقة يكمل بعضها بعضًا.

(١) التفسير الكبير الرازي (١٩/ ١٠٠)

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ٨٣.

ومن التنوع والتفنن أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء: ١١٦]. «خُتِمت الآيةُ المتقدمةُ بقوله: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ﴾ وهذه بقوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ﴾؛ لأن الأولى في شأن أهل الكتاب وهم عندهم علمٌ بصحة نبوته، وأن شريعتَهُ ناسخةٌ لجميعِ الشرائعِ، ومع ذلك فقد كابَروا في ذلك وافترَوا على اللهِ، وهذه في شأنِ قومٍ مشركينَ ليس لهم كتابٌ ولا عندهم علمٌ، فَنَاسَبَ وصفُهم بالضلالِ، وأيضًا قد تقدم هنا ذكرُ الهُدَى وهو ضدُّ الضَّلال»[1].

كذلك في هذا التنوع بيانٌ لكون المشرك بالله قد جمع بين هذين الإثمين بين افترائه على الله تعالى وبين ضلاله؛ فالشِّركُ افتراءٌ وإثمٌ عظيمٌ كما أنه أعظمُ أنواع الضلالة، وأبعدُها عن الصواب والاستقامة.

■ ومن التنوع في التذييل:

ما نلحظه من ختام الآيات بأساليب متنوعة إنشائية أو خبرية، مثل ختامها بجملة منفية: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [النور: ٤٧]، فادعوا الإيمان وجاء الختام نافيًا دعواهم.

■ ختامها بالاستفهام:

تأمل قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

---

(١) يراجع درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص٧٩، ٨٠.

قال الرازي: «وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون؛ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل أفلا تبصرون؛ لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه»[(١)].

وقال الألوسي: «ولعله لاعتبار الأولية والآخرية ذُيِّلَت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، بناء على أن المعنى ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ممن سلف من آبائكم، أو مما سلف منا أن آلهتكم لا تقدر على مثل ذلك! والثانية بقوله سبحانه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بناء على أن المعنى ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أنتم عجزها عن مثل ذلك.

وقيل في وجه تذييل الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ دون قوله سبحانه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: إن المفروض لو تحقق بقي معه السمع دون الابصار؛ إذ ظلمة الليل لا تحجب السمع وتحجب البصر، وفي وجه تذييل الثانية بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ دون أفلا تسمعون أن تحقق المفروض وعدمه سيان في أمر السمع دون الإبصار، إذ لضياء النهار مدخل في الإبصار، وليس له مدخل في السمع أصلا»[(٢)].

■ **ختامها بالشرط:**

قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فجاءت الجملة الشرطية تحذيرية لمن يخالف

(١) التفسير الكبير، للرازي (٢٥/ ١٣).
(٢) روح المعاني، (٢٠/ ١٠٨).

شرع الله في الطلاق، مقررة للأحكام الشرعية مؤكدة أن العدل فيها، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال: ١]. وحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه. وفي التذييل إلهاب لمشاعر المؤمنين، وحث لهم على الطاعة.

■ **ختامها بالمدح:**

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]. حيث جاء أسلوب المدح مقررًا لما جاء من أوصاف النعيم مجمِلًا له. وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفيه تقرير للأحكام، وتشويق للنفوس المحبة لربها بامتثال أوامره والتزام ما يحبه.

■ **ختامها بالذم:**

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾ [هود: ٩٩].

■ **ختامها بالتعليل:**

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾ [المائدة: ٥٨]. فلو عقلوا لعظموها.

■ **ختامها بالأمر:**

﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٠٣﴾ [البقرة: ٢٠٣]، والتناسب بين الحج والحشر واضحٌ. «قال الحَرَالِّي: وكلية الحج ومناسكه مطابق في الاعتبار لأمر يوم الحشر ومواقفه، من خروج الحاج من وطنه متزودًا

كخروج الميت من الدنيا متزودًا بزاد العمل، ووصوله إلى الميقات وإهلاله متجردًا كانبعاثه من القبر متعريًا، وتلبيته في حجه كتلبيته في حشره»[١].

ومع هذا التفنن والتنوع في التذييلات إلا أن الحُسْنَ واحد، فالقرآن الكريم في درجةٍ واحدةٍ من الفصاحة والبيان والحسنِ والروعة والبلاغة والرفعة؛ فهو كلام الله تعالى الذي لا تَـمَلُّ منه النفوسُ ولا يشبعُ منه الوجدانُ، قال ابن قتيبة: «وجعل الله تعالى القرآن متلوًّا، لا يُمَلُّ على طولِ التلاوةِ، ومسموعًا لا تَمُجُّه الآذانُ، وغضًّا لا يخلَق على كثرة الترداد»[٢].

۞ ثامنا: التناسق:

وهذا التناسق نلمسه في التشابه اللفظي والمعنوي بين التذييلات في السورة الواحدة، مع حُسن الترتيب، تأمل في سورة المنافقون: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون: ٧، ٨]، فجاءت الخاتمتان مختلفتين إثراء للمعنى واستيعابًا للمقصود، كما أن البلاغة تقتضي الترقي في النفي من الأعلى للأدنى، فنفى عنهم الفقه ثم نفى العلم، يقال: فلان ليس بفقيه ولا عالم، ولا يقال: فلان ليس بعالم ولا فقيه، فالفقه أعلى مرتبة من العلم.

كما أن الحقيقة الأولى غيبية لا يدركها إلا من له علم وفهم وإدراك، والثانية مشاهدة ملموسة فلا تخفى سوى على جاهل لا علم له. وقد أشار الفيروزأبادي لمعنى لطيف فقال: «قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ وبعده: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾،

---

(١) نظم الدرر للبقاعي، (١/ ٣٨٣).

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣.

لأَنَّ الأَوّل متّصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وفى معرفتها غموض يَحتاج إِلى فطنة، والمنافق لا فطنة له؛ والثاني متّصل بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ أَي: لا يعلمون بأَنَّ الله مُعِزّ لأَوليائه ومذِلٌّ لأَعدائه.»[1].

كذلك في سورة الحشر: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر: ١٣، ١٤]، فالتفقه أعلى مرتبة من مجرد التعقل؛ لذا نفى الأعلى قبل نفي الأدنى.

فالآية الأولى اشتملت على حقيقة لا تغيب إلا على من لا فقه له؛ إذ هي تُعبِّر عما في ضمائرهم، فكان الأحرى بهم أن تمتلئ قلوبهم برهبة الله، لكنها امتلأت برهبة الخلق، ولو كانوا يفقهون لقدروا الله حق قدره. والحقيقة الثانية لا تغيب إلا على من لا عقل له، فهي واضحة جليّة تعبر عن ظاهر حالهم، التحصُّن وبناء الجدران والتشرذم فيما بينهم فلا يجمعهم إلا كراهية المسلمين.

قال الشيخ زكريا الأنصاري: «ختمه هنا بقوله ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ وبعده بقوله ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ لأن الأول متصل بقوله: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي لأنهم يفقهون ظاهر الشيء دون باطنه، والفقهُ معرفةُ الظاهر والباطن، فناسب نفيُه الفقه عنهم. والثاني متَّصلٌ بقوله: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ أي لو عقلوا لاجتمعوا على الحقِّ ولم يتفرَّقوا، فناسب نَفيُ العقلِ عنهم»[2].

---

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ٣٢٠)

(٢) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، الشيخ زكريا الأنصاري (ت: ٩٢٦هـ) (١/ ٥٥٨).

وقال النيسابوري: «وإنما قال هاهنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ وفي الأوّل ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ لأن الفقه معرفة ظاهر الشيء وغامضه فنفي عنهم ذلك كما قلنا، وأراد هاهنا أنهم لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا، فتشتُّتُهم دليلُ عدم عقلهم؛ لأن العقل يحكم بأن الاجتماع مِعين على المطلوب والتفرق يوهن القوى ولا سيما إذا كانوا مبطلين»(١).

وقال عبد الكريم الخطيب: «ولهذا جاء وصفهم هنا ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ على حين جاء وصفهم في مقام خوفهم من الناس أشد من خوفهم من الله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ إذ كان العقل - مجرد العقل - كافيا في تقدير السلامة من الخطر، وأن السلامة رهن بالاجتماع لا بالتفرق، حتى إن بعض الحيوانات لتهتدي إلى هذا بغريزتها، فإذا واجهها خطر واجهته جبهة واحدة، لم يفر منها أحد. أما في مقام الخشية لله، فإنها لا تكون عن عقل - مجرد عقل - بل لا بد من عقل، معه فقه وعلم»(٢).

وفي سورة الطلاق: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ [الطلاق: ٢].

وقال جلَّ وعَلَا: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق: ٤، ٥].

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري (٦/ ٢٨٧)

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب (ت١٣٩٠) (١٤/ ٨٧٣).

ففي ثنايا الحديث عن أحكام الطلاق نلمسُ هذه اللطائف التربوية من ترسيخٍ للإيمان وتهذيبٍ للنفوس وتزكية لها، وتحليق بها في أجواء الفضيلة، ومن تغذية للعقول وتوعيةٍ لها وتبصرةٍ للقلوب، وغرسٍ للقيم. فتقوى الله تعالى والتوكل عليه واليقين بما عنده خيرُ ما يواجهُ به العبدُ ما يعتريه من هموم، وما يعترضه من مشكلات وأزمات.

وللتقوى أثرها في حياة المسلم ومعاملاته وسلوكه؛ والأتقياء أوفى الناس وأحرصهم على أداء الحقوق، من هنا تأتي أهمية التقوى في الامتثال لشرع الله تعالى في الطلاق. والملاحظ ارتباط جميع آيات الطلاق في القرآن بالحضّ على التقوى، تأمل في قول سبحانه في سورة البقرة في ثنايا الحديث عن أحكام الطلاق والأمر بالعدل والإحسان: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣١] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١﴾ [البقرة: ٢٤١].

وفي النساء بعد الحديث عن أحكام النساء والوصية بهن ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾: حضّ على التقوى في سائر الأحوالِ، ولا سيما فيما سبق من أمر الطلاق، والمعنى ومن يتق الله فيطلق للسُّنّة ولم يضارّ المعتدّة، ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد، ولم يظلم ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ من الهموم والكروب والكُربِ والمِحَن.

قال البيضاوي: «وعدٌ لعامَّة المتقين بالخلاص عن مضارِّ الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون»(١).

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي ٣/ ٤١٥.

وقال النيسابوري: «ومن أسرار القرآن ولطائفه أنه سبحانه حثَّ على التقوى في هذه السورة ثلاثَ مراتٍ: بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وذلك على عدد الطلقات الثلاث، ووعد في كل مرة نوعًا من الجزاء:

* **الأول**: أنه يخرجه مما دخل فيه وهو كاره، ويتيح له خيرًا ممن طلقها.
* **الثاني**: اليسر في الأمور والموالاة في المقاصد ما دام حيًّا.
* **الثالث**: (أفضل الجزاء) وهو ما يكون في الآخرة من النعماء»(١).

وقال صاحب الظلال: «﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. مخرجًا من الضيق في الدنيا والآخرة، ورزقًا من حيث لا يقدر ولا ينتظر، وهو تقريرٌ عام، وحقيقة دائمة، ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحي بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقي المتقون ربَّهم في هذا الشأن بصفة خاصة، وهو الشأنُ الذي لا ضابط فيه أحسّ ولا أدقّ من ضابط الشعور والضمير، فالتلاعب فيه مجاله واسع، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير»(٢).

وقد جمعت هذه الوعود الثلاث لأعظم ما يحتاجه الإنسان، فالمُمتحَن والمُبتلَى يبحث عن المخرج، سيما لو كانت المحنة في الحياة الزوجية، يحتاج إلى تيسير من الله تعالى أن ييسر الله على الزوج المُعسَّر للوفاء بالتزاماته المالية والمعيشية، وييسر على الحامل حملها ووضعها، ثم الجميع في حاجة لتكفير الله تعالى السيئات، سيّما ما قد يقع بين الزوجين، بسبب الغضب والكراهية والنفور، فيلاحظ هذا الترتيب العجيب، لشدّ ما يحتاجه المُمتحَن إلى المخرج، ثم بعد

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري (٧/ ١٧٥).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٠٨).

إسعافه بالمخرج يحتاج للتيسير، ثم في النهاية يحتاج للمغفرة والرحمة والفضل من المولى القدير.

❋ ❋ ❋

الخاتمة

وتشتمل على:

* أولًا: خلاصةُ البحثِ ونتائجُه.
* ثانيًا: توصيات.
* ثالثًا: المراجع.

أولًا: خلاصةُ البحثِ ونتائجُه:

* بعد هذه الرحلةِ في رحابِ القرآنِ: يمكننا أن نقدِّم خلاصةَ البحثِ ونتائجَه في السطور التالية:
* جملةُ التذييل: جملةٌ تأتي في ختام الآية بعد تمام المعنى لتقريره وبيانه، وهي من خصائص أسلوب القرآن، ومن فنون بلاغته، وأفانين روعته، وغرضها البيان والتقرير وإثراء المعنى وتحقيقه. وخرج بقولنا جملة: شبه الجملة، والمفردة؛ فإنها لا تصلح تذييلا، بل التذييل جملة اسمية أو فعلية.
* بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للتذييل صلةٌ قويَّةٌ.
* الفاصلةُ هي الكلمةُ الأخيرةُ في الآيةِ، تمَّ بها المعنى أم لم يتمَّ، أما التذييلُ: فإنه يأتي بتمامِ المعْنَى.
* التذييلُ لا يكونُ إلا جملةً، أما الفاصلةُ فإنها المقطع الأخير في آخر كلمة بالآية، وقد تكون الآية كلها فاصلة، مثل البداية بالأحرف المقطعة في أوائل السور لمن عدها آية، وقد تكون الآية كلمة واحدة فتكون الفاصلة مقطعها الأخير.

* كُلُّ نهايةِ آيةٍ فاصِلَةٌ، وليسَ كُلُّ فَاصِلةٍ تذييلا.
* يُراعى في التذييلِ دائما تَنَاسُبُ المعنى، ويُراعى في الفاصلةِ غالبًا التوافقُ اللفظيُّ والانسجامُ الصوتِيُّ، مع اتساق المعنى.
* تأتي جملةُ التذييلِ موصولةً تارةً ومفصولةً تارة، حَسْبَ سِيَاقِهَا واتسَاقِهَا.
* تُحَقِّقُ جملةُ التذييلِ أغراضًا كثيرةً، منها: التبيين والتقريرُ، والتعليلُ والاحتراسُ، وغيرُ ذلك مما يدلُّ على التناسق والتناسب بين جملة التذييل والكلام المُذيَّل.
* عُنِيَ عددٌ من المفسرين بالوقوف عند لطائف التذييلات، وإبراز معانيها، وبيان تناسبها وتآخيها، وتجلية لطائفها ودقائقها، ولا تكادُ تخلو سائرُ كتب التفسير من بيانٍ للتذييل على تفاوتٍ بينها في مدى العنايةِ بهذا الموضوع، وممن عُنِيَ بإبراز لطائفِ التذييل في القرآن: أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط، والبقاعي في نظم الدرر، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم، والبيضاوي في أنوار التنزيل، والعديد من كتَّابِ حواشيه، والألوسي في روح المعاني، وابن عاشور في التحرير والتنوير، وغيرُهم.
* للتذييلِ في محكم التنزيلِ سماتٌ فريدةٌ، ومزايا عديدةٌ، لا يُمكِنُ الإحاطةُ بها، كما لا يمكنُ لمن يجُولُ في روضٍ أو ينظُرُ لبحرٍ أن يحيطَ بأسراره ويحصِيَ عجائبَه، ومن بينِ هذه السمات الفريدة: التناسب، التعميم، الوضوح والبيان، التكرار، العمق والدقة، التنوع والتفنن.
* للتذييلِ فوائدُ عديدةٌ، وحِكَمٌ رشيدةٌ، فهو لونٌ من ألوانِ الإطنابِ به تَآلُفُ الجُمَلِ وتألُّقُها، وتعانقُ العبارات وتأنُّقُها، وانجلاء المعاني وتدفُّقُها، وفيه من المحسِّنات البلاغية ما فيه؛ حيث حسنُ الختام، وبراعةُ المقطع،

وتعانقُ الأطراف، وجمالُ الفاصلة، وعمقُ الصِّلَة، وغير ذلك.

* للوقوفِ على بلاغةِ التذييلِ ومعرفةِ حِكَمِهِ وأسرارِهِ: أصولٌ مهمةٌ لا بدَّ من مراعاتِها، من هذه الأصولِ: الاستعانةُ باللهِ تعالى على فهمِ كلامِهِ، ومراعاةُ مقاصدِ القرآنِ الكريمِ، والدرايةُ باللغةِ العربيةِ وأساليبِهَا وفُنُونِهَا، ومراعاةُ قواعِدِ التفسيرِ وأُصُولِهِ، والنظرةُ الكليَّةُ للسورةِ، والنظرُ في السياقِ، والتذوُّقُ، وصفاءُ الذِّهْنِ، مع معايشةِ القُرْآنِ الكريمِ عملا وسلوكًا ودعوةً.

* يأتي التذييل القرآني مؤكدا للمفهوم تارة وقد يأتي مؤكدًا للمفهوم والمنطوق معًا، كما ذكرنا في بلاغة «التصدير».

* نظرةُ المفسِّرِ للبلاغَةِ القرآنيةِ نظرةٌ عميقةٌ واعيةٌ، بعيدةُ المَدى، لا تتوقفُ عندَ إبرازِها، بل تنطلقُ منها إلى فَهْمٍ عَمِيقٍ واستنباطٍ دقيقٍ للمعاني والأحكامِ، فهي وسيلةٌ للمفسِّر لا غايةٌ، وهي مفاتيحُ لأبوابِ التدبُّرِ.

* مِن خِلالِ الدراسةِ التطبيقيةِ: رأينَا مَدَى الدِّقةِ والعُمْقِ في التذييلاتِ، ومَدَى تَنَاسُبِهَا وتَلاحُمِهَا مع الآيةِ.

* رأينا كيف حوتْ جُمَلُ التذييلِ واستوعبتْ كثيرًا من فنونِ البلاغة بأسلوبٍ سهلٍ لا تكلّفَ فيه ولا غموضَ.

* للتذييل أثرٌ بالغٌ في ترسيخ العقيدة وتقرير الأحكام الشرعية، بالحض على امتثالها، وبيان مقاصدها وحِكَمِها، وإقامة الحجة، ودحض شُبَه المبطلين.

* يأتي التذييل بحكمة تشريعية، أو بمقصد قرآني، كما يأتي باسم أو اسمين مقترنين من أسماء الله الحسنى، وقد يأتي بجملة تحضيضية، أو تعجبية، أو إنكارية، أو غير ذلك من معان ومقاصد.

ثانيًا: توصيات:

آمل من أساتذتي الكرام المطالبة بإضافةِ مقرَّرٍ دراسيٍّ في مرحلة الإجازة والدراسات العليا، يُعنى بالغوص في أعماق البلاغة القرآنية، وتوظِيفِهَا في فهم المعاني واستنباط العبرِ والأحكام، وإبراز إعجاز القرآن، وروائع أساليبه ونظمه.

وبعد: فما كان في هذا البحث من صوابٍ فلله الحمد والمنة، وما كان من خطأ فمن نفسي، وما توفيقي إلا بالله.

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

١ القرآن الكريم

كتب التفسير وعلوم القرآن:

١. **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، ط عالم الكتب بيروت، بدون.

٢. **أحكام القرآن**، لابن العربي: أبي بكر محمد بن عبد الله (٥٤٣ هـ)، دار الفكر بيروت ١٤٠٨هـ.

٣. **أخلاق حملة القرآن**، للآجري محمد بن حسين الآجري (٣٦٠ هـ)، ط دار الكتاب العربي.

٤. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، لأبي السعود محمد بن محمد مصطفي العمادي الحنفي (ت ٩٨٢ هـ)، ط دار الفكر، بدون.

٥. **الأساس في التفسير**، للشيخ سعيد حوى (ت ١٤٠٩هـ)، ط دار السلام بالقاهرة ١٤٠٥هـ، ط١.

٦. **أسباب النزول**، للواحدي: أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)، ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٥هـ.

٧. **إعجاز القرآن**، للقاضي أبي بكر الباقلاني (ت٤٠٣ هـ) بهامش الإتقان في علوم القرآن ط عالم الكتب بيروت، بدون.

٨. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، للبيضاوي ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن

عمر بن محمد البيضاوي (ت ٦٩٢ هـ)، ط دار الرشيد بيروت ١٤٢١هـ.

٩. **بحر العلوم**، لعلاء الدين السمرقندي، (ت ٨٦٠ هـ)، ط دار الفكر بيروت ط١ ١٤١٨هـ.

١٠. **البحر المحيط**، للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت ٧٥٤ هـ)، ط دار إحياء التراث العربي ط سنة ١٤١١هـ ثانية.

١١. **بدائع الفوائد**، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)، ط دار ابن الجوزي بالرياض.

١٢. **البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريق الشاطبية والدرة**، عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي (ت ١٤٠٣ هـ) مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط١ ١٤١٤هـ.

١٣. **البرهان في علوم القرآن**، لبدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ هـ) دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٦هـ.

١٤. **بيان إعجاز القرآن**، للخطابي أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم (ت٣٨٨ هـ) ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط دار المعارف ط٣.

١٥. **البيان في عدّ آي القرآن**، لأبي عمرو الداني الأندلسي ت ٤٤٤هـ ط منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق بالكويت ١٤١٤هـ.

١٦. **تأويل مشكل القرآن**، لابن قتيبة الدينوري أبي محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، ط دار التراث.

١٧. **التحرير والتنوير**، للأستاذ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ)، ط دار سحنون للنشر والتوزيع تونس.

١٨. **التسهيل لعلوم التنزيل**، للإمام المفسر محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي ت ٧٩٢هـ.

١٩. **تفسير القرآن العظيم**، لابن أبي حاتم للإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (ت ٣٢٧هـ)، ط مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة ١٤١٩هـ.

٢٠. **تفسير القرآن العظيم**، للإمام عبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١)، ط دار المعرفة بيروت.

٢١. **تفسير القرآن العظيم**، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير(ت ٧٧٤)، ط دار طيبة ٢ – ١٤٢٠هـ.

٢٢. **التفسير القرآني للقرآن**، عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر العربي بالقاهرة.

٢٣. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن السعدى (ت ١٣٧٦)، ط مؤسسة الرسالة ١، ١٤٢٣هـ.

٢٤. **جامع البيان في تفسير القرآن**، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠)، ط دار إحياء التراث العربي ط٢.

٢٥. **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧١)، ط دار الكتب العلمية بيروت.

٢٦. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، للثعالبي عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، ط مؤسسة الأعلمي بيروت، بدون تاريخ.

٢٧. **الجواهر في تفسير القرآن**، طنطاوي جوهري ١٣٥٨هـ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٢هـ.

٢٨. **حاشية الشهاب «عناية القاضي وكفاية الراضي»، على تفسير البيضاوي** لشهاب الدين الخفاجي ت ١٠٦٩ هـ، ط دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

٢٩. **حاشية الصاوي على الجلالين**، أحمد بن محمد الصاوي المالكي (ت سنة ١٢٤١ هـ)، ط دار إحياء التراث العربي.

٣٠. **حاشية محيي الدين شيخ زاده على البيضاوي**، محمد بن مصلح الدين مصطفى القونوي الحنفي ت ٩٥١ هـ على تفسير القاضي البيضاوي ت٦٨٥هـ ط دار الكتب العلمية بيروت.

٣١. **حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمِي العلوي الهرري الشافعي ط دار طوق النجاة بيروت ١٤٢١هـ.

٣٢. **ختم الآيات بأسماء الله الحسنى ودلالتها**، د. على سليمان العبيد بحث محكم ط دار العاصمة بالرياض ط١ ١٤١٨هـ.

٣٣. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، أحمد بن يوسف، السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) ط١ دار القلم بدمشق ١٤٠٧هـ.

٣٤. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، لجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ)، ط دار الفكر سنة ١٤٠٣هـ.

٣٥. **درة التنزيل وغرة التأويل** للخطيب الإسكافي أبي عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠)، ط دار الآفاق الجديدة بيروت أولى ١٣٩٣هـ.

٣٦. **روح البيان**، للبروسوى إسماعيل حقي (ت ١٣٧٠ هـ)، ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٣٧. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، لشهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ)، ط دار إحياء التراث العربي ط ٤ سنة ١٤٠٥هـ.

٣٨. **زاد المسير في علم التفسير**، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٦ هـ)، ط المكتب الإسلامي بيروت ط١ سنة ١٣٨٥ هـ سنة ١٩٦٥م.

٣٩. **زهرة التفاسير**، محمد أبي زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٣٩٤ هـ)، ط دار الفكر العربي.

٤٠. **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلمات ربنا الحكيم الخبير**، شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧ هـ)، ط دار المعرفة بيروت ط ٢، بدون تاريخ.

٤١. **شرح الهداية في توجيه القراءات**، لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت ٤٤٠ هـ) مكتبة الرشد بالرياض ط ١٤١٦هـ.

٤٢. **صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم**، عبد الرحمن محمد الدوسري ت١٣٩٩هـ ط دار المغني للنشر والتوزيع بالرياض ط١ ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م.

٤٣. **الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم**، نذير حمدان. ط دار المنارة جدة ط ١ – ١٤١٢هـ.

٤٤. **العجاب في بيان الأسباب**، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، ط دار ابن الجوزي بالرياض.

٤٥. **الغاية في القراءات العشر**، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري (ت ٣٨١هـ)، ط مطابع العبيكان ط١ - ١٤٠٥هـ.

٤٦. **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، لنظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري ت ٧٢٨هـ، ط البابي الحلبي سنة ١٣٨١هـ، ط أولى.

٤٧. **فتح البيان في مقاصد القرآن**، صديق حسن خان القنوجي (١٣٠٧هـ) مطبعة العاصمة بالقاهرة سنة ١٩٦٥م.

٤٨. **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن**، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، (ت ٩٢٦هـ) حققه: محمد علي الصابوني، ط دار القرآن الكريم، بيروت، ط١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٤٩. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي بن الشوكاني (ت١٢٥٠ هـ) - ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٥٠. **فهمُ القرآنِ ومعانيه**، لأبي عبدِ الله الحارثِ بن أسدِ بنِ عبدِ اللهِ المحاسبيِّ (ت ٢٤٣هـ)، ط ٢ دار الكندي | دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ.

٥١. **في ظلال القرآن**، لسيد قطب (ت ١٩٦٦م) دار الشروق سنة ١٤٠٧ هـ - ط ١٣.

٥٢. **قطف الأزهار في كشف الأسرار**، للسيوطي، وزارة الأوقاف ١٤١٤هـ ١٩٩٤م قطر.

٥٣. **قواعد التدبر الأمثل،** عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ط دار القلم دمشق ١٤٠٩هـ ط٢.

٥٤. **الكتاب المُوضَح في وجوه القراءات وعللها،** نصر بن علي بن محمد أبي عبد الله الشيرازي الفارسي النحوي المعروف بابن أبي مريم (ت ٥٦٥هـ) طبع الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة ١٤١٤هـ ط ١.

٥٥. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،** لمحمود بن عمر الزمخشري المعتزلي (ت ٥٢٨ هـ)، ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٥٦. **كشف التنزيل في تحقق مباحث التأويل،** لأبي بكر الحداد اليمني(ت ١١٣٢هـ)ط١، دار المدار الإسلامي بيروت ٢٠٠٣م.

٥٧. **لباب التأويل في معاني التنزيل،** علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي (ت ٧٤١ هـ) ط٢ البابي الحلبي١٣٧٥هـ.

٥٨. **اللباب في علوم الكتاب،** لابن عادل الحنبلي لسراج الدين أبي حفص: عمر بن علي بن عادل الحنبلي، الدمشقي. ط دار الكتب العلمية ط١ -١٩٩٨م.

٥٩. **محاسن التأويل،** محمد جمال الدين القاسمي، ت١٣٢٢، ط دار إحياء الكتب العربية. مصر.

٦٠. **المحرر الوجيز،** لابن عطية عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، ط مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر – الدوحة ١٤٠٣هـ.

٦١. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، النسفي عبد الله بن أحمد بن محمود (ت ٧١٠هـ)، ط دار الفكر.

٦٢. **مراصد المطالع الطالع في تناسب المطالع والمقاطع**، للسيوطي ط مكتبة دار المنهاج بالرياض ١٤٢٦ هـ ط١

٦٣. **مرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن**، عبد الرازق على إبراهيم موسى، ط المكتبة العصرية بيروت.

٦٤. **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعى (ت ٨٨٥ هـ)، ط مكتبة المعارف بالرياض ١٤٠٨هـ.

٦٥. **معالم التنزيل**، للبغوي الحسين بن مسعود (ت ٥١٦هـ)، ط دار الكتب العلمية بيروت.

٦٦. **معاني القرآن الكريم**، للإمام أبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ، ط مركز إحياء التراث الإسلامي – مكة المكرمة ط١٤٠٨هـ ط١.

٦٧. **معاني القرآن** لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، ط دار السرور بيروت.

٦٨. **معاني القرآن وإعرابه**، للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري (ت ٣١١ هـ)، ط سنة ١٤٠٨هـ، ط أولي ط عالم الكتب ٠

٦٩. **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) دار الفكر ١٤٠٥هـ.

٧٠. **المفردات في غريب القرآن**، للراغب الأصفهاني: للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢ هـ)، ط دار القلم – دمشق.

٧١. **النبأ العظيم**، د. محمد عبد الله دراز(ت ١٣٧٧ هـ)، ط مطبعة السعادة ١٣٨٩ هـ، ١٩٦٩ م.

٧٢. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، لبرهان الدين البقاعي (٨٨٥هـ)، ط دار الكتب العلمية.

٧٣. **النكت في إعجاز القرآن**، للرماني أبي الحسن علي بن عيسى (٣٨٤هـ) ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز تحقيق محمد زغلول سلام وآخرون ط دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨ م.

كتب السنة:

٧٤. **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**، للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسى (ت ٧٣٩ هـ)- تحقيق شعيب الأرنؤوط – ط مؤسسة الرسالة بيروت.

٧٥. **الأدب المفرد** للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ط دولة الإمارات ١٤٠١هـ .

٧٦. **سنن ابن ماجه**، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ)، ط دار الحديث بالقاهرة.

٧٧. **سنن أبي داود**، لأبي داود سليمان بن شعث السجستاني الأزدي (٢٥٧ هـ)، ط دار الفكر، بدون.

٧٨. **سنن الترمذي،** أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٩٧ هـ) دار الفكر ١٤٠٨هـ.

٧٩. **سنن الدارقطني،** علي بن عمر(٣٨٥ هـ)، ط دار المحاسن بالقاهرة ١٣٨٦هـ.

٨٠. **السنن الكبرى** للبيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين)، ط دار الفكر، بدون تاريخ.

٨١. **سنن النسائي،** أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، ط دار الكتب العلمية بيروت.

٨٢. **شرح القصائد العشر،** أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، (ت: ٥٠٢هـ): إدارة الطباعة المنيرية. ١٣٥٢هـ.

٨٣. **شعب الإيمان** للبيهقي ط دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ، ط أولى.

٨٤. **صحيح البخاري،** أبي عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦)، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٨٥. **صحيح مسلم،** الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (ت ٢٦١ هـ) دار إحياء الكتب العربية.

٨٦. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،** للهيثمي نور الدين علي أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧)، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٢هـ.

٨٧. **المستدرك على الصحيحين،** للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) وفي ذيله تلخيص المستدرك للإمام شمس الدين الذهبي ت ٨٤٨هـ، ط دار الكتب العلمية.

٨٨. **المسند**، للإمام أحمد بن حنبل ط المكتب الإسلامي، بدون تاريخ.

٨٩. **مسند أبي يعلى الموصلي (٣٠٧)** ط دار القبلة جدة ومؤسسة علوم القرآن بيروت ط١- ١٤٠٨هـ.

٩٠. **المصنف للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١)** ط٢ المكتب الإسلامي ١٤٠٣.

٩١. **المعجم الكبير**، للطبراني أبي القاسم سليمان بن أحمد ٣٦٠هـ، ط دار البيان العربي ط ٢، بدون.

٩٢. **الموطأ**، للإمامِ مالك - برواية الإمام محمَّد بن الحَسَن ط دار القلم دمشق، ١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩١م

كتب اللغة:

٩٣. **الإيضاح في علوم البلاغة**، لجلال الدين القزويني (ت ٧٣٩ هـ)، ط دار الكتاب المصري.

٩٤. **بديع القرآن**، لابن أبي الإصبع عبد العظيم بن عبد الواحد القيرواني المصري (ت ٦٥٤)، دار نهضة مصر، ٢، بدون.

٩٥. **البديع في نقد الشعر**، لأسامة بن منقذ (ت ٥٤٤)، ط البابي الحلبي بالقاهرة.

٩٦. **تاج العروس من جواهر القاموس**، للإمام محب الدين أبي الفضل السيد محمد المرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي نزيل مصر(ت ١٢٠٥ هـ)، ط المطبعة الخيرية بجمالة مصر ١٣٠٦هـ.

٩٧. **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر**، لابن أبي الأصبع (ت ٦٥٤)، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر.

٩٨. **تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع**، الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ)، ط البابي الحلبي ١٣٨٥هـ.

٩٩. **تهذيب اللغة**، لأبي منصور محمد بن أحمد بن طلحة الأزهري الهروي (ت ٣٧٠)، ط الدار المصرية.

١٠٠. **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، أحمد زكي صفوت، ط المكتبة العلمية بيروت.

١٠١. **خزانة الأدب وغاية الأرب**، لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي (ت ٨٣٧) دار صادر بيروت.

١٠٢. **سر الفصاحة**، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي(ت ٤٦٦)، ط دار الكتب العلمية ١، ١٤٠٢هـ.

١٠٣. **شرح البردة**، تأليف السوسي على كان حيا قبل ١١٦١ مخطوط ٥, ٨١١ ش.س ٤٦٨٦ بجامعة الملك سعود.

١٠٤. **الشوقيات**، لأمير الشعراء أحمد شوقي، دار كنوز المعرفة.

١٠٥. **الصناعتين**، لأبي هلال العسكري: حسن بن عبد الله (ت ٣٩٥)، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠١هـ.

١٠٦. **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني ط دار الكتب العلمية، بدون.

١٠٧. **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح** لتقي الدين السبكي (٧٧٣)، المكتبة العصرية بيروت ط ١٤٢٣هـ، ط١.

١٠٨. **علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع،** للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ط دار القلم بيروت ط٢، ١٤٠٢هـ.

١٠٩. **الفاصلة القرآنية،** للدكتور عبد الفتاح لاشين ط دار المريخ بالرياض ١٤٠٢هـ.

١١٠. **الفاصلة في القرآن،** محمد الحسناوي، ط المكتب الإسلامي بيروت ط٢، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦.

١١١. **الفواصل القرآنية دراسة بلاغية،** للدكتور السيد خضر - مكتبة الإيمان بالمنصورة، ط١ ١٤٢٠هـ.

١١٢. **فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح،** لعبد الرحمن الشربيني من شيوخ الأزهر، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول ١٣٢٦هـ.

١١٣. **القاموس المحيط،** لمجد الدين الفيروزآبادي (ت٨١٧)، ط المكتبة التجارية الكبرى ط٥.

١١٤. **الكامل في اللغة والأدب،** محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار الفكر العربي - القاهرة ط ثالثة ١٤١٧هـ.

١١٥. **لسان العرب،** لجمال الدين أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن منظور (٧١١ هـ). ط دار المعارف، بدون تاريخ.

١١٦. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، لأبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٩٥.

١١٧. **مختار الصحاح**، للرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٠)، ط مكتبة لبنان.

١١٨. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، للعلَّامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ت ٧٧٠هـ، ط المكتبة العصرية بيروت.

١١٩. **معجم البلاغة العربية**، د. بدوي طبانة، ط دار المنارة جدة ط ١٤٠٨هـ.

١٢٠. **المعجم المفصل في علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني**، د. إنعام عكاوي دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ.

١٢١. **مفتاح العلوم**، للسكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر(ت٦٢٦ هـ)ط المكتبة العلمية الجديدة بيروت.

١٢٢. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، ط دار صادر- بيروت - لبنان.

١٢٣. **نهاية الأرب في فنون الأدب**، للنويري: شهاب الدين: أحمد بن عبدالوهاب النويري الكندي (ت: ٧٣٢ هـ).

❊ ❊ ❊

الفهرس

الموضـــــــــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــــــــــــــــــــوع	رقم الصفحة

❊ ❊ ❊

مجلة تدبر



البحث الثاني :

المَنْهجُ القُرآني: أُسُسُه وقَواعِدُه في التَّعامُل
دِراسةٌ تَدبُرِيَّةٌ تَأمُّلِيَّةٌ في سُورةِ الحُجُراتِ

د. سَعِيدُ بنُ رَاشِدِ الصَّوَافي

الأستاذ المساعد بقسم العلوم الإسلامية

كلية التربية - جامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان

alsuwafi@squ.edu.om

- حصل على درجة الماجستير من جامعة آل البيت ـ المملكة الأردنية الهاشمية في تخصص القرآن الكريم وعلومه بأطروحته : (الوحدة الإنسانية في القرآن الكريم)
- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة الزيتونة ـ الجمهورية التونسية في العلوم الإسلامية في تخصص علوم القرآن والتفسير (بأطروحته: منهج ابن بركة في علوم القرآن والتفسير في كتابه الجامع دراسة منهجية مقارنة)
- من مؤلفاته:
- الوقف والابتداء واثرهما في المعاتي القرانية
- القران الكريم واستشراف القيم الانسانية : قيمة العدل انموذجا
- السند : مفهومه واهميته واثره في التفسير
- الالفات السبع في القران الكريم بين الرسم والقراءة
- تدبر القران الكريم وصناعة الشخصية المسلمة

ملخص البحث

يتناول هذا البحث جانبًا مهمًّا في الحياة الإنسانية، فهو يبيِّن المنهج القرآني: أُسُسه وقواعده في التعامل، من خلال دراسة تدبُّريَّة تأمُّليَّة في سورة الحجرات، وقد جاء تقسيمه إلى: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين.

* **المُقدِّمة** تتضمن نبذة عن الموضوع وأهميته، وأهداف الدراسة، والمنهجية، وأسئلة الدراسة، والدراسات السابقة، والخُطَّة.

* **التمهيد** فقد كان حول سورة الحجرات: بيان التنـزيل، ومقتضيات المضمون.

* **المبحث الأول كان بعنوان: «منهج التعامل مع الله ورسوله»**، وشمل مطلبين:
  - **الأول**: منهج التعامل مع الله تعالى عقيدة وشريعة.
  - **والثاني**: منهج التعامل مع المقام النبوي.

* **المبحث الثاني فقد كان عن منهج التعامل الإنساني**، وشمل مطلبين:
  - **الأول**: منهج التعامل في ظِلّ الوَحدة الإنسانية.
  - **والثاني**: منهج التعامل في ظِلّ المجتمعات الإنسانية.

* **وأخيرًا الخاتمة**: حوَت أهم النتائج والتوصيات.

ويهدف البحث إلى إبراز منهج القرآن الكريم في تعامُل المسلم مع الله تعالى، ومع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعامُل المسلم مع غيره من بني البشر، كما ورد في سورة الحجرات، واستخلاص أهمية هذا المنهج القرآني وبيان دوره في تنظيم حياة المسلم.

كلمات مفتاحية:

الحجرات ، التعامل ، المنهج ، التدبر ، التأمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله، خلَق الإنسان وكرَّمه، وفضَّله على سائر مخلوقاته، وجعلَه خليفة في الأرض، والصلاة والسلام على سيدنا محمد قدوة العالمين، وسيد الأولين والآخرين، صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندما جعل هذا الإنسان خليفة في الأرض، وضَع له المنهج الذي يسير عليه، والقواعد والأسس التي ينطلق منها، تَمثَّل ذلك في إنزال الرسالات السماوية إلى البشر، وآخر هذه الرسالات الرسالة الخاتمة التي جاء بها سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد جاء بالهدى والنور، والمنهج الربَّانيّ (القرآن الكريم).

والحديث عن المنهج القرآني حديث عن النظام المُحكَم للكون وما فيه؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي أبدَع الكون من العدم، وأوجَد فيه من المخلوقات ما لا يُحصى عددًا، وجعَل أشرف هذه المخلوقات وأكرمَها بني آدم ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقد اختار لهذا المخلوق المُكرَّم منهجًا ودستورًا في الحياة، ينظِّم سلوكه في الأرض، وعلاقته بخالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلاقته بنفسه، وبغيره.

وقد حوى القرآن الكريم المناهج التي يحتاجها البشر في تعاملاتهم في حياتهم المعاشية، ولم يدَع جانبًا من جوانب الحياة إلا كانت له نظرته الخاصة، ومنهجه المُستقلّ؛ بحيث ينتج من مجموع مناهجه وأنظمته، تشريع متكامل لمناحي الحياة كلها ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣][١].

حوى القرآن الكريم المنهج القويم المتكامل للتعامل، ولا نستطيع في مثل هذا البحث المتواضع أن نأتي على جزئيات هذا المنهج، فهو شامل لجميع نواحي الحياة الإنسانية ومجالاتها المختلفة.

وقد لفت انتباهي وأنا أقرأ سورة الحجرات وأتدبَّرُها؛ ما فيها من كنوز عظيمة، وما تحمله من معانٍ سامية، وما تتضمنه من مناهج مُحكَمة، وما يتخلل ذلك من أوامرَ ونواهٍ وتوجيهات، إن هذه السورة الكريمة حريّ بالمرء أن يتوقف عندها؛ سواء بالتأمل والتدبر، أو بالتحليل والدراسة، ولعلّي أستفيد مما سطَّره الكاتبون قبلي، أو أُفيد بما يفتح الله عليّ.

ومهما كُتب حولها من دراسات، فلن يزال البحث واسعًا، والمجال خصبًا للباحثين والدارسين، وصدق رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - إذ يقول في وصف القرآن الكريم: «وهو الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلَق على كثرة الردّ»[٢]. لذا اخترت سورة الحجرات لتكون أنموذجًا للمنهج القرآني في التعامل، ورغم أنها من السور القصار؛ إلا أنها تمثل منهجًا متكاملًا؛ حيث حوت

(١) يُنظر: مباحث في إعجاز القرآن، لمصطفى مسلم (٢٤٩).
(٢) جزء من حديث طويل، رواه الترمذي وغيره، يُنظر: سنن الترمذي، للترمذي، رقم الحديث (٢٩٠٦)، باب: فضل القرآن، (٥/ ١٧٢).

أهم المرتكزات والقواعد والأسس التي من شأنها أن تجعل المجتمع مجتمعًا مثاليًّا راقيًا يسير وفق المنهج السديد، ولذلك سُمِّيت هذه السورة بسورة «الآداب والأخلاق».

أهمية الموضوع:

تبرز أهمية الدراسة في الآتي:

١) **تناولها لموضوع غاية في الأهمية في حياة المسلم،** وهو المنهج الذي ينبغي أن يسلكه في تعامله مع الله تعالى، ومع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع الآخرين.

٢) **تقديمها توجيهات قرآنية غاية في الرُّقيّ في مجال التعامل،** في ظِلّ تأزُّم العلاقات الإنسانية في العصر الراهن.

٣) **ما ستُقدِّمه من توصيات تتعلق بأسس التعامل،** والموضوعات التي تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة في هذا المجال.

أهداف الدراسة تتمثل في الآتي:

١) **إبراز منهج القرآن الكريم في تعامل المسلم مع الله تعالى،** ومع رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ورد في سورة الحجرات.

٢) **توضيح منهج القرآن الكريم في تعامل المسلم مع غيره** كما ورد في سورة الحجرات.

٣) **استخلاص أهمية هذا المنهج القرآني** ودوره في تنظيم حياة المسلم.

أسئلة الدراسة:

■ **تسعى الدراسة إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:**

- **ما المنهج القرآني في تعامل المسلم مع الله تعالى** كما ورد في سورة الحجرات؟
- **ما المنهج القرآني في تعامل المسلم مع الرسول** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ورد في سورة الحجرات؟
- **ما المنهج القرآني في تعامل المسلم مع غيره** في ظِلّ الوَحدة الإنسانية كما ورد سورة الحجرات؟
- **ما المنهج القرآني في تعامل المسلم مع غيره** في ظِلّ المجتمعات الإنسانية كما ورد سورة الحجرات؟

الدراسات السابقة:

مثل هذا الموضوع يجب أن يكون فيه دراسات كثيرة ومتنوعة؛ لأنه يلامس حياة المجتمع الإنساني اليومية، ومع أن هناك دراسات عديدة أجريت حول سورة الحجرات، إلا أنها تميل إلى الناحية التفسيرية؛ سواء التفسير التحليلي، أو التفسير الموضوعي، أو التركيز على بيان الجوانب الخُلُقية والتربوية، وأهم الدراسات التي تسنَّى لي الاطلاع عليها الآتي:

١) الأمين (١٩٧٦م)، سورة الحجرات منهج تربوي لمجتمع مثالي، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز: تناولت هذه الدراسة تعريفًا للتربية وأهدافها وتاريخها، مع التركيز على التربية

الإسلامية، ثم التعريف بسورة الحجرات، وإبراز عناصرها الأساسية، وناقشت بعض الجوانب المتعلقة بالتربية.

٢) **اللوح (٢٠٠٤م)، التربية الأخلاقية في ضوء سورة الحجرات،** بحث مُقدَّم إلى المؤتمر التربوي الأول «التربية في فلسطين وتغيرات العصر» كلية التربية – الجامعة الإسلامية، ٢٣ – ٢٤/ ٢٠٠٤م: وهذه الدراسة قائمة على منهج التفسير الموضوعي لسورة الحجرات، وقد تم تقسيم الموضوع على أساس مقاطع السورة، كل مقطع يحمل موضوعًا معينًا، وعلاقة هذه المقاطع ببعضها، وربط الآيات بالواقع الحالي للأمة الإسلامية.

٣) **الشنقيطي (٢٠٠٦م)، الأوامر في سورة الحجرات،** بحث نشر في المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل (العلوم الإنسانية والإدارية): تناول الأوامر الواردة في سورة الحجرات، وقسَّمَه إلى تمهيد وثمانية فصول: التمهيد في الأمر وتعريفه، وحكمه، وأنواعه. أما الفصول فقد تناولت الأوامر في سورة الحجرات.

٤) **العمر (٢٠١١م)، سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية:** وهو عبارة عن تفسير لسورة الحجرات، يتضمن قسمين: الأول: تناول دراسة الآيات وتفسيرها تفسيرًا تحليليًّا؛ من حيث أسباب نزول الآيات، والقراءات الواردة في السورة، وبعض أحكام التجويد، وتناول معاني الآيات وتفسيرها، وما ورد في السورة من أحكام. والقسم الثاني: تناول دراسة السورة دراسة موضوعية شاملة.

٥) **زغرب (٢٠١٦م) الوصايا التسع في سورة الحجرات في التعامل مع الناس،** تناول فيه الوصايا التسع المعروفة في سورة الحجرات، ولأن المؤلف إمام وخطيب مسجد الفرقان بفلسطين، فإنه تناول الموضوع بأسلوب وعْظِيّ دعَويّ.

٦) عودة، أدب المعاملة وأثره في بناء العلاقات الإنسانية من منظور قرآني، بحث بالشبكة العالمية:

ركّز على جانبين:

الأول: التوجيهات القرآنية التي تحث على الالتزام بأدب التعامل مع الآخرين، ودوره في بناء العلاقات الإنسانية.

الثاني: الوقوف مع أنموذج تطبيقي، وهو موقف يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع السجناء، وانعكاس ذلك على علاقته بهم.

المنهجية:

اتبعتُ في هذا البحث المنهجين: الاستنباطي، والاستردادي؛ حيث قمت بتحديد الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع الدراسة، واستنباط دلالاتها ومعانيها، والاسترشاد بأقوال المفسرين والعلماء والباحثين، ولم أتعمق في اختلافات العلماء في المسائل الفقهية؛ وإنما حاولتُ الاقتصار على المختصر المفيد؛ تجنبًا للحشو والتطويل، فحسبي إظهار جوانب المنهج القرآني في التعامل، ولم ألتزم بترتيب آيات السورة، وإنما استشهدت بالآيات حسب مقتضى تقسيم البحث.

خُطَّة الدراسة:

تشمل هذه الدراسة الآتي:

* **مقدمة:** حوت نبذة عن الموضوع وأهميته، وأهداف الدراسة، والدراسات السابقة، والمنهجية المُتَّبعة.
* **التمهيد:** في سورة الحجرات: بيان التنـزيل ومقتضيات المضمون.

❊ **المبحث الأول: منهج التعامل مع الله ورسوله، وشمل مطلبين:**

- المطلب الأول: منهج التعامل مع الله تعالى عقيدة وشريعة.
- المطلب الثاني: منهج التعامل مع المقام النبوي.

❊ **المبحث الثاني: منهج التعامل الإنساني، وشمل مطلبين:**

- المطلب الأول: منهج التعامل في ظِلّ الوَحدة الإنسانية.
- المطلب الثاني: منهج التعامل في ظِلّ المجتمعات الإنسانية.

❊ **الخاتمة: حوت أهم النتائج والتوصيات**

❊ ❊ ❊

التمهيد

في سورة الحجرات

بيان التنزيل ومقتضيات المضمون

١) تعريف بالسورة:

* سورة الحجرات مدنية.
* عدد آياتها ثماني عشرة آية[١].
* هي السورة الثامنة بعد المئة في ترتيب نزول السور.
* نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم.
* وكان نزول هذه السورة سنة تسع، وتسميتها **بسورة الحجرات** لِذِكر الحجرات بها[٢] كعادة تسمية بقية السور القرآنية؛ إذ تُسمَّى بأشهَر شيء ذكَرتْه السورة، والمقصود بالحجرات: حجرات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي بيوت أزواجه الطاهرات.

وسورة الحجرات تمثل المنهج الرباني المتكامل للمجتمع الإنساني، «وهي - على وجازتها - جمعت أحكامًا جليلة ضخمة، تتعلق بحقائق التربية الخالدة، وأسس المدنية الفاضلة، حتى سمّاها بعض العلماء سورة الأخلاق»[٣].

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة الكريمة أنها تكاد تستقل بوضع معالم

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٣٦٤)، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني، (٥/ ٨٣).
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٧٨).
(٣) قبس من نور القرآن الكريم، للصابوني (١٢/ ٢٠٣).

كاملة لعالم نظيف، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم، والتي تكفل قيامه وصيانته، عالَم يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، عالَم نقي القلب، نظيف المشاعر، عفّ اللسان، وقبل ذلك عفّ السريرة، عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره(١).

غرض السورة الكريمة بشكل عام:

* **إرشاد المؤمنين إلى بعض الآداب التي ينبغي الالتزام بها في التعامل مع الله ورسوله**، وكذلك بعض المناهج في التنظيم الاجتماعي.
* **كما أن هذه السورة ركزّت على بعض المبادئ والقواعد والأسس في التعامل بين الناس**، كما حوت بعض الأمور التشريعية والعقدية، وحقائق عن الوجود الإنساني(٢).
* **وهذه الموضوعات كلها تهدف إلى تخلية المجتمع من الأمراض الاجتماعية**، وتحليته بالفضائل والقيم العليا.

٢) أهم موضوعاتها:

شملت سورة الحجرات موضوعات متعددة: تنوعت بين الأحكام، والآداب، والإيمان. وكلها تهدف إلى سلوك المنهج القويم في التعامل؛ سواء كان هذا التعامل مع الله تعالى وشرعه القويم، أو التعامل مع رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تعامل الناس بين بعضهم، مع الرباط الوثيق المتصل بالله سبحانه خالق الكون والإنسان، والحاكم والمتصرف فيهما، قال الفخر الرازي عند الكلام على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]: «هذه السورة

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٦/ ٣٣٣٥).
(٢) سورة الحجرات منهج تربوي لمجتمع مثالي، للأمين (٥٢).

فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله تعالى، أو مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو مع غيرهم من أبناء الجنس»[١].

❊ ❊ ❊

(١) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ٩٧-٩٨).

المبحث الأول

منهج التعامل مع الله ورسوله

الإنسان في هذا الكون يتعامل مع عوالم مختلفة، يتعامل مع الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، باعتباره خالق هذا الكون ومُدبِّره، فهو مُطالَب بالإيمان به وعبادته، وتطبيق شرعه، ويتعامل مع رسوله الكريم الذي أرسله بهذا الشرع الحنيف، كما يتعامل مع بني جنسه من البشر، وهو أيضًا يتعامل مع عوالم مختلفة في هذا الكون، وقد رسَم القرآن الكريم لهذا الإنسان المنهج القويم في التعامل مع هذه العوالم.

۞ ويشير القرآن الكريم إلى مبدأ مهم في التعامل:

فالدِّينُ في المنظور القرآني ليس صلاةً وصيامًا في جهة، وجلافةً وجَفَاءً في التعامل في الجهة الأخرى، بل هو وَحْدَةٌ متكاملة يرتبط فيها الجانب الإيماني بالجانب العَملي في الحياة، قال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فهذه الآية تشير إلى ملامح الشخصية الإسلامية التي ترتكز على جانبين اثنين: جانب الفكر والإيمان وأداء العبادات، وجانب الممارسة في السلوك الذاتي، وفي العلاقة مع الناس ومع المواقف الصعبة في الحياة.

نلمح ذلك من خلال تحديد طبيعة البِرّ الذي يعني التوسُّع في الخير والإحسان،

كما يذكر أهل اللغة[1]، لأنه يمثِّل سرَّ الشخصيَّة لدى المؤمن في آفاق التصوُّر وميدان التعامل، فبالإيمان والعمل تتكامل الشخصية وتنطلق[2].

❋ ❋ ❋

(١) يُنظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني (٥٠).

(٢) أدب المعاملة وأثره في بناء العلاقات الإنسانية من منظور قرآني، لعودة عبد (٣٠٠).

المطلب الأول

منهج التعامل مع الله تعالى عقيدة وشريعة

الإنسان مخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويجب عليه أن يحقق معنى العبودية الخالصة لخالقه، ويتمثل ذلك في هذه السورة الكريمة من خلال ثلاثة جوانب:

* **الأول**: الإيمان الحقيقي الخالص لله سبحانه.
* **الثاني**: اتباع شرع الله المُنـزَّل على سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
* **الثالث**: تقوى الله تعالى.

أولًا: في جانب الإيمان:

بيّنت السورة الكريمة منهجًا سديدًا في التعامل مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الجانب الإيماني، فقد بيّنت حقيقة الإيمان والإسلام[1]، ورسمت المنهج الذي يجب أن يسلكه الإنسان المسلم، وأنه لا يمكنه ادّعاء الإيمان بمجرد دخوله في الإسلام، فالله يعلم ما في ضمير الإنسان ومُطَّلِع عليه؛ فبدأت الآيات ببيان الخطأ الذي وقع فيه الأعراب الذين يظنون أنهم آمنوا، وادعوا بمجرد دخولهم الإسلام مقام الإيمان، بل ويمنُّون على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإيمانهم، فبيّنت السورة الكريمة لهؤلاء أن الأَوْلى أن يحمدوا الله تعالى على توفيقه إياهم للهداية إلى الإيمان ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات: ١٤].

قيل: إن هذه الآيات نزلت في أعراب بني أسد، قالوا: آمنَّا أول ما دخلوا في الإسلام، ومَنُّوا على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: يا رسول الله أسلمنا وقاتلَتْكَ

(١) كثر كلام العلماء حول الإسلام والإيمان والفرق بينهما، ولا مجال للحديث هنا عن ذلك اختصارًا.

العربُ ولم نُقاتِلك[1].

فأراد الله أن يُعلِّمهم حقيقة ما هو قائم في نفوسهم وهم يقولون هذا القول، وأنهم دخلوا في الإسلام استسلامًا، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان. فدل بهذا على أن حقيقة الإيمان لم تستقرّ في قلوبهم، ولم تشْرَبها أرواحهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤][2].

والذي يظهر أن هؤلاء الأعراب قالوا هذا الكلام جهلًا منهم، فإنهم يظنون أنهم بمجرد دخولهم الإسلام أصبحوا مؤمنين خُلَّصًا.

قال ابن تيمية: «وسياق الآية يدل على أن الله ذمهم لكونهم منُّوا بإسلامهم لجهلهم وجفائهم وأظهروا ما في أنفسهم مع علم الله به»[3].

ثم إن المنهج القرآني لم يُنكر على هؤلاء الأعراب هذا التصرف فحسب، بل بيّن لهم الصواب، وهو أن حقيقة الإيمان ليست دعوى باللسان، وإنما عقيدة راسخة في القلب، تظهر آثارها في تصرفات الإنسان[4]، فالمؤمن الحق هو من أخلص في إيمانه، وصدَّق تصديقًا جازمًا لا يمازجه شكّ ولا ريب، وقام بما يجب عليه تجاه خالقه، ودينه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

ويؤكِّد القرآن الكريم أن هذا هو الإيمان الصادق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ «الصادقون في عقيدتهم، الصادقون حين يقولون إنهم مؤمنون، فإذا لم تتحقق

---

(١) مسند البزار، للبزار، حديث رقم (٥١٤١) مسند ابن عباس رضي الله عنهما (١١/ ٣٢٨)، والأحكام الشرعية الكبرى، للإشبيلي (٤/ ٢١١).

(٢) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٤٩).

(٣) الإيمان، لابن تيمية (١٩٣).

(٤) قبس من نور القرآن الكريم، للصابوني (١٢/ ٢٢٢).

تلك المشاعر في القلب، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة، فالإيمان لا يتحقق، والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون»(١).

كما أوضحت الآيات الكريمة ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من الأدب مع الله سبحانه، الذي لا يخفى عليه ما في الضمائر، ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾ [الحجرات: ١٦].

ثم يأتي التوجيه الرباني إلى الرسول ﷺ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [الحجرات: ١٧] أي: يمنُّون عليك بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم(٢)، فالله غني عن عباده وعن إيمانهم وعبادتهم، والعباد هم المحتاجون إليه سبحانه. لو تفكَّر الإنسان العاقل الذي هداه الله إلى الإيمان، لأيقَنَ بصدق أنه ممنون لله بهذا التوفيق الذي هداه الله إليه؛ فالإيمان يمنح الإنسان التصور الصحيح لهذا الكون، وهذه الحياة وما فيها من أسرار، تنعكس عليه في حياته وفي تعامله مع الكون بما فيه من عوالم مختلفة.

وتختم السورة الكريمة بتنبيه هؤلاء الأعراب وغيرهم على أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ المتفرِّد بعلم الغيب يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه ما عليه حالكم من أعمال، وحتى ما تُكِنّه الصدور وتُخفِيه النفوس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحجرات: ١٨].

ثانيًا: في جانب التشريع:

المُشرِّع هو الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، والإنسان مُطالَب بأن يُطبِّق شرع الله في جميع شؤون الحياة، ولا يمكن لأي إنسان أن يُقدِّم أو يؤخِّر شيئًا في شرع الله.

---

(١) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٥٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٩٠).

وفي هذه السورة الكريمة، بل في بدايتها رسمٌ للمنهج الذي ينبغي على الإنسان اتباعه تجاه شرع الله الذي بعث به رسوله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بنداء عباد الله المؤمنين، محدِّدة المنهج الذي يجب عليهم اتباعه في تعاملهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وشرعه الذي بُعِث به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره بتبليغه إياهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾ [الحجرات: ١] «أي: لا تُقدِّموا قولًا ولا فعلًا بين يدي الله وقول رسوله وفعله، فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا»(١).

قرأ الجمهور ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ بضم الفوقية وكسر الدال مشددة. وقرأ يعقوب بفتحهما ﴿تَقَدَّمُوا﴾ على أن أصله: لا تتقدموا(٢).

والتقدم حقيقته: المشي قبل الغير، وفعله المجرَّد: قدم من باب نَصَرَ، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [هود: ٩٨]. وهنا استعارة تمثيلية؛ بتشبيه حال من يفعل فِعلًا دون إذن من الله ورسوله، بحال من يتقدم مماشيه في مشيه ويتركه خلفه(٣). أي لا تُقدِّموا أنفسكم في حضرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: لا تجعلوا لأنفسكم تقدُّمًا ورأيًا عنده، وحينئذ تتحد القراءتان في المعنى، وهما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال، وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال(٤).

والمقصود: لا تعجلوا بقضاء أمر قبل أن يُقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله ورسوله، بل كُونوا تبعًا لحكم الله ورسوله في جميع الأمور(٥). وقد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦/ ٢٧٣).

(٢) القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة، لشرف (٥١٥).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٠).

(٤) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ٩٢).

(٥) جامع البيان في تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٢١/ ٣٣٥). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٦٤).

حصل من قوله ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ معنى اتبعوا الله ورسوله[1].

ومفاد هذا المنهج هو أنه لا يمكن للبشر - بأي حال من الأحوال - أن يقترحوا أحكامًا تشريعية، فضلًا عن أن يكون لهم الصدارة في سَنّ الأحكام الشرعية، فالله سبحانه هو المُشرِّع، أو أن يُبدوا رأيًا في أي حكم شرعه الله عليهم، وإنما عليهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، فأحكام الله لا تقبل المفاصلة ولا المساومة، ولا يحقّ لأي إنسان أن يعترض على حكم الله، أو أن يتدخل في تغيير شيء من أحكامه، بل التسليم المُطلَق، والعمل دون تردُّد، لأن الحاكمية المُطْلَقة لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهو وحده مصدر التشريعات والأحكام، عن طريق إنزالها على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، والإنسان يجب أن يتلقى أحكام الله وتشريعاته بالقبول والتسليم، وعليه تنفيذها؛ باتباع الأوامر الإلهية، والانتهاء عما نهى الله عنه.

لذا فإن العالم الإسلامي مطالب اليوم أن يقف عند هذه الآية الكرية، ويتدبر فحواها، ويعي مدلولها، في سنّ التشريعات، وإصدار القوانين المنظمة للمجتمعات؛ لأنه لا يحق للمسلمين ولو اجتمعوا أن يُشرِّعوا شيئًا من عقولهم ما دام كتاب الله تعالى ورسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بين أظهرهم، والواجب عليهم أن ينطلقوا من هدي الله ومنهجه، المتمثل في الكتاب والسُّنّة.

۞ ثالثًا: في جانب التقوى:

تقوى الله تعالى عامل مهمٌّ لتزكية النفس وتهذيبها، ويترتب عليها آثار مهمّة في حياة الإنسان، فالتقوى قوّة داخليّة وقدرة نفسية تمتلك من خلالها النفس القدرة على إطاعة الأوامر الإلهيّة، وعلى مقاومة ميولها وأهوائها، ومنشؤها الخوف من

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨١).

الله، وأثرها تجنّب معصيته وسخطه، وهي تساعد الإنسان على تجنُّب حبائل الشيطان وإغراء الدنيا(١).

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في بيانِ حقيقة التقوى: «وأما التقوى فحقيقتُها العملُ بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر، وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنَّهي، وخوفًا من وعيده»(٢).

ومن خلال هذا التَّعريف والبيان لحقيقة التَّقوى، والتأمل في آيات هذه السورة الكريمة تظهر أهميتها في حياة الإنسان؛ فقد أمر الله بها، وجعلها ثمرة طاعته في أداء العبادات التي كلَّف بها العباد، كما جعلها الميزان الحقيقي لتفاضل النَّاس، ولذلك كان مقرُّها القلب، الَّذي هو أعظم عضوٍ في الإنسان، والَّذي عليه مدار صلاح سائر الأعضاء والأركان، حيث بصلاحه يصلح الجسد كلُّه، وبفساده يفسد الجسد كلُّه(٣).

وقد ورد ذكر التقوى في هذه السورة الكريمة في مواضع مختلفة، تنوعت بين الأمر بها، وبيان أثرها، وامتداح الملتزمين بها، وهي على النحو الآتي:

ورد الأمر بها في افتتاح السورة الكريمة -بعد نهي المؤمنين من التقدم بين الله ورسوله- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١]، «فهو أدب نفسي مع الله ورسوله، وهو منهج في التلقِّي والتنفيذ، وهو أصل من أصول التشريع والعمل في الوقت ذاته، وهو منبثق من تقوى الله، وراجع إليها، هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم»(٤).

(١) تزكية النفس وتهذيبها، للأميني (١٠١).
(٢) الرسالة التبوكية، لابن قيم الجوزية (٨).
(٣) التقوى: حقيقتها وأهميتها وثمرتها، شبكة راية الإصلاح.
(٤) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٣٨).

ويأتي ذكر التقوى في الآية الثالثة من السورة الكريم، ليس أمرًا بها، ولكن امتداحًا للذين يسيرون على منهج الله، وينفذون أوامره، فهم الذين نجحوا في الامتحان، نتيجة التقوى التي يتحلون بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾ [الحجرات: ٣]. أي: أخلص قلوبهم، والمعنى: اختبر الله قلوبهم فوجدهم مخلصين[(١)].

قال ابن جرير: «هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها وأخلصها للتقوى، يعني لاتقائه بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخلص جيدها، ويبطل خبثها»[(٢)]، فهؤلاء هم الذين تقع السكينةُ عليهم من هيبة حضرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بسبب التقوى، فهم الذين امتحن اللهُ قلوبَهم للتقوى بانتزاع حُبِّ الشهوات منها[(٣)].

ويعود السياق بالأمر بالتقوى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات: ١٠]، والأمر هنا في هذا الموضع فيه إشارة إلى ما يصونهم عن التشاجر؛ لأن من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره[(٤)].

ثم يأمر الله تعالى بالتقوى بعد أمره عباده المؤمنين باجتناب الظن السيئ، ونهيه سبحانه عباده عن التجسس والغيبة، وهي أمراض نفسية اجتماعية خطيرة، تأكيدًا منه سبحانه أن التقوى تعصم صاحبها من الوقوع في مثل هذه المحظورات،

---

(١) سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية، للعمر (٢٧).
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢/ ٢٨٢).
(٣) لطائف الإشارات للقشيري (٣/ ٤٣٨).
(٤) يُنظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ١٠٦).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢].

ثم يأتي البيان الإلهي ليبيّن أن التقوى هي الميزان الحقيقي الذي يتفاضل به الناس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

قال البيضاوي: «فإن التقوى بها تكمل النفوس، وتتفاضل بها الأشخاص، فمن أراد شرفًا فليلتمسه منها، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله»**»(١).

❊ ❊ ❊

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (٥/ ١٣٧). والحديث رواه القضاعي، مسند الشهاب، رقم الحديث (٣٦٧)، (٢/ ٢٣٤). وذكره الجرجاني في الضعفاء وضعّف راويه. يُنظر: الكامل في الضعفاء، للجرجاني (٨/ ٤٠٥).

المطلب الثاني

منهج التعامل مع المقام النبوي

مقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقام عظيم عند الله تعالى، فقد اختصه بخصائص من بين سائر الأنبياء والرسل، وقد وجَّه الحق تبارك وتعالى الناس إلى احترام نبيهم وإجلاله، وإنزاله المنزلة التي تليق بمقامه العالي، وأن يتأدبوا في الحديث معه وفي حضرته وفي مخاطبته، أدبًا ينعكس على حركاتهم وسكناتهم، وحتى على نبرة أصواتهم، وكان المنهج القرآني في التعامل مع مقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يأتي:

١) عدم رفع الصوت في حضرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

من المناهج القرآنية في التعامل عمومًا هو خفض الصوت، وعدم رفعه، يظهر ذلك في التوجيه القرآني في قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، والحكمة من ذلك كما يقول الألوسي: «أنه أوفر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع، وفهمه»(١).

وإذا كان هذا المنهج مطلوبًا مع العامة؛ فإنه يكون أكيدًا مع من لهم مكانة وشأنًا عند الله سبحانه وعند البشر، وعلى هذا المنهج القرآني جاء التوجيه بخفض الصوت في حضرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه السورة الكريمة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٢].

وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري في صحيحه في قصة وفد بني تميم بسنده إلى ابن الزبير، قال: قَدِم ركب من بني تميم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة. قال عمر: بل أَمِّر الأقرع بن حابس. قال

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي (١١/ ٩٠).

أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. قال عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ حتى انقضت الآية[1].

والرفع: مستعار لجهر الصوت جهرًا متجاوزًا لمعتاد الكلام[2].

قال الفخر الرازي في تفسير ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾: «المراد حقيقته؛ وذلك لأن رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام»[3].

وإذا كانت الآية الكريمة قد نزلت في أفضل الناس وخيرة الرجال من صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهما رفعا صوتيهما في أمر يريان فيه مصلحة لدين الله، أمام حضرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن ذلك منهما بقصد الإيذاء؛ فكيف بغيرهما من عامة المسلمين[4]؟!

۞ ٢) عدم الجهر بالقول في مخاطبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢] فقوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ نهي عن جهر آخر وهو الجهر بالصوت عند خطابهم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لوجوب التغاير بين مقتضى قوله ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] ومقتضى ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾[5].

---

(١) صحيح البخاري، للبخاري، حديث رقم (٤١٠٩) باب: وفد بني تميم (٤/ ١٥٨٧).
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٤).
(٣) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ٩٣).
(٤) يُنظر: قبس من نور القرآن الكريم، للصابوني (١٢/ ٢٠٨).
(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٤).

أخرج ابن جرير الطبري عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلَهُ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ «كانوا يجهرون له بالكلام، ويرفعون أصواتهم، فوعظهم الله، ونهاهم عن ذلك»(١). وإذا كان هذا في مجلس النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي حضرته، فإنه كذلك بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، فاحترام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب أن يكون في كل الأحوال؛ سواء كان في حضرته أو في غيبته، في حياته أو في مماته، قال الحافظ ابن كثير: «قال العلماء: يُكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يُكره في حياته؛ لأنه محترم حيًا وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه، دائمًا»(٢).

٣) الثناء على من يغض الصوت في حضرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

امتدح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الممتثلين للنهي الإلهي عن رفع الصوت وعن الجهر بالقول في حضرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعل منزلتهم منزلة المؤمنين الصادقين، الذين أخلصوا في إيمانهم، واستحقوا بذلك المثوبة عند الله تعالى، وهي المغفرة والأجر العظيم منه سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: ٣].

فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] كان أبو بكر لا يكلم رسول الله إلا كأخي السرار(٣)، أي: مصاحب السرّ من الكلام، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية(٤). أي إنَّ الذين يَكُفُّون رفع أَصواتِهم عند رسول الله.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢١/ ٣٣٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٦٨).
(٣) أسباب نزول القرآن، للواحدي (٤٠٣).
(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٥).

فأصل الْغَضِّ: الْكَفُّ فِي لِين، ومنه غَضُّ الْبَصَرِ، وهو كَفُّهُ عَنِ النَّظَرِ[1]، والغض هنا مستعار لخفض الصوت والميل به إلى الإسرار.

والامتحان: الاختبار والتجربة، وهو افتعال من مَحَنَهُ إذا اختبره، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة، كقولهم: اضطره إلى كذا.

واللام في قوله ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ لام العلة، والتقدير: امتحن قلوبهم لأجل التقوى، أي لتكون فيها التقوى، أي ليكونوا أتقياء[2].

إن هذا المنهج الذي تربى عليه الصدر الأول هو الذي ارتقى بهم إلى المكانة التي تبوَّءُوها في التعامل الإنساني؛ سواء مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو مع غيره، إنه المنهج الرباني الذي من اتبعه سار في درب الهداية والتوفيق.

٤) تأنيب الذين نادوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وراء الحجرات:

وبعد نهي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن رفع الصوت والجهر به في حضرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وثنائه على الذين يغضُّون أصواتهم في حضرته إجلالًا واحترامًا؛ قابل ذلك بتأنيب من خالَف هذا المنهج القويم والأدب الرفيع، ولم يعرف كيف يتأدب في خطابه مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. بل وصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء بأنهم جاهلون لا يعقلون، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

وسبب نزول هذه الآية الكريمة أن ناسًا أتوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجعلوا ينادونه وهو في الحجرة: يا محمد يا محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية[3].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (٢١/ ٣٤٣).
(٢) يُنظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٦).
(٣) يُنظر: أسباب نزول القرآن، للواحدي (٤٠٣) وما بعدها.

وبيَّن الحق تبارك وتعالى لهؤلاء النفر ما هو أوْلَى من تصرفهم هذا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، فإن هذا يكسبهم وقارًا بين أهل المدينة، ويستدعي لهم الإقبال من الرسول ﷺ، إذ يخرج إليهم غير كاره لندائهم إياه، ورفع أصواتهم في مسجده فكان فيما فعلوه جلافة[1].

ومن ذلك كله يؤخذ أن هذه الآداب التي ينبغي أن يتأدب بها المسلم أمام المربي والقدوة للإنسانية جمعاء، فإنه كذلك ينبغي أيضًا أن يتأدب بها أمام المُربِّين والأساتذة والعلماء؛ فإن العلماء ورثة الأنبياء، فيجب احترامهم وإجلالهم، ويجب أن يُنزَل الناس منازلهم، فلا يكون الحديث معهم كالحديث بين الأقران والأصدقاء، فهذا هو المنهج القرآني في التعامل الإنساني، كما أنه هو منهج السلف الصالح، منذ زمن الصحابة رضوان الله عليهم[2].

❋ ❋ ❋

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية، للعمر (١١٢).

المبحث الثاني

منهج التعامل الإنساني

الإنسان مدني بطبعه، فقد جعل الله تعالى في فطرته ضرورة التعامل مع الآخر والاحتياج إليه، لكي تتكامل الحياة الإنسانية، ولذلك فإن الإنسان لا يستطيع العيش منفردًا، فلا بد أن يعيش في مجتمع، ومن خلاله يتعامل مع غيره في شتى أنواع مجالات الحياة، والمجتمعات الإنسانية تتنوع وتختلف في المعتقدات والأفكار، وطرق العيش، كتنوع الأعراق والألسن والألوان، ولا مفرَّ للإنسان عن التعامل مع هذه الأصناف المختلفة، وقد وضع القرآن الكريم المنهج القويم للتعامل الإنساني، بوضع الأسس والقواعد المؤطرة لذلك، وسنتناول من خلال هذا المبحث ما ورد في سورة الحجرات في هذا الإطار.

❊ ❊ ❊

المطلب الأول

منهج التعامل في ظِلال الوَحدة الإنسانية العامة

الرؤية القرآنية تجعل التنوع والتعدد سنة من سنن الله في هذا الكون، فالتعددية هي «القانون الإلهي، والسنة الإلهية الأزلية الأبدية في ميادين الكون المادي، والاجتماع الإنساني، وشؤون العمران وميادينه، وبهما تتميز عوالم الخلق المتعددة عن ذات الحق الواحدة»(١).

ومن ذلك تنوع الإنسانية إلى ذكر وأنثى، وشعوب وقبائل، يقول الله تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فقد أشار القرآن الكريم إلى ميادين حكمت فيها السنة الإلهية بالتنوع والتعدد في إطار الوَحدة، فمنها أن الله تعالى اقتضت حكمته أن يكون من مظاهر الوَحدة الإنسانية هو خلقهم من ذكر وأنثى، ﴿إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ أي: من آدم وحواء، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم(٢). والمعنى: يا أيها الناس إنا خلقناكم من رجل وامرأة، فكل واحد منكم إنسان مولود من إنسانية، لا تفترقون من هذه الجهة، والاختلاف الحاصل بالشعوب والقبائل - وهو اختلاف حاصل بالجعل الإلهي - ليس لكرامة وفضيلة، وإنما هو لتتعارفوا، فيتم بذلك اجتماعكم.

تنوّع الإنسانية للتعارف والتعاون:

والقرآن الكريم إذ يقرر هذا التنوع والتعدد ويبين الحكمة من ذلك؛ فإنه يدعو

(١) هل الإسلام هو الحل، لعمارة (٥٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٨٥). والكشاف، للزمخشري (٤/ ٣٧٧).

إلى توظيف ذلك في إقامة علاقات التعارف بين بني الإنسان، وذلك مدعاة إلى التفاعل والتكامل، فمنطوق قوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ يجعل التعارف بين أبناء بني آدم من أسمى الأهداف للحياة الإنسانية، ذلك أن التعارف إذا تم على الوجه الذي ينشده الحق ويتطلبه الكمال الإنساني؛ فإنه يحقق معاني الحياة الكريمة، فيتم تبادل المنافع بين الشعوب، فتأتلف، وتشيع بين الناس معاني الإخاء والتعاون(١).

يقول العقاد: «فالتعدد في الأمم وسيلة للتعارف والتعاون، وليس بوسيلة للادعاء والتنابذ والتعصب للأجناس والتعالي بالعصبيات»(٢).

فالقرآن الكريم وضع الإنسان في موضعه الصحيح، حين جعل تقسيمه إلى ذكر وأنثى، وأنه ينتمي بشعوبه وقبائله إلى الأسرة الإنسانية التي لا تفاضل بين الإخوة فيها بغير العمل الصالح، وبغير التقوى.

مقياس التفاضل الإنساني:

إن القرآن الكريم حين أعلن المساواة الإنسانية في الآية السابقة؛ فإنه جعل مجالًا لتفاضلها عندما قال بعد ذلك في الآية ذاتها ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾. «والمراد بالأكرم: الأنفس والأشرف، والأتقى: الأفضل في التقوى»(٣)؛ ففتح بذلك مجال التنافس والتفاضل في القيم العليا التي يستطيع الإنسان أن يحققها ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]؛ أي الرغبة في التنافس إلى طاعة الله(٤).

قال ابن عاشور: «لأنهم لما تساووا في أصل الخلقة من أب واحد وأم واحدة،

(١) أهداف الإسلام في توجيه الإنسان، لرفاعي (٣٣٩).
(٢) المجموعة الكاملة، للعقاد (٧/ ٤٦).
(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني (٥٥٧).

كان الشأن أن لا يفضل بعضهم بعضًا إلا بالكمال النفساني، وهو الكمال الذي يرضاه الله لهم، والذي جعل التقوى وسيلته، ولذلك ناط التفاضل بالكرم بـ(عند الله) إذ لا اعتداد بكرم لا يعبأ الله به»[1].

وكما نلاحظ من هذا المعيار الذي أقره القرآن للتفاضل وسمح به في ظِلّ الإنسانية، فإن هذا المعيار يرتبط برباط اتصال الإنسان بخالقه، وليس له أي مرد إلى أصل الكيان الإنساني ومجال التكريم، «وفي هذا المعيار في التفاضل تبدو الصلة بالله هي الصلة الوحيدة التي تسمح بأن يتفاضل الناس على أساسها، فالتفاضل ليس مرده إلى الناس، بل مرده إلى الله عَزَّوَجَلَّ»[2].

فالتقوى الواردة في الآية والتي جعلها القرآن الكريم مجالًا للتفاضل هي كما قال عفيف طبارة: «فضيلة أراد بها القرآن إحسان الصلة ما بين الإنسان والخلق، وإحسان الصلة ما بين الإنسان وخالقه... والمراد أن يتقي الإنسان ما يغضب ربه، وما فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره»[3].

❊ ❊ ❊

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٦/ ٢١٨).
(٢) أصول المجتمع الإسلامي، لجمال الدين محمد (١٠٩).
(٣) روح الدين الإسلامي، لطبارة (٢٨٣).

المطلب الثاني

منهج التعامل في ظِلال المجتمعات الإنسانية

حوت سورة الحجرات منهجًا أنموذجيًا في التعاملات في الحياة اليومية للمجتمعات الإنسانية، ذلك بأنها شملت عدة وصايا؛ تنوعت بين الأوامر والنواهي، والمتأمل في هذه الوصايا يجدها تنصب في تجنب أمراض نفسية لها ضرر بالمجتمعات الإنسانية، أراد القرآن الكريم من خلال هذه الوصايا التحذير من الآفات التي قد تصيب النفس البشرية وتؤثر في العلاقات الإنسانية، فـ«المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدي القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس، وهي من كرامة المجموع»[(١)].

أولًا: الأوامر:

الأوامر الإلهية حكمها الوجوب ما لم تصرفه قرينة كما هو مقرر عند العلماء، والقرآن الكريم أنزله الله ليس للتلاوة فحسب؛ وإنما للتطبيق والعمل، لأنه منهج حياة للإنسانية، وقد ورد في سورة الحجرات أوامر تُعد من الضروريات، لأنها أساس التعامل والتعايش الإنساني، وبفقدها لا مجال للعيش والتعايش، وهذه الأوامر قواعد مهمة في حياة المجتمعات التي تنشد الحياة الآمنة المستقرة، التي تسودها المحبة والألفة والمودة، ويغمرها الإخاء والصفاء والنقاء، وهذه القواعد هي:

١- التبيّن في الأخبار:

قبول الأخبار الكاذبة دون تبيّن من أمرها من الأسباب الرئيسة في تفرق الناس

(١) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٤٤).

وتباغضهم؛ لذا جاء التوجيه القرآني بالمنهج الصحيح حين تلقي أي خبر من الأخبار، خاصة الأخبار مجهولة المصدر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦].

ذكر الواحدي أن هذه الآية الكريمة نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعثه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إلى بني المصطلق ليجمع الصدقات، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم تلقوه تعظيمًا لله تعالى ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فحدّثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وهمّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله تعالى، فبدا له في الرجوع، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ من غضب الله وغضب رسوله. فأنزل الله تعالى هذه الآية[(١)].

يقول الفخر الرازي معقبًا على أسباب نزول هذه الآية الكريمة: «بل نقول هو نزل عامًا لبيان التثبت، وترك الاعتماد على قول الفاسق»[(٢)]. وهو يقصد بذلك أن سبب نزول هذه الآية عام في خبر الفاسق، وليس إطلاق الفاسق خاصًا بالوليد؛ لأنه اجتهد فأخطأ، ولا يُسمى بسبب ذلك فاسقًا على الحقيقة، فأكثر المفسرين على أن الوليد كان ثقة عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فصار فاسقًا بكذبه، أي كاذبًا، ونقل القرطبي عن ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله: الفاسق الكاذب[(٣)]،

(١) أسباب نزول القرآن، للواحدي (٤٠٧).
(٢) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ٩٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨/ ٢٨٣).

والظاهر أنه سمي فاسقًا تنفيرًا وزجرًا عن الاستعجال في الأمر من غير تثبت، فهو متأول ومجتهد، وليس فاسقًا على الحقيقة(١).

وعلى العموم فإن مدلول الآية عام، وهو يتضمن منهج التمحيص والتثبت من خبر الفاسق، فأما الصالح فيؤخذ بخبره؛ فهذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، ولا بد من التبيّن والتثبت، وفي خبر الفاسق أوكد، والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت، لأنه أحد مصادره(٢).

وقد كثر كلام العلماء حول قصة نزول هذه الآية الكريمة والوليد بن عقبة وعدالة المُخبر والشاهد بما لا مجال للخوض في ذلك، فالذي يعنينا هو المنهج الذي ينبغي أن نتبعه في تلقي الأخبار والتعامل معها. فإن الطبيعة البشرية دائمًا في عجل من أمرها ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، فالنفس البشرية تتلقى الأخبار الجديدة بالقبول والتأثر، وبمجرد سماع الخبر ينطلق الفكر إلى ردة فعل معاكسة، دون وعي أو تفكر في العواقب، وللشيطان نصيب في حث الإنسان على ذلك، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**التَّأَنِّي مِنَ اللهِ، وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**»(٣).

والخطاب القرآني هنا بهذه الصيغة يومئ إلى أمر مهم جدًّا، وهو ضرورة التبيّن والتثبت من الخبر قبل اتخاذ القرار؛ لأن القرار يجب أن يُبنى على حقائق، وليس على شيء لم يتبيّن صوابه من خطئه؛ ولذلك جاء الخطاب القرآني ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾، ولم يقل: إن جاءكم خبر أو جاءكم مُخبر بنبأ، ولوصف المُخبر بالفسق دلالة واضحة؛ وهي أن الذي يتعمد حمل الخبر المغلوط دون تفكر في

---

(١) التفسير المنير، للزحيلي (٢٦/ ٢٢٧).

(٢) التفسير التربوي للقرآن الكريم، للباز (٣/ ٣٢٠).

(٣) سنن البيهقي الكبرى، للبيهقي، رقم الحديث (٢٠٠٥٧) باب التثبت في الحكم (١٠/ ١٠٤).

عاقبة ما سيؤول إليه الأمر هو فاسق؛ لأنه بمثابة من أطلق قنبلة موقوتة، قد تنفجر في أي لحظة، ويكون أثرها المادي والمعنوي جسيمًا. فكم من حروب أوقدت بسبب الأخبار الكاذبة، كان أثرها سفك الدماء وتشريد الشعوب، وإثارة الفتن والبغضاء والكراهية، وكم من أرحام قُطعت بسبب وشاية مغرضة كاذبة.

وفي القراءتين ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ و﴿فتثبَّتوا﴾ تأكيد لمعنى التأكد والاحتياط في قبول الأخبار؛ فقد قرأ الجمهور: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ بفوقية فموحدة فتحتية فنون، من البيان. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿فتثبَّتوا﴾ بفوقية فمثلثة فموحدة ففوقية، من الثبت[(١)].

* **التبيين**: تطلُّب البيان وهو ظهور الأمر.
* **التثبت**: التحري وتطلُّب الثبات وهو الصدق.

ومآل القراءتين واحد وإن اختلف معناهما، وهو الأمر بالتأني وعدم العجلة حتى تظهر الحقيقة فيما أنبأ به الفاسق[(٢)].

فتبيَّنُوا كراهة أن تصيبوا قومًا بخطأ فتصبحوا نادمين على ما فعلتم. فلو أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمل بقول الوليد بن عقبة، لغزا بني المصطلق، وسفك الدماء، وأخذ الأموال بغير حق، فالله يرشد عباده إلى هذا الأدب، ويحذرهم من العمل بالخبر قبل الكشف عنه والتثبت منه[(٣)].

يقول صاحب الظِّلال: «ويُخصّص الفاسق لأنه مظنة الكذب، وحتى لا يشيع

---

(١) القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة، لشرف (٥١٦)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨/ ٢٨٣).
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٧/ ٤١١).
(٣) التفسير الواضح، للحجازي (٣/ ٥٠٣).

الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها، فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذًا بها، فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره، وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطًا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء، ولا تعجل الجماعة في تصرف بناءً على خبر فاسق، فتصيب قومًا بظلم عن جهالة وتسرع، فتندم على ارتكابها ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل في اندفاع»[1].

والتعبير بكلمة (إنْ) في قوله ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ التي هي للشك؛ للإشارة إلى أن الغالب في المؤمن أن يكون نبيهًا يقظًا، يستطيع أن يفهم ويدرك المغازي، وما تؤول إليه الأمور، وما يترتب عليها، لذا لا يأتيهم كاذب يكذب عليه، وإن حصل فلا يكون إلا نادرًا[2].

«إن من يتأمل في واقع الناس اليوم، وينظر في الكم الهائل من الأخبار التي نسمعها في كل يوم، ويرى الاختلاف والتباين بين مصادر هذه الأخبار، يدرك عظمة هذا الدين، وسمو هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام، وأمر به القرآن، وحفظته السنة، وحفظت به السنة»[3].

ولذلك يقول سيد قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]: «التثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق»[4].

---

(١) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٤١).
(٢) تفسير آيات الأحكام، للسايس، وآخرون (٤/ ٤٦٠).
(٣) سورة الأحزاب دراسة تحليلية وموضوعية، للعمر (١٧٦).
(٤) في ظلال القرآن، لقطب (٤/ ٢٢٢٧).

إن هذا المنهج الرباني المحكم تظهر أهميته في واقعنا المعاصر اليوم، مع انتشار وسائل التواصل، التي تحمل الكثير من الأخبار المتنوعة ذات المصادر المختلفة؛ وكمثال بسيط ما يتناقله الناس على برنامج (الواتساب) من رسائل – الله أعلم بصحتها – فيعمد بعض الناس بمجرد حصوله على خبر؛ ما يلبث أن ينشره في المجموعات أو للأفراد، دون تثبت من صحته، ثم يتضح أن الخبر كاذب.

إن مثل هذا العمل له آثاره السلبية في أوساط المجتمعات الإنسانية، فقد يترتب عليه أحقاد وعداوات على مستوى المجتمعات والأفراد، فحري بالإنسان أن يتمسك بالمنهج القرآني قبل أن ينقل أي خبر كان، خاصة ونحن نملك – في عالمنا اليوم – إمكانات ووسائل التثبت السريع التي تمكننا من الوصول إلى مصادر الأخبار بسرعة فائقة.

٢ – الصلح بين المتخاصمين:

قد يترتب على عدم التثبت من الأخبار الكاذبة اتخاذ مواقف متضادة ينتج عنها خصام وشجار وقتال، وقد يكون ذلك ليس قصدًا، ولكن سوء فهم يحدث للناس، سواء على المستوى الفردي أو الطائفي، وقد يدخل الشيطان بين الناس فيُحدث بينهم الفرقة والخصام، والتنازع والاقتتال، وقد تأخذ الناس الحمية الجاهلية فيتعصبون لطائفتهم دون التحقق من سبب النزاع والشقاق، وهذا حاصل كثيرًا في المجتمعات الإنسانية، لذا أتبع القرآن الكريم هذا المنهج الكريم في التعامل في مثل هذه المواقف، فلو حصل اقتتال بين طائفتين من المؤمنين، فإنه يتعين على الآخرين أن يقوموا بواجب الصلح، وإن أبت إحدى الطائفتين وبغت على الأخرى وتعذر الصلح؛ فيجب الوقوف بجانب الطائفة المبغي عليها، من باب نصرة المظلوم وكف الظالم عن الظلم، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ [الحجرات: ٩].

وقد روى أنس بن مالك - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما في الصحيحين - في سبب نزول هذه الآية الكريمة قال: قيل للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وركب حمارًا، فانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطيب ريحًا منك. فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتمه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال(١).

وانطلاقًا من قاعدة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»؛ فإن إصلاح ذات البين في أي قضية كانت مطلوب، وهو منهج إسلامي رصين، قرَّره الشرع الحنيف، وحث عليه، بل جعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ درجته أعلى من درجة كثير من الأعمال التعبدية، فعن أَبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ**». قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ**»(٢).

والصلح في الأساس كما هو في لغة العرب اسم من المصالحة، وهي المسالمة بعد المنازعة(٣)؛ لذلك فإن «إصلاح ذاتِ البين لا يأتي إلا بالخير، ففيه تأليفٌ بين القلوب وتقويةٌ للروابط ودفعٌ للشحناء، وبه تسكن النفوس، ويزول الخلاف

---

(١) صحيح البخاري، للبخاري، حديث رقم (٢٥٤٥) باب: ما جاء في الإصلاح بين الناس (٢/ ٩٥٨). وصحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، رقم الحديث (٤٧٦٢) (٥/ ١٨٣).

(٢) صحيح ابن حبان، لابن حبان، كتاب الصلح، رقم الحديث (٥٠٩٢) (١١/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: كتاب التعريفات، للجرجاني (١٣٤).

وتذهَب الفرقة، لذا دعانا الله تعالى إليه وأمرنا به»[1].

والتعبير بـ (إنْ) في قوله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩] فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقع قتال بين المسلمين، وإن وقع فإنه نادر[2]، وذكر القرآن الكريم الطائفة، وهي الجماعة من الناس، الذين يجمعهم رأي أو مذهب يمتازون به عن سواهم، وقد تُطلق على الواحد فصاعدًا[3].

وإن نظرةً إلى واقعنا المعاصر شاهد على أحوال المسلمين اليوم، من اقتتال وتفرق، فما أحوجنا إلى أن نتأمل ونتدبر ما يوجه إليه كتابنا الماثل بين أيدينا، ويدعونا إليه، ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى تطبيق هذا المنهج القرآني إذا أردنا الفلاح والنجاح في الحال والمآل، إننا نعيش زمن التفرق والانقسام، والتكاره والتباغض، بل الاقتتال البغيض، الذي ينطلق من فكر الطائفية والعرقية، فيا أمة الإسلام أفيقي واستفيقي من هذه الغفلة، فسبيل خلاصنا هو المنهج القرآني، الذي أنزله رب العزة والجلال لنطبقه في حياتنا.

٣- العدل والقسط:

وتبعًا لمنهج الصلح بين المتخاصمين السابق ذكره فإن المنهج القرآني يؤكد أن هذا الصلح يجب أن يكون عادلًا لكلا الطرفين. يقول الله تعالى في الآية السابقة: ﴿... فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

أمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بعد أمره بالإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين بالقسط، وهو العدل الذي لا تقوم المجتمعات ولا تستقر إلا به، والعدل هو: وضع الشيء

(١) الوصايا التسع في سورة الحجرات في التعامل مع الناس، لزغرب (٢٦).
(٢) تفسير آيات الأحكام، للسايس (٤/ ٤٦٦).
(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه، للدرويش (٧/ ٢٥١).

في موضعه الصحيح؛ بإعطاء كل ذي حق حقه، من غير تفرقة، وعلى قدم المساواة.

وأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعدل مطلقًا في جميع الأحوال وفي جميع الأمور؛ فهو مطلوب من الحاكم مع رعيته، ومن الرعية مع الحاكم، مع الأب تجاه أبنائه، ومن الرجل مع زوجاته، ومن المعلم مع طلابه، وهكذا، والعدل في الإسلام عدل مطلق كما ذكرنا، حتى إنه مطلوب مع العدو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: ٨]، بل إنه مطلوب من الإنسان مع نفسه.

ولم يكتف المنهج القرآني بالأمر بالعدل فحسب؛ بل أكد على قضية القسط، وهذا تأكيد على أهمية العدل بين الفئات المتنازعة، فمعنى ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] أي: اعدلوا إن الله يحب العادلين، فـ ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ﴾ من «أَقْسَطَ» الرباعيّ، بخلاف «قَسَطَ» الثلاثيّ الذي معناه الجَوْر، يُقال: قَسَط الرجل؛ إذا جار، وأقْسَط؛ إذا عدَل.

قال ابن منظور: المُقسِط: هو العادل. يقال: أقسَط يُقسِط فهو مُقسِط إذا عدل، وقَسَطَ يُقسِط، فهو قاسط إذا جار[(١)].

- **فأصل كلمة القِسْط تأتي بمعنيين[(٢)]:**

الأول: بمعنى العدل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] فهي تعني في الآية اعدلوا إن الله يحب العادلين[(٣)]، وبهذا المعنى

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة (قسط) (١١/ ١٥٩).
(٢) يُنظر: الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، للدامغاني (٣٨٥).
(٣) يُنظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٨/ ٢٨٧).

يكون أصل الكلمة مأخوذًا من الفعل الرباعي أقسط واسم الفاعل منه مقسط.

الثاني: بمعنى الجور والميل عن الحق، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٥] أي الجائرون الظالمون المائلون عن الحق. وعلى هذا فهي مأخوذة من الفعل الثلاثي «قَسَط» واسم الفاعل منه «قاسِط» أي بمعنى ظالِم وجائِر.

ولذلك قال الفخر الرازي: «الإقساط إزالة القسط وهو الجور والقاسط هو الجائر»[(١)].

كما أن المنهج القرآني في هذا الجانب منهج مُحكم ودقيق، ذلك أن ذكر العدل والقسط في الإصلاح بعد فيْئَة الفِئَة الباغية، فيه إشارة إلى أن الطائفة المغلوبة مظنة أن تتعرض إلى ظلم، وكأن المنطوق القرآني يقول: لا يحملنكم قهركم إياهم على ظلمهم[(٢)].

٤- اجتناب الظن السيئ:

سوء الظن بالآخرين مرض نفسي، يُبتلى به بعض بني الإنسان، وهو عادة سيئة، نهى عنها القرآن الكريم، وأرشد إلى المنهج الصحيح عند الابتلاء بهذه الظاهرة السيئة، والظن في لغة العرب من ظنَّ الشَّيء ظنًّا؛ علمه بغير يقين، وقد تأتي بمعنى اليقين.

الظِّنة: التهمة[(٣)].

والتحذير هنا من الظن السيئ، الذي هو غير متيقن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا

(١) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٢٨/ ١٠٦).
(٢) تفسير آيات الأحكام، للسايس (٤/ ٤٦٩).
(٣) يُنظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (ظنَّ) (٨/ ٢٧٢،٢٧١).

﴿مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات:١٢]، ولذلك نلحظ هذا الأسلوب الرائع من القرآن الكريم في نهيه عن هذا الأمر؛ فإنه لم يقل: اجتنبوا الظن، وإنما قال: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ لأن الظن قد يكون حسنًا وقد يكون سيئًا، لكن الغالب بين الناس هو الظن السيئ.

والسرّ في ذلك كما يقول الدرويش: «للإيذان بأن في الظنون ما يجب أن يُجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين؛ لئلا يجترئ أحد على ظن إلا بعد تأمل وبُعد نظر وتمحيص واستشعار للتقوى»[١].

والظن السيئ هو أن يسيء الإنسان بغيره، يقول الماوردي: «سوء الظن هو عدم الثقة بمن هو لها أهل»[٢].

وقال ابن القيم: «سوء الظن: هو امتلاء القلب بالظنون السيئة بالناس؛ حتى يطفح على اللسان والجوارح»[٣].

وقال ابن كثير: «سوء الظن هو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله»[٤].

ولذلك اعتبر النبي ﷺ الظن أكذب الحديث، حيث قال فيما رواه أبو هريرة: «**إياكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث**»[٥].

وبما أن الظن قد يحدث في نفس الإنسان؛ فقد كان المنهج النبوي تجنيب

---

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه، للدرويش (٧/ ٢٥٨).

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي (٦/ ١٨٦).

(٣) الروح، لابن قيّم الجوزية (٢٣٨) بتصرف.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٧٧) بتصرف.

(٥) صحيح البخاري، للبخاري، رقم الحديث (٥٧١٧) باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٥/ ٢٢٥٣). وصحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٦٧٠١)، باب: تحريم الظن والتجسس (٨/ ١٠).

أصحابه أن يقعوا في ذلك، مخافة أن يقعوا في سوء الظن الذي يؤدي بهم إلى المعصية، وهذا من شفقته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه، فعن صفية بنت حُيَيّ قالت: **«كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معتكفًا، فأتيته أزوره ليلًا، فحدَّثتُه، ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسرعا، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: على رسلكما، إنها صفية بنت حُيَيّ. فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا أو قال: شيئًا»**[(١)].

قال النووي: «الحديث فيه فوائد: منها بيان كمال شفقته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أُمَّته، ومراعاته لمصالحهم، وصيانة قلوبهم وجوارحهم، وكان بالمؤمنين رحيمًا؛ فخاف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُلقي الشيطان في قلوبهما فيهلكا؛ فإنَّ ظنَّ السوء بالأنبياء كُفْر بالإجماع، والكبائر غير جائزة عليهم، وفيه أنَّ من ظنَّ شيئًا من نحو هذا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَر. وفيه استحباب التحرز من التعرض لسوء ظن الناس في الإنسان، وطلب السلامة، والاعتذار بالأعذار الصحيحة، وأنه متى فعل ما قد ينكر ظاهره مما هو حق، وقد يخفى أن يبين حاله ليدفع ظنَّ السوء»[(٢)].

إن الإسلام بهذا المنهج يريد أن يتحلى الإنسان بنقاء القلب وصفاء الروح؛ فإن الذي يتعود أن يسيء الظن بالآخرين يقع في كثير من الأمور المحذورة: منها عدم الثقة في الآخرين، مما يفقده جدية التعامل معهم، بل يجد نفورًا منهم في التعامل معه، هذا بالإضافة إلى ما يُحدثه سوء الظن من عدم تعاون بين أفراد المجتمع عندما يفقد بعضهم الثقة في بعض.

---

(١) صحيح البخاري، للبخاري، رقم الحديث (٣١٠٧) باب: صفة إبليس وجنوده (٣/ ١١٩٥). وصحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٥٨٠٨) باب: بيان أنه يستحب ... (٧/ ٨).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي (١٤/ ١٥٦).

ثانيًا: النواهي:

كما هو الحال في وجوب تنفيذ أوامر الله تعالى، فإن الحال كذلك في وجوب امتثال النواهي التي نهى الله عنها، ولو التزم المسلمون بهذا الأمر لكانت المجتمعات الإنسانية طاهرة من الآفات الاجتماعية الخطيرة التي تئن الأمم تحت وطأتها، لما يشهده العالم من تفتت وضياع بسبب وقوعهم فيما نهى الله عنه وحذَّرهم منه، وهذه القواعد هي:

١- عدم السخرية من الآخر:

السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء(١).

وقد نهى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن السخرية بالآخرين؛ لما له من أثر على العلاقات الإنسانية؛ أفرادًا وجماعات، فالساخر من الآخرين والمتعالي عليهم بعلمه أو ماله أو جاهه؛ أو غيرها من الأمور المادية يرى من نفسه أنه فوق الآخرين، ونسي أن من يسخر منهم قد يفوقونه في جوانب أخرى تفوق ما عنده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١].

روي عن أنس أنه قال: نزلت في نساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عيَّرن أم سلمة بالقِصَرِ، وقال عكرمة عن ابن عباس إن صفية بنت حييّ بن أخطب أتت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فقالت: يا رسول الله؛ إن النساء يعيرنني، ويقلن: يا يهودية بنت يهوديين، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**هلا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي**

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٣/ ١٣١).

موسى، وإن زوجي محمد»، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

إن السخرية بالآخرين هو نيل من كرامتهم، واستخفاف بإنسانيتهم، وخوض في أعراضهم، والإنسان مخلوق مُكرَّم عند الله تعالى، فهو الذي خلَقه وسوَّاه، وكرَّمه، وعندما يسخر إنسان من إنسان؛ فإنه يستخفّ بكل هذه الموازين والخصائص التي حظي بها الإنسان من خالقه جَلَّجَلَالُهُ، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»[٢].

فالرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث الشريف يُحذِّر من تسوِّل له نفسه التعدي على حرمات الآخرين، ولذلك قام إجماع المسلمين على تحريم وتجريم هذا الأمر.

قال ابن حجر: «وقد قام الإجماع على تحريم ذلك»[٣].

أي: الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين بخَلقهم أو خُلقهم؛ لما يُحدثه من أثر سيئ تجاه المجتمعات، «وهكذا ينبغي لكل مجتمع يريد السلامة والرقي والتقدم أن يكون حريصًا على التآخي والتعاون بعيدًا عن كل ما يؤثر سلبًا على المجتمع، ومن أشدّ ذلك وأخطرِه مرضُ الاستهزاء والسخرية، فهو يثير الأحقاد، ويدعو للمخْيلةِ والاحتقار، ويسبب الفرقة والاختلاف، ويورث العداوة والبغضاء، ويوهن بناء المجتمع القوي المتماسك. لقد نهى الله عن الاستهزاء والسخرية لأنها رذيلة من أخس رذائل البشر، وصفةٌ من أقبح صفات هذا الخلق الذميم،

(١) أسباب نزول القرآن، للواحدي (٩٤-٩٥).
(٢) صحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٦٧٠٦) باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٨/ ١٠).
(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر، ج٢، ص٣٣.

يدل على خسة صاحبه ولؤم طبعه وفساد نشأته وانحطاط مستواه. والاستهزاء قد يكون بنظرة أو كلمة أو إشارة أو محاكاة أو غمز أو همز أو لمز، ومرد ذلك كله إلى القلب، فإذا انعقد على شيء من ذلك وقع المحذور»[(١)].

٢- عدم لمز الآخرين:

اللَّمْزُ: الطعن والضرب باللسان.[(٢)]

وأعظم اللمز إذا كان ذلك بسبب خِلقة خُلق عليها، أو أمر لا حيلة للمرء فيه: كالفقر، والدمامة، والقصر، فهذا من الله، وعيب الإنسان بذلك سوء أدب مع الله، واعتراض على خلقه وقدره.

ولا ينشأ اللمز إلا من مرض الاحتقار، فإذا احتقر المسلم أخاه لَمَزه، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه**»[(٣)].

والمنهج القرآني لم يكتف بتحريم اللمز فحسب؛ بل جعل لمز الإنسان لأخيه الإنسان لمزًا لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]؛ لأن لكل فرد في المجتمع كرامته التي لا تمسّ، وهي من كرامة المجموع، ولمز أي فرد هو لمز للنفس، لأن الجماعة كلها وَحدة واحدة، فكرامتها واحدة[(٤)].

---

(١) الوصايا التسع في سورة الحجرات في التعامل مع الناس، لزغرب (٤٧).
(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه، للدرويش (٧/ ٢٥٢).
(٣) صحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٦٧٠٦) باب: تحريم ظلم المسلم... (٨/ ١٠).
(٤) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٢٢٤٤).

«فالقرآن الكريم يؤسس لقواعد اللياقة الاجتماعية والأدب النفسي للتعامل في المجتمع الإنساني، فالمجتمع الفاضل من وجهة النظر القرآنية لا بد وأن يقوم على أسس من الأدبيات الذوقية التي ينبغي أن تحكم العلاقات السائدة بين أبنائه، إنه المجتمع الذي يترفَّع أبناؤه عن الهمز واللمز والسخرية، ويكون الأدب هو الخُلُق الذي يحكم تعاملهم، فيما بينهم»[(١)].

٣- عدم التنابز بالألقاب:

التَّنابُزُ: التَّدَاعِي بالأَلْقاب، وهو يكثر فيما كان ذمًّا.

وتَنابَزوا بالألقاب: أي لقَّبَ بعضهم بعضًا[(٢)].

وقد نهى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن ذلك في هذه السورة الكريمة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ [الحجرات: ١١].

والألقاب جمع لقب، وهو اسم غير الذي سمي به الإنسان، والمراد هنا: لقب السُّوء[(٣)]، وهو منافٍ للاحترام المتبادل بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتعديًا على الحقوق المتبادلة بينهما، فمن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به، ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه بمثل هذا[(٤)].

إن من طبع الإنسان أنه يكره إطلاق لقب قبيح عليه، ولكن قد يُطلق عليه اللقب في موقف معيَّن أو بدون قصد، فيُصبح معروفًا بذلك اللقب، وإذا كان هذا

---

(١) أدب المعاملة واثره في بناء العلاقات الإنسانية من منظور قرآني، لعودة (٣٢٠).

(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادة (نبز)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، مادة (نبز) (٣/ ٨٩٧).

(٣) فتح القدير، للشوكاني (٥/ ٩١).

(٤) في ظلال القرآن، لقطب (٦/ ٣٣٤٤).

اللقب معيبًا ولا يرتضيه الإنسان فلا يجوز مناداته به؛ لأنه محل سخرية واستهزاء به؛ لذا حرّمه الإسلام ونهى عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾، عن أبي جبير بن الضحاك قال: قدم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحدًا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فنزلت(١).

ومن الطبيعي أن يغضب الإنسان من مناداته بلقب سيئ لا يرتضيه ولا يستسيغه، لما فيه من منقصة وتنقص.

فقوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ **أي:** لا تتداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها(٢).

قال السعدي في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ «أي: لا يعيِّر أحدكم أخاه، ويُلقِّبه بلقب ذمٍّ يكره أن يُطلق عليه»(٣). وقد توعَّد الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة أخرى - من يتصف بهذه الصفة الذميمة (أي صفة اللمز)، قال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ [الهمزة: ١] وكلمة «ويل» تحمل الوعيد، والوبال، وشدّة العذاب لكل من همَزَ ولمَزَ غيره بفعله أو قوله.

٤- عدم التجسس:

التجسس: البحث عن العورات والمعايب، وكشف ما ستره الناس(٤). وهو مأخوذ من الجَسِّ، وهو من جَسِّ الخبر، ومعناه: بحث عنه وفحص، والتَّجَسُّسُ التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشرِّ، والجاسُوسُ: العين يَتَجَسَّسُ

(١) لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي (١٨٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٧/ ٣٧٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (١/ ٨٠١).
(٤) التفسير المنير، للزحيلي (٢٦/ ٢٤٧).

الأخبار ثم يأتي بها[١]؛ لذلك نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن هذا الأمر السلبي، الذي يتعارض مع الثقة في التعامل الإنساني، ويؤدي إلى التباغض والتكاره، وقد جاء النهي عنه صريحًا في هذه السورة الكريمة: ﴿إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره يبتغي بذلك الظهور على عيوبه[٢].

وقد نهى عنه أيضًا رسولنا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، حيث قال في الحديث الذي رواه أبو هريرة: «**إيَّاكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذب الحديث، ولا تحسَّسُوا، ولا تجسَّسُوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[٣].

فهذه أمراض إن تفشّت في المجتمع فكّكت أوصاله، وأفسدت أركانه، ولم تعُد هناك ثقة بين بني الإنسان بعضهم في بعض، فعن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»[٤].

يقول المناوي: «(إن الأمير إذا ابتغى الريبة) أي: طلب الريبة، أي: التهمة في الناس بنية فضائحهم، أفسدهم وما أمهلهم، وجاهرهم بسوء الظن فيها، فيؤديهم ذلك إلى ارتكاب ما ظنَّ بهم ورموا به ففسدوا. ومقصود الحديث: حثُّ الإمام على التغافل، وعدم تتبع العورات، فإنَّه بذلك يقوم النظام، ويحصل الانتظام، والإنسان قلَّ ما يسلم من عيبه، فلو عاملهم بكلِّ ما قالوه أو فعلوه اشتدت عليهم

---

(١) يُنظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (جس) (٢/ ٢٨٣). وتاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، مادة (جس) (١٦/ ٤٩٩). وتهذيب اللغة، للأزهري، مادة (جس) (١٠/ ٢٤٢).

(٢) تفسير المراغي، للمراغي (٩/ ٢٥١).

(٣) صحيح البخاري، للبخاري، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٥/ ٢٢٥٣). وصحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٦٧٠١)، باب: تحريم الظن والتجسس (٨/ ١٠).

(٤) سنن أبي داود، لأبي داود، رقم الحديث (٤٨٨٩)، باب في النهي عن التجسس،(٤/ ٢٧٢)، والمستدرك على الصحيحين، للحاكم، رقم الحديث (٨١٣٧)، كتاب الحدود (٤/ ٤١٩).

الأوجاع، واتسع المجال، بل يستر عيوبهم، ويتغافل، ويصفح، ولا يتبع عوراتهم، ولا يتجسس عليهم»[(١)].

إننا في عصر التقنية الحديثة امتلكنا وسائل متقدمة ومُيسَّرة، يستطيع بها الإنسان التجسّس بكل سهولة ويسر، فليحذر الإنسان من أن تغُرَّه هذه الوسائل، فيعمد إلى استخدامها في التجسس على الآخرين دون تفكر في عواقبها ونتائجها.

٥- النهي عن الغيبة:

من أكثر الأمراض الاجتماعية شيوعًا في الأوساط الإنسانية هي الغيبة.

والغِيبة: الوَقيعة في النَّاس؛ لأنَّها لا تقال إلا في غَيْبَة، يقال: اغتابه اغتيابًا إذا وقع فيه وذكره بما يكره من العيوب، والاسم الغيبة، وهي ذكر العيب بظهر الغيب[(٢)].

وقد بيَّنها رسولنا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟**». **قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:** «**ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ**». **قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ:** «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»[(٣)].

قال النووي: فأما الغيبة فهي ذكرُك الإنسانَ بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه أو دينه أو دنياه، أو نفسه أو خَلقه أو خُلقه، أو ماله أو ولده أو والده، أو زوجه أو خادمه أو مملوكه، أو عمامته أو ثوبه، أو مشيته وحركته وبشاشته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كتابك، أو رمزتَ أو أشرتَ إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك. أما البدن فكقولك: أعمى أعرج أعمش أقرع، قصير

(١) فيض القدير، للمناوي (٢/ ٣٢٣).
(٢) يُنظر: تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، مادة (غيب) (٣/ ٥٠٠، ٥٠١).
(٣) صحيح مسلم، لمسلم، رقم الحديث (٦٧٥٨) باب: تحريم الغيبة (٨/ ٢١).

طويل أسود أصفر.

وأما الدِّيْنُ فكقولك: فاسق سارق خائن، ظالم متهاون بالصلاة، ليس بارًّا بوالده، لا يضعُ الزكاة مواضعَها، لا يجتنبُ الغيبة.

وأما الدنيا: فقليلُ الأدب، يتهاونُ بالناس، لا يرى لأحد عليه حقًا، كثيرُ الكلام، كثيرُ الأكل أو النوم، ينامُ في غير وقته، يجلسُ في غير موضعه، وأما المتعلِّق بوالده فكقوله: أبوه فاسق، أو هندي أو نبطي أو زنجي، نجار حداد.

وأما الخُلُق فكقوله: سيئ الخلق، متكبّر مُرَاءٍ، عجول جبَّار، عاجز ضعيفُ القلب، مُتهوِّر عبوس، خليع، ونحوه.

وأما الثوب: فواسع الكمّ، طويل الذيل، وَسِخُ الثوب، ونحو ذلك، ويُقاس الباقي بما ذكرناه. وضابطُه: ذكرُه بما يكره[(١)].

وما أكثر ما تتداول هذه الألفاظ في أوساط المجتمعات، فلا تُفقد في التجمعات اليومية، بل أصبحت وكأنها عادة من العادات، يسيرة على الألسن.

لذلك كان منهج القرآن الكريم في النهي عن هذه الآفة الخطيرة بأسلوب تمثيلي يجعل الإنسان العاقل يبتعد عنها كل البعد، والتركيز على هذا الأمر بهذه الطريقة إنما هو لتفشيها في المجتمعات تفشيًا ملحوظًا، ولسهولتها على المغتاب وتلذذه بها في المجالس، هذا من ناحية. كما أن لها نتائج وخيمة وضرر بالمجتمع. قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: ١٢] وقد أتبع القرآن الكريم النهي عن الغيبة بمشهد تمثيلي تأباه الفطرة الإنسانية السليمة وتشمئزّ منه؛ فقد شبّه المغتاب بالإنسان الذي يأكل

---

(١) الأذكار النووية، للنووي (٣٣٦) بتصرف.

لحم أخيه وهو ميِّت، ووجه الشبه أن الميِّت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه.

وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس.

وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا؛ كذلك أن يمتنع من غيبته حيًا[1].

ونقل القاسمي عن ابن الأثير في (المثل السائر) في بحث الكناية: «فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتًا، ثم جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة.

فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له، مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله؛ فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جدًا، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه؛ لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة.

وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة؛ لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها، آمران بتركها، والبعد عنها، ولما كانت كذلك جُعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه، فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة.

وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة، فلما جُبلت عليه

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦/ ٣٠٣، ٣٠٤).

النفوس من الميل إلى الغيبة والشهوة لها مع العلم بقبحها، فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهًا، لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها وجدتها مناسبة لما قصدت له»[1].

❊ ❊ ❊

(١) محاسن التأويل، للقاسمي (٨/ ٥٣٧).

الخاتمة

منهجية التعامل أمر بالغ الأهمية والخطورة، فقد جعل الإسلام الالتزام بالدين في قسمٍ كبيرٍ منه متوقفًا على الأدب وحسن المعاملة.

ومن منطلق هذه الأهمية جاء القرآن الكريم ليضع لنا المناهج القويمة والأسس السليمة للتعامل، باعتباره موضوعًا أساسيًا من موضوعات هذا الدين. فقد أصّل القرآن الكريم لأدب التعامل، وأقامه على مجموعة من القواعد والأسس التي ينبثق من خلالها نتائج إيجابية وحسنة في العلاقات.

المنهج القرآني في التعامل شامل للوجود كله؛ وجميع تعاملات الإنسان مردها إلى الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهو المشرِّع الذي يجب أن تُتَّبع تعاليمه أمرًا ونهيًا، فالإنسان أولًا وأخيرًا يتعامل مع الله سبحانه عقيدة وشريعة.

يقوم المنهج القرآني في التعامل والعلاقات بين أبناء الإنسانية على أسس وقواعد ترتكز على الاحترام المتبادل بين الناس، وحفظ الحقوق الإنسانية، كما أنه ينضبط بمبادئ تكفل إيجاد الروابط السليمة في بناء المجتمع الإنساني والارتقاء به إلى أعلى المستويات، وتحقيق أسمى القيم الاجتماعية وأرقاها، لتكون هي الحاكمة على علاقات الناس ببعضهم بعضًا.

المنهج القرآني في التعامل هو المنهج الأمثل والأحسن، وهو المنهج الذي يعود بانعكاسات إيجابية على العلاقات. ولو أن الإنسان المسلم التزم هذا المنهج لأصبح أنموذجًا حيًا للشخصية الاجتماعية الرّاقية المهذبة النقية، ولو أن أفراد الإنسانية أخذوا بتعاليم القرآن الكريم ومنهجه لكانت المجتمعات الإنسانية

ظاهرة من الآفات الاجتماعية الخطيرة التي تئن الأمم تحت وطأتها، لما يشهده العالم من تفتت وضياع.

وفي الختام أوصي بما يأتي:

١- **الاهتمام بإجراء الدراسات التي تبرز المنهج القرآني في مختلف جوانب الحياة الإنسانية؛** فالقرآن الكريم معين لا ينضب، ومجال البحث فيه واسع.

٢- **التركيز على المناهج القرآنية في تأليف كتبنا ومناهجنا وإجراء بحوثنا،** وعدم الجري وراء المناهج البشرية المستوردة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المصادر والمراجع

١. **الأحكام الشرعية الكبرى**. الإشبيلي، محمد عبد الحق. تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة. الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠٠١م.

٢. **إحياء علوم الدين**. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، (د.ط) بيروت: دار المعرفة (د. ت).

٣. **أدب الدنيا والدين**. الماوردي، علي بن محمد. (د.ط) دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

٤. **أدب المعاملة وأثره في بناء العلاقات الإنسانية من منظور قرآني**. عودة عبد عودة. الشبكة العالمية، الرابط:
faculty.mu.edu.sa/download.php?fid=134454

٥. **الأذكار النووية**. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. (د. ط) بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤م.

٦. **أسباب نزول القرآن**. الواحدي، علي بن أحمد. تحقيق: كمال بسيوني زغلول، (د. ط) بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).

٧. **أصول المجتمع الإسلامي**. جمال الدين محمد. ط١،القاهرة وبيروت: دار الكتاب المصري واللبناني، ١٩٩٢م.

٨. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**. الشنقيطي، محمد الأمين. (د. ط) بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.

٩. **إعراب القرآن الكريم وبيانه**. الدرويش، محيي الدين. ط٦، دمشق وبيروت: اليمامة ودار ابن كثير، ١٩٩٩م.

١٠. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. البيضاوي، عبد الله بن عمر. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

١١. **أهداف الإسلام في توجيه الإنسان**. رفاعي، علي. مجلة الأزهر، ج (٤) السنة (٤٤)، ١٩٧٢م.

١٢. **الإيمان. ابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم. ط٥، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٩٦م.

١٣. **تاج العروس من جواهر القاموس**. الزبيدي، السيد محمد مرتضى. الكويت: التراث العربي، ١٩٧٥م.

١٤. **التحرير والتنوير**. ابن عاشور، محمد الطاهر. ط١، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠٠م.

١٥. **تزكية النفس وتهذيبها**. الأميني، إبراهيم. دار البلاغة، ط٤، بيروت: (د.ن) ٢٠٠٠م.

١٦. **تفسير آيات الأحكام**. السايس، محمد علي، وآخرون. ط٢، دمشق وبيروت: دار ابن كثير ودار القادري، ١٩٩٦م.

١٧. **التفسير التربوي للقرآن الكريم**. الباز، أنور، ط١، القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠١٤م.

١٨. **تفسير القرآن العظيم**. ابن كثير. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.

١٩. **التفسير الكبير**. الفخر الرازي. ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

٢٠. **تفسير المراغي**. المراغي، أحمد مصطفى. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

٢١. **التفسير المنير**. الزحيلي، وهبة بن مصطفى. ط٢، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١٨هـ.

٢٢. **التفسير الواضح**. الحجازي، محمد محمود. ط١٠، بيروت: دار الجيل الجديد، ١٤١٣هـ.

٢٣. **التقوى: حقيقتها وأهميتها وثمرتها**. شبكة راية الإصلاح. الرابط: https://rayatalislah.com/index.php/.../211-2013-07-22-14-23-54.

٢٤. **تهذيب اللغة**. الأزهري، محمد بن أحمد. تح: محمد عوض مرعب. ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م.

٢٥. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. تحقيق: عبد الرحمن بن المعلا اللويحق. ط١، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.

٢٦. **جامع البيان في تأويل آي القرآن**. ابن جرير الطبري، محمد بن جرير. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. ط١: دار هجر للطباعة والنشر والإعلان، ٢٠٠١م.

٢٧. **الجامع لأحكام القرآن**. القرطبي، محمد بن أحمد. (د.ط) بيروت: دار الفكر، ١٩٩٨م.

٢٨. **الرسالة التبوكية**. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. تحقيق: محمد عزيز شمس. ط١، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ١٤٢٥هـ.

٢٩. **الروح. ابن قيّم الجوزية**، محمد بن أبي بكر. (د. ط) بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت).

٣٠. **روح الدين الإسلامي**. طبارة، عفيف. ط٣٠، بيروت: دار العلم للملايين: ١٩٩٥م.

٣١. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**. الألوسي، محمود بن عبد الله. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

٣٢. **الزواجر عن اقتراف الكبائر**. ابن حجر، أحمد بن محمد الهيتمي. ط١، دار الفكر، ١٩٨٧م.

٣٣. **سنن البيهقي الكبرى**. البيهقي، أحمد بن حسين. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، ١٩٩٤م.

٣٤. **سنن الترمذي**. الترمذي، محمد بن عيسى. تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي (د. ت. ط).

٣٥. **سنن أبي داود**. أبو داود، سليمان بن الأشعث. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. (د. ط)، بيروت: المكتبة العصرية (د.ت).

٣٦. **سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية**. العمر، ناصر بن سليمان. الشبكة العالمية، الرابط:

https://d1.islamhouse.com/data/ar/ih_books/single4/ar_Surat_Alhogorat.pdf.

٣٧. **سورة الحجرات منهج تربوي لمجتمع مثالي**. الأمين، عبد الحميد عمر. رسالة ماجستير، السعودية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٧٦م، (نسخة مرقونة).

٣٨. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. الجوهري،** إسماعيل بن حماد. تحقيق: أحمد عبد الغفور. ط٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.

٣٩. **صحيح البخاري**. البخاري، محمد بن إسماعيل. تحقيق: مصطفى ديب البغا. ط٢، بيروت: دار ابن كثير واليمامة: ١٩٨٧م.

٤٠. **صحيح ابن حبان**. ابن حبان. تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م.

٤١. **صحيح مسلم**. مسلم، مسلم بن الحجاج. (د. ط) بيروت: دار الجيل ودار الآفاق الجديدة

٤٢. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**. الشوكاني، محمد بن علي. تحقيق: سيد بن إبراهيم. ط٣، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٧م.

٤٣. **في ظلال القرآن**. قطب، سيد. ط٧، بيروت والقاهرة: دار الشروق، ١٤١٢هـ.

٤٤. **فيض القدير**. المناوي، محمد (عبد الرؤوف). ط١، مصر: المكتبة التجارية الكبر، ١٣٥٦هـ.

٤٥. **قبس من نور القرآن الكريم**. الصابوني، محمد علي. ط١، بيروت: دار السلام، ١٩٩٧م.

٤٦. **القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة**. شرف، جمال الدين محمد. ط٤، طنطا: دار الصحابة للتراث، ٢٠١٠م.

٤٧. **الكامل في الضعفاء**. الجرجاني، أحمد بن عدي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود. ط١، بيروت: الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٤٨. **كتاب التعريفات**. الجرجاني، علي بن محمد. (د. ط) بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.

٤٩. **الكشاف**. الزمخشري، محمود بن عمر، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٧م.

٥٠. **لباب النقول في أسباب النزول**. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. (د. ط) بيروت: دار الكتب العلمية.

٥١. **لسان العرب**. ابن منظور. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ١٩٩٧م.

٥٢. **لطائف الإشارات**. القشيري، عبد الكريم بن هوازن. تحقيق: إبراهيم البسيوني. ط٣.مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (د. ت)،

٥٣. **مباحث في إعجاز القرآن**. مصطفى مسلم. ط٢، الرياض: دار المسلم، ١٩٩٦م.

٥٤. **المجموعة الكاملة**. العقاد، عباس، ط١، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤م.

٥٥. **محاسن التأويل**. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد. تحقيق: محمد باسل عيون السود. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

٥٦. **المستدرك على الصحيحين**. الحاكم، محمد بن عبد الله. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م.

٥٧. **مسند البزار**. البزار، أحمد بن عمرو. ط١، مكتبة المدينة المنورة، ٢٠٠٩م.

٥٨. **معجم مفردات ألفاظ القرآن**. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٥٩. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ.

٦٠. **هل الإسلام هو الحل**. محمد عمارة. ط١، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٥م.

٦١. **الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز**. الدامغاني، الحسين بن محمد. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٣م.

٦٢. **الوصايا التسع في سورة الحجرات في التعامل مع الناس**. زغرب، شبكة الألوكة، ٢٠١٦م، الرابط: www.alukah.net.

❊ ❊ ❊

الفهرس

مجلة تدبر



البحث الثالث :

التسامح وأثره في ترسيخ الأمن الاجتماعي في ضوء القرآن الكريم

د. وفاء بنت صالح الفايز

أستاذ العقيدة والثقافة الإسلامية المساعد بقسم الدراسات الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الملك فيصل بالأحساء

Drwafa1@hotmail.com

- حصلت على درجة الماجستير من كلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض باطروحته : مباحث العقيدة في الحزب الستين من القرا ن الكريم.
- حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن بالرياض باطروحته : أراء الحكيم الترمذي توفي عام (٣٢٠هـ) في العقيدة والتصوف عرضاً ودراسة.
- من مؤلفاتها:
- الغلو والتكفير في ندوة السلفية بجامعة الإمام محمد بن سعود.
- دور الإعلام على المرأة المسلمة المعاصرة تحديات وأخطار ونشر في اعمال مؤتمر المرأة بجامعة القصيم.

ملخص البحث

إن التسامح تشريع رباني أصيل يرسخ به أمن المجتمعات، وقد عني القرآن الكريم بتثبيت أواصره لتستقر الأمة كلها، لا سيما في ظل حقد الحاقدين، لذا خاطب الإسلام الوجود كله وطالبه بترسيخ التسامح لتناغمه مع طبيعة الحياة فيه.

وإن القرآن الكريم بترسيخه التسامح في المجتمعات أعفى البشرية من تولي وضع النظم الفكرية عن التخطيط لحياة الإنسان الكريمة، فنظامه قائم صالح، ونظام الإسلام هو النظام الوحيد الصالح لبقاء الحياة الصالحة الآمنة، ومنهج الإسلام وإلى يوم القيامة ثابت على مبدأ إحياء التسامح بين الناس، فثم تكامل بين التسامح والأمن، وإن المطالع لآي الله في القرآن الكريم ؛ يجد ما يرجوه من منهج حياة يرسم خطو السير الحياتي على مبدأ التسامح في الدولة الواحدة، فحين نادى القرآن البشرية في هذا الجانب، ناداها على اعتبار حقيقتها الإنسانية مذكرا إياها بأصل خلقتها، وجامعية خلقها، والقرآن ملئ بالدساتير التسامحية، ورسالته السمحة رسالة شاملة موجهة إلى جميع الناس مع إلزامية صيانة أمن الإنسانية على مبدأ التسامح، والمتحقق في التوجيه الرباني في القرآن ؛ يجد ما يحقق طلبته في إثبات أصالة التسامح في ترسيخ الأمن الاجتماعي .

كلمات مفتاحية :

التسامح، الأمن، المجتمع، الإسلام، القرآن، تحقيق.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، أحمده سبحانه على السراء والضراء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، خاتم الرسل وأفضل الأنبياء، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، **أما بعد:**

فإن التسامح تشريع رباني أصيل يُرسَّخ به أمن المجتمَعات، وقد عني القرآن الكريم بتثبيت أواصره لتستقر الأُمّة كلها، لا سيما في ظل رسائل المُغرضين وتدابير الحاقدين؛ لذا خاطب الإسلام الوجود كله، وطالبه بترسيخ التسامح لتناغمه مع طبيعة الحياة فيه.

إن القرآن الكريم بترسيخه التسامح في المجتمعات أعفى البشرية، ومنهج الإسلام منذ وُجدَت قصة الإنسان على الأرض وإلى قيام الساعة قائم، ويكفل الأمن والتسامح، وإن المُطالِع لآيات القرآن الكريم يجد ما ينشده من حياة كريمة على مبدأ التسامح في الدولة الواحدة، فحين نادى القرآن البشرية في هذا الجانب، ناداها على اعتبار حقيقتها الإنسانية مُذكِّرًا إياها بأصل خلقتها، وجامعية خلقها، فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

كما وجَّه المسلمين إلى كيفية التعامل بالتسامح حتى مع الأغيار، فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة: ٨]، والقرآن مليء بهذه الدساتير التسامحية، ورسالته السمحة رسالة شاملة موجَّهة إلى جميع الناس، مع إلزامية صيانة أمن الإنسانية على مبدأ التسامح، والمتحقِّق في التوجيه الرباني في القرآن، يجد ما يُحقق طِلْبتَه في إثبات أصالة التسامح في ترسيخ الأمن الاجتماعي.

أولًا: أهمية الدراسة:

يقتضي العرض الحياتي في عقد الأيام المتتابعة في حياة الأمم والشعوب، وتعطيل الحقائق التي كفَلها الإسلام لتحقق المجتمعات بالتسامح - ضرورة الإفصاح عن وجه الإسلام في ربطه للتسامح بأمن المجتمَع.

ثانيًا: حدود الدراسة:

تدور حدود الدراسة حول أمن الفرد في مجتمعه، في ظِلّ التسامح في ضوء القرآن الكريم، وكيف رسَّخ الإسلام بقاء الأمم والأوطان بترسيخ أمن أفرادها، ومدى ضمان التسامح بكل مضامينه: من تراحم، وإيثار، وصفاء، وإخاء، ووئام، لتحقيق هذا المأرب.

ثالثًا: منهج البحث:

اتبع الباحث انطلاقًا من مبدأ التكامل المنهجي المنهج الوصفي؛ حيث يصف الباحث ملامح الأمن الاجتماعي في ضوء القرآن الكريم في ظِلّ خُلُق التسامح.

رابعًا : الدراسات السابقة :

تعرض موضوع التسامح والمجتمع لعديد من الدراسات السابقة، ومنها:

١) **التسامح وثقافة الاختلاف رؤى في بناء المجتمع وتنمية العلاقات**، للشيخ حسن الصفَّار، وقد نشرته دار المحجَّة البيضاء، بيروت لبنان، وقد عرض لأثر التسامح في معالجات الاختلاف الذي يمثِّل تحديًا للمجتمع وأمنه.

٢) **قوة الحب والتسامح**، للدكتور إبراهيم الفقي، وهو كتاب رائع يدعو إلى المودَّة والوئام عن طريق بثّ التسامح في المجتمع.

٣) دراسة: **التسامح في الإسلام**، للدكتور شوقي أبو خليل، ويتناول فيه قضايا مهمة، ونجح نجاحًا مبهرًا، وهو يناقش أعداء السلام والمتربِّصين للأُمّة، وطرَحَ أسئلة لمفارقات عديدة، وعمِلَ على استخدام الحُجّة والبراهين الصادقة.

٤) **كتاب العدل والتسامح في القرآن**، للدكتور هارون يحيى، وفيه صِلة التسامح بالعدل في ضوء القرآن الكريم، وأثر ذلك في ترسيخ الأمن في المجتمع.

- **وجاءت الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة:**

* **التمهيد**: وفيه تحديد المفاهيم.
* **المبحث الأول**: أثر التسامح في التكوين الآمن لعناصر المجتمع في ضوء القرآن الكريم.
* **المبحث الثاني**: أثر التسامح الدعوي في ترسيخ الأمن الاجتماعي.

❋ **المبحث الثالث**: أثر التسامح مع الآخر في ترسيخ الأمن الاجتماعي في ضوء القرآن الكريم.

❋ **الخاتمة**: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

❋ ❋ ❋

التمهيد

تحديد المفاهيم

من مقتضيات البحث العلمي بيان مفاهيم مصطلحات عنوانه، وذلك بمراجعة المعاجم اللغوية والمصادر المتخصصة، وهو ما سلكه الباحث في الآتي:

أولًا: مفهوم التسامح لغةً وعُرفًا:

بمطالعة المعاجم اللغوية، تبيَّن أن لفظة «تسامُح» من مادة «سَمَحَ»: والسَّماحُ والسَّماحةُ: الجُودُ، سَمُحَ سَماحَة، والمُسامَحة: المُساهَلة، وتَسامحوا: تَساهَلوا، وقولهم: الحَنِيفِيَّة السَّمْحة: ليس فيها ضِيق ولا شِدَّة، ولقد سَمُحَ (بالضم) سَماحة: جادَ بما لديه، وأَسْمَحَتِ الدابَّة بعد استصعاب: لانَت وانقادَت، وتقول العرب: عليكَ بالحقِّ فإِن فيه لَمَسْمَحًا، أَي مُتَّسَعًا، وعُودٌ سَمْح بَيِّنُ السَّماحةِ والسُّموحةِ لا عُقْدَة فيه، وقيل: التَّسْمِيحُ: السير السهل»[1].

أما التسامح عُرفًا:

قيل في التعريف بالتسامح: «بناء العلاقات الإنسانية السويَّة في غير استسلام للشرِّ، مع ضرورة دفع العداوة بالتي هي أحسن»[2].

وقيل هو: «استحقاق كل فرد في الأُمّة أن يعتقد ما يراه حقًّا، وأن تكون له الحرية في تأدية شعائر دِينه كما يشاء، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء»[3].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، (٢/ ٤٨٩)، ومختار الصحاح، الرازي، (١/ ٣٢٦)، المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، (١/ ٢٨٨)، ابن الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، (٢، ٩٩٠)، المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، (١/ ١٧٤).

(٢) المسلمون في موكب الإنسانية، سالم، صـ ٦٠.

(٣) الإسلام وأهل الذمة، الخربوطلي، صـ ٩٥.

ثانيا: الأمن الاجتماعي:

مفهوم الأمن لغةً واصطلاحًا: تتقارب معاني الأمن في كل من المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، حيث تلتقي جميعها على أن الأمن هو تحقيق السَّكينة والطمأنينة والاستقرار على مستوى الفرد والجماعة.

معنى الأَمْن لُغةً:

فالأَمْن في المعنى اللغوي ضد الخوف، والأَمِنُ: المستجير ليأمن على نفسه، والأمانة: ضد الخيانة، وآمَن به: صَدَّقه، والإيمان: الثقة وقبول الشريعة، والأمين: القويّ[(١)].

المعنى الاصطلاحي:

هو الطمأنينة والهدوء والقدرة على مواجهة الأحداث والطوارئ دون اضطراب[(٢)]، وتشير هذه التعريفات بنوعيها (اللغوي والاصطلاحي) إلى أن «الأمن، والسَّكينة، والاستقرار» مترادفات تُحقِّق النهضة والطمأنينة للفرد والجماعة.

ولا يزعم الباحث أنه أحاط بكل موضوع البحث، ولكنه جهد المُقلّ، فعلى أساتذتي وكل من يطَّلِع على هذا البحث أن يُقوِّمني بالتوجيه فيما عسى أن يكون قد سقط مني بغير عمد، أو سها علي بغير قصد.

أما الاجتماعي:

فهو من المُجتمَع والجمْع «والجَمْعُ، كالمَنْع: تَأْلِيفُ المُتَفَرِّقِ، وقيل الجَمْعُ: ضَمُّ الشَّيْءِ بتَقْرِيبِ بَعْضِه مِن بَعْضٍ، وقيل: الجَمْعُ: جَماعَةُ النّاسِ، وعليه فالمُجتمَع

(١) مختار القاموس، الزاوي، ص٣.

(٢) الأمن والمخابرات، نميري، (نظرة إسلامية)، ص ٩، ١٠.

هو موضع اجتماع الناس.

- **والأمن الاجتماعي هو:**

الطمأنينة والهدوء والقدرة على مواجهة الأحداث والطوارئ التي تؤدي إلى ذبذبة الاستقرار داخل المجتمَعات الآمنة.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول

أثر التسامح في التكوين الآمن لعناصر المجتمع

عندما يُقلِّب القارئ في كتاب الله، يجد مُثُلًا حية لإرساء مفهوم الأمن الاجتماعي في ظِلّ خُلُق التسامح؛ مُثُلًا تؤصِّل لضرورة التسامح في حياة الأمم وبقائها، فلا أمان ولا حياة من غير تسامح.

وفيما يأتي نؤصِّل لضرورة التسامح في أمن الفرد في مجتمعه، والذي به يتحقق أمن المجتمع كله، ومن هنا تتشعب صور التسامح في نسج الأمن الاجتماعي عبر عدة منافد، نبرزها فيما يأتي:

أولًا: تحقيق الأمن المعيشي للفرد وانعكاسه على المجتمع:

إن أمن الفرد في مجتمعه في ظل التسامح من نسيج شريعة خاصة من لدن إله واحد، يعلم ما يناسب طبيعة حياة الفرد في هذا الوجود، وقد رسَّخ الإسلام بقاء الأُمم والأوطان بترسيخ أمن أفرادها، ويبدو التسامح بكل مضامينه من تراحم وإيثار وصفاء وإخاء ووئام وسيلة كبرى في تحقيق هذا المأرب، والتسامح مع الفرد وتأمين حياته المعيشية منبثق في الأصل من قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ٨- ١٢].

وفي قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جارُه بوائقَه»[(١)].

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، عن أبي سعيد بن شريح، انظر: صحيح البخاري حديث رقم ٢٣٢٧، (٨/ ١٢).

والرؤية الإسلامية لمفهوم الأمن على أساس التسامح تقتضي أن يكون الأمن اجتماعيًّا، لا تقف طمأنينته عند دنيا الفرد، بل جعلَتْ جماعيَّته السبيل لتحقيقه في الإطار الفردي، وإن هذه الرؤية الإسلامية قد تجاوزت بأهمية الأمن الاجتماعي الحق الإنساني لتجعله فريضة إلهية، وواجبًا شرعيًّا، وضرورة من ضرورات استقامة العمران الإنساني، كما جعلت هذه الرؤية الإسلامية إقامة مقومات الأمن الاجتماعي الأساس لإقامة الدين، فرتَّبت على صلاح الدنيا بالأمن صلاح الدين، وليس العكس كما قد يحسب الكثيرون[1].

وقد حرص القرآن الكريم إلى كسر حواجز النفور بتشريع الزكاة وفرضها، والصدقة بكل أنواعها والترغيب فيها؛ ليجتذب القلوب نحو التسامح والحب بين عناصر المجتمع، بل جعل ذلك من صور التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]، أي «وجعلوا في أموالهم جزءًا مقسومًا مُعيَّنًا للفقراء والمحتاجين على سبيل البِّر والصِّلة، والسائل: هو الفقير الذي يبتدئ بالسؤال، والمحروم: هو الذي يتعفّف عن السؤال، فيحسبه الناس غنيًا، فلا يتصدّقون عليه»[2]، ففي ذلك استشعار بالحنوّ والشعور الإيجابي، وهو بطبيعة الحال يمنع القلق المجتمعي المترتب على الفقر وضيق العيش.

وقد حثّ الإسلام على التسامح حتى في حركة البيع والشراء، يقول النبي ﷺ مبينًا ربط الاقتضاء مع التسامح بعِلّة الرحمة من الله تعالى: «**رحم**

---

(١) عمارة، الإسلام والأمن الاجتماعي، صـ ١٧.

(٢) الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (٢٧/ ١٧).

الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»[(١)]، وانطلاقًا من القرآن الكريم تكوَّنت مسارات شرعية في دعم الفرد، منها:

ثانياً: التسامح وتحقيق الأمن المالي للفرد:

يُعدّ الأمن المالي للفرد نواة لمعالجة ارتباك المجتمع، فهو يُحِدّ من وقوع الجريمة والسلب والنهب والفساد، ويمكن تفعيل ذلك بالتسامح في معاملة الغير، وإخراجه من دائرة الفقر إلى الأمن المعيشي والاستقرار النفسي، وذلك من خلال تفعيل سبل المعالجة الإسلامية لحالات الفقر؛ ومنها:

١) التسامح مع المدين العاجز عن السداد بإنظاره:

حثَّ القرآن على التسامح مع المعسر؛ قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

أي: تسامحوا مع المدين و«إنظاره إلى أن يُيسِّر الله عليه فيعطيكم رأس مالكم الذي أخذه منكم»[(٢)].

حيث يعجز الفرد عن سداد القرض نظرًا لشدة حاجته، والأفضل في هذه الحالة إسقاط الخزانة أو الصندوق لهذا القرض عن المُقترِض، وقد بثَّ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رُوح الإحسان في مثل هذه الأحوال فقال: **«مَن أنظرَ معسرًا أو وضَعَ عنه، وقاه الله من فَيْح**[(٣)] **جهنم»**[(٤)].

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، عن أبي سعيد بن شريح، انظر: صحيح البخاري حديث رقم ٢٣٢٧، (٨/ ١٢).

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري، (١/ ٢٧٠).

(٣) فيح: الحر، أو سطوع الحر وفورانه، يقال: فاحت القدر تفيح وتفوح إذا غلت، ابن منظور، لسان العرب المحيط، (٤/ ١١٥٢).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده، برقم ٨٦٩٦ نقلًا عن الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد، للشيخ=

■ ٢) التسامح بالبذل والإيثار:

إن التسامح هو الذي يقود عملية العصف الشعوري الوجداني الرحيم، ويدفعه نحو الإيثار والبذل والشعور الواحد على حدّ فعل الأنصار مع إخوانهم المهاجرين، والذي وردَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩]، وقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحُمَّى**»[(١)].

ذلك المعنى الإيماني الذي يجري في عروق وأوردة المؤمنين، يكمن في صِلَتِهم بالله تعالى استشعارًا بملكيته الحقيقية للكون والسماوات والأرض ومن فيهن «وهي صِلة لا يوجد لها نظير ولا أساس للقياس من بين الصِّلات، في الأصالة والعمق، والسعة والاحتواء، والشمول والإحاطة، وأقلّ ما يقال فيها أنها صِلة الخالق والمخلوق، والربّ والمربوب، والرازق والمرزوق، والمالك والمملوك، والحاكم والمحكوم، أنها صِلة هذا الرب الكريم الكمالية، وأفعاله البديعة، وربوبيته الحكيمة الرحيمة، ورعايته اللطيفة الدقيقة، وأن يُخلَص له الحُبّ ويهيم به القلب، وتُبذَل في سبيله المُهَج والأرواح، فضلًا عن الأموال

= أحمد عبد الرحمن البنا، كتاب: القرض والدَّين، باب: فضل من أنظر معسرًا أو وضع له، (١٥/ ٩٦)، وسند الحديث جيد على حدّ قول الشيخ أحمد البنا. راجع له كتابه: بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، (ط. دار الأنوار بمصر، طبعة أولى، بدون تاريخ) (١٥/ ٩٧)، وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد، الحديث رواه الإمام أحمد، وفيه عبد الله بن جعوبة السلمي، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله رجال الصحيح، (٤/ ١٣٣، ١٣٤).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ٢٣٢٣ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، من حديث النعمان بن بشير، (ـ١٠/ ٥٤٠).

والأملاك)[1]، ذلك المعنى هو الأداة الفعّالة القوية التي تُحرِّك الهِمم نحو عملية الإنفاق.

ثالثًا: التسامح الأُسريّ وأثره في تحقيق الأمن الاجتماعي:

إن الشعور بالاستقرار الذي يجده كل واحد من الزوجين في الآخر نتيجة إحسانهما والألفة القائمة بينهما، يُعدّ حقلًا خصبًا لتربية العلاقات الإنسانية، وبيئة مهيأة لتغذية الصلات الاجتماعية، وهو ما يصوِّره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]، «فجعَل بين الزوجين مودّة ورحمة، فهما يتوادّان ويتراحمان، وما شيء أحبَّ إلى أحدهما من الآخر من غير رَحِمٍ بينهما»[2].

«وإذا كانت الأسرة تُعَدُّ الوسط الاجتماعي الأوَّل الذي يُؤمِّن وسائل المعيشة لأفراده، ويمرِّنهم على الحياة، ويُشكِّلهم ليكونوا أعضاء عاملين في المجتمع، صار من الثابت أن المجتمع -الذي من أشكاله الأسرة- لا يضمّ أفرادًا فحسب، ولكنه يضم أفرادًا وما يتولَّد عن وجودهم الاجتماعي من صِلات وعلاقات»[3].

ومما لا شك فيه أن استقرار الزوجين وتوافر جوّ التسامح بينهما؛ ينعكس عنه تلقائيًّا أولاد مستقِرِّين نفسيًّا ومعنويًّا وعلميًّا، وإذا تحقّق ذلك تحقق الأمن الاجتماعي؛ لأن إفراز جيل مُضطرِب يُعدّ سببًا في اضطراب المجتمع كله وعدم استقراره، ومن أهم النتائج المترتبة على استقرار الزوجين وتوافر جوّ التسامح بينهما، ما يأتي:

---

(١) الأركان الأربعة، الندوي، صـ٨٩.

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي، البغوي، (٣/ ٥٧٥).

(٣) المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، التومي، صـ٢٦٨.

١) التكوين الآمن للأولاد نفسيًّا وفكريًّا:

ويُقصد به الأسس التكوينية لبناء الذات والشخصية السويّة، التي تعاني من تحديات فكرية وثقافية تؤثر في النمو الأخلاقي بعوامل من التعرية الهدامة، وعلى رأس هذه العوامل الإرهاب الفكري؛ إذ يترتب على غياب التسامح من الأسرة مجموعة من الارتباطات السلوكية والثقافية والنفسية: كاللامبالاة، والتعقيد النفسي، وإسقاط الهدف تربويًّا وبيئيًّا، وانهيار الأخلاق والقِيَم، وغياب الوعي الثقافي السليم، وتدنِّي المستوى الفكري وتكدُّر الوعي، ويتوارى الإرهاب خلف ستارها حتى ينمو ويكبر، وينظر من طرف خفي، ولا يحسر بصره من رؤية ما يروم من تخريب، إذ تفتقد الأسرة في ظِلّ هذه المُكدِّرات أهم الجوانب الإدراكية والأخلاقية والمعرفية المنعكسة بطبيعة الحال على سلوك الأبناء، «ويُعدّ التفكُّك الأُسريّ من أقوى المشكلات الاجتماعية التي قد تدفع الأفراد لارتكاب أعمال إرهابية، والتفكُّك الأُسريّ يعني انهيار الأدوار الأساسية للأسرة، مثل: التنشئة الاجتماعية، والعلاقات الأُسريَّة والزوجية، والطلاق، ويؤدي التفكُّك الأُسريّ إلى حدوث انحراف أفراد الأسرة، وقد يُستَغلّ هذا الانحراف من قِبَل الجماعات الإرهابية»[١].

وهذا الجوّ المُلبَّد بمثل هذه الثقافات، مدعاة لصياغة دوافع وقدرات وإمكانات التكوين المتطرف نفسيًّا واجتماعيًّا وتربويًّا ومهنيًّا، ورعاية مظاهر الشخصية الجسمية والعقلية والنفسية والاجتماعية.

٢) ضبط التهيئة الوقائية لأفراد الأسرة من الاستقطاب للانحراف:

تتطلب المجتمعات الحديثة من الأسرة الاهتمام بالرفق، والتسامح في كافَّة

(١) مستقبل الإرهاب في هذا القرن، العموش، (٨٢، ٨٣).

مراحل النمو؛ لتهيئة الأولاد وتحصينهم من براثن الانحراف الناتج عن الضغط العصبيّ، والكَبْت، والحَجْر الفِكريّ، وعدم منحهم مساحة واسعة للتعبير عن آرائهم.

والأسرة مسئولة عن تحقيق ذلك الغرض عن طريق تنظيم المواقف المختلفة التي تحصِّن الدافع النفسي ضد المشكلات والاضطرابات والأمراض، وهي الطريقة التي يسلكها الشخص كي يتجنب الوقوع في مشكلة ما.

والتوعية السلوكية والقِيَمِيّة تنعكس تلقائيًّا على الحِسّ الأمني في نفسية الأولاد «فهي تهدف إلى إكساب الأطفال أساليب سلوكية معيَّنة، ودوافع وقِيَم واتجاهات يرضى عنها المجتمع الذي يعيش فيه الفرد، بحيث تُشكِّل طُرقَ تفكيره، وأنماطَ سلوكه، وحُكمَه على المعاني والأشياء»[(١)].

وقد عني القرآن برعاية الأسرة، وصاغ أمثلة قرآنية لكل أسرة؛ لتقتفي على آثارها أمثلة للتوجيه المتسامح نحو مكارم الأخلاق وأداء العبادات، والذي يترتب عليه تنمية نوازع الأمن بكل توجهاته المجتمعيّة، والتي تُعدّ ثمارًا للتربية النافعة، والتوجيه السديد، فلا يكفي أن نُظهِر لأولادنا عاطفة متسامحة حانية، ورحمة متدفقة، وبِرًّا مسكوبًا، بل لا بد أن يكون ذلك مشفوعًا بالكلمة المُوجِّهة، والإشارة المُؤدِّبة برِفق ولِين وتسامُح، قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه: آية ١٣٢]، وتلك طبيعة في الأسرة النبويّة، فتدبَّر دعوةَ إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ [إبراهيم: ٤٠].

(١) الأبعاد السياسية مفهوم الأمن في الإسلام، منجود، ص ٤٤-٤٥.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَن أهملَ تعليمَ ولدِهِ ما ينفعه، وَتَرَكَهَ سُدى؛ فقد أَساءَ إليه غايةَ الإساءة، وأكثرُ الأولادِ إنما جاء فسادُهُم من قِبَلِ الآباءِ وإهمالِهِم لهم، وتركِ تعليمِهِم فرائضَ الدِّينِ وَسُنَنَه، فأضاعوها صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسِهِم ولم ينفعوا آباءَهُم كِبارًا»[1].

فهذه السمات تجعل من أولادنا أكثر عُرضَة للتأثر بالأفكار والتوجُّهات وأكثر عُرضَة للخروج عن الضوابط والأنظمة، ويترتب عليه التوجُّه نحو الانحراف والجريمة، وبالتالي فإنَّ الأسرة لها دور مُهِمّ في تكوين شخصية مثالية.

رابعًا: أثر التسامح في ترسيخ الأمن في المجتمع كله:

إن القرآن الكريم بدعوته إلى التسامح في كل مجالات الحياة والعلاقات الاجتماعية؛ حوَّل المجتمع كله إلى كتلة متضامنة ذات كيان آمن حصين، لا أفراد متناثرة بغير نظام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فالله تعالى يأمر عباده المؤمنين به المُصدِّقين برسوله أن يأخذوا بجميع عُرى الإسلام وشرائعه، والأخذ بالسِّلْم والتسامح تحقيقًا للأمن الاجتماعي، فـ«السِّلْم» هو الصُّلْح، وترك الحرب راجع إلى هذا المعنى.

فدعوة الحقِّ - تعالى - الناسَ جميعًا للدخول في السلام والأمن، ورفع الإيمان عن المسلم الذي لا يأمن جاره أذاه وسوءاته؛ لأن التسامح والإخاء والأمن كلها تنطلق من تحت سماء التوحيد.

---

(١) الأمن القومي والأمن الجماعي الدولي، شوقي، صـ٢٨.

يقول الإمام ابن القيِّم[1]: «تجرَّد منها - أي القلوب والأنفُس - التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقُّق بُطلانه؛ فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همُّها على من أيقنَتْ بالقُدوم عليه، فوجَّه العبدُ وجهَه بكُلِّيته إليه، وأقبلَ بقلبه ورُوحه وهمِّه عليه، فاستسلم لله وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوى سرُّه وعلانيتُه فقال: (لا إله إلا الله) مخلِصًا من قلبه، وقد تخلَّص قلبُه من التعلُّق بغيره، والالتفات إلى ما سواه»[2].

وقد بيَّن لنا القرآن الكريم أن الناس مهْمَا تعدَّدت أجناسهم وألوانهم، فإن أباهم جميعًا هو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

فالقرآن يُؤكِّد وحدة أصل الناس وصِلة القُربى بينهم، باعتبارهم إخوة ينحدرون من أصل واحد، وإنّ هذا التوحُّد في الأصل والمنشأ، حريٌّ به أن يقود الناس إلى الإحسان والتعاون والتفاهم والالتقاء على الخير والمَحبَّة.

والناظر في صيغ الخطاب القرآني، يجد أنها تؤكد وحدة الأصل الإنساني، فكثيرًا ما تتكرر في القرآن صِيغ النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، و﴿يَٰبَنِىٓ

(١) ابن القيِّم هو: هو محمد بن أبي بكر بن سعد الزرعي، نسبة إلى بلدة أزرع، ثم الدمشقي، أبو عبد الله شمس الدين، من أجلة العلماء، وكذلك كان أبوه، فقد كان قيِّمًا على الجوزيّة، وهي مدرسة في دمشق، ولذلك عرف بابن الجوزيَّة، وُلد في السابع من صفر سنة ٦٩١هـ، أحد تلاميذ الإمام ابن تيمية، وتسبب في نشر علمه، قال عنه الإمام الشوكاني: كان طويل النفس في مؤلفاته، له ملكة قوية، توفي وقت العشاء الآخرة، ليلة الخميس، الثالث عشر من شهر رجب سنة ٧٥١هـ. انظر كتاب: الروح، ابن قيم، (٤/ ٧٤).

(٢) الفوائد، ابن قيم، ص ٥٦.

ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٣٥]، مما يشير إلى أن الله سبحانه كرّم هذا الإنسان وفضّله على كثيرٍ من خلقه، مُعلنًا بذلك مبدأ المساواة بين البشر، فلا فضل لجنس على آخر باعتبار اللون والعنصر والنشأة. ويرتقي بهذا الإنسان حين يعلن أنّ أساس الثواب والعقاب يرتكز على النوايا والأعمال لا على الظواهر والأشكال. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولكن البشريّة حين تُغيِّبُ عقولها، وتطمس ضمائرها، تتناسى هذا المبدأ، وتضرب بكل هذه القيم عُرض الحائط، فتنتشر العنصرية البغيضة، وهنا يتجلّى دور التسامح في ضبط سلوكيات الأفراد نحو تعامل مثالي يعلوه الإخاء وتكسوه الرحمة.

وبعد أن بيّن لنا القرآن وحدة الأصل الإنساني، بيَّن لنا في سياقٍ آخر أنَّ هذا الأصل تفرَّعت عنه الشعوب والقبائل والأمم، وأنَّ الهدف من هذا التنوع بين الناس هو الإحسان والوصال والتفاهم والتعارف فيما بينهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

وإذا كان القرآن الكريم قد اهتم ببناء المعاملات الإنسانية على المستوى الإنساني العام، فهو في الوقت نفسه لم يَغفل عن أهمية بناء هذه العلاقات في مستوياتها الخاصة، بدءًا بالعلاقة القائمة بين الزوجين، ومرورًا بالأسرة والأقارب والجيران حتى المجتمع المسلم.

والتسامح في المجتمع المسلم ضرورة لتحقيق الأمن فيه، لذلك حفَّز الإسلام على العفو، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشورى: ٤٠]، «والعفو في أعلى مراتب التسامح والفضيلة إذا

كان مع القدرة على ردّ السيئة بمثلها، ويزداد رفعة إذا قُصِد به وجْه الله تعالى، ولم يُقصد به مجرد حسم النزاع، أو الاستجابة إلى شفاعة أحدٍ من الناس، أو غير ذلك من الأَغراض التي لم يدخل فيها جانب الله، وإنما يحسن العفو إذا كان يؤدي إلى أثرٍ جميل، من حلول السلام محل الوئام، وارتداع المسيء عن إساءَته»[(١)].

«ولقد أسهمَ في تحقيق هذه الغاية العظمى (غاية الأمن الاجتماعي على أساس التسامح) أن الله تعالى أودعَ في الإنسان نزعتين إنسانيتين متباينتين في الظاهر، لكنهما متكاملتان، وهما:

- **النزعة الفردية:**

وهي التي تجعله يحب الخير لنفسه، ويدفع الشر عنها، ويحرص على تحقيق ذاته.

- **والنزعة الاجتماعية:**

وهي التي تدفعه إلى صف الجماعة وحضن المجتمع»[(٢)].

«لأن الله تعالى جعَل بحِكْمته حاجة الفرد إلى الفرد كحاجة العضو إلى العضو في الجسد الواحد، ويُفهَم هذا إذا عُلِم أن سلوك الفرد ورغباته كالحبّ والوفاء والتميّز والفخر، لا بد لها من محيط اجتماعي تُمارَس فيه»[(٣)].

وقد تأسس المجتمع الإسلامي الأول بكل ألوانه القبَلِيّة والدينية في المدينة المنورة على أساس التسامح بكل صوره ومضامينه، فالأوائل بنوا كيان الوطن الإسلامي، وأسَّسوا لأصوله وقواعده وفق هذه الإنسانية المنبثقة من التسامح

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، (٢/ ٩٥٣).

(٢) علم الاجتماع والمجتمع المسلم، شاهين، صـ ٨٥.

(٣) المرجع السابق صـ ١١

والتراحم والتوادّ، فحياة المهاجرين إلى طَيْبة مع إخوانهم الأنصار مليئة بالتسامح، أدّى إلى حدوث اندماج وتعايش ووئام وتآخ يُعلِّم البشرية معنى المُواطَنة في ظِلّ خُلُق التسامح والوئام، وقد حكى القرآن هذا الاندماج المبني على المحبة والتسامح والإيثار فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨، ٩].

فقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يعني: حاجة، أي: يُقدِّمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك(١).

«وفي شعر للنعمان بن عجلان الأنصاري، إشادة بعمل قومه الأنصار، إذ قَسَّموا أموالهم وديارهم بينهم وبين المهاجرين، قال:

وقُلْنا لقوم هاجروا مرحبًا لكم ... وأهلًا وسهلًا قد أَمِنتم من الفقرِ
نُقاسمكم أموالنا وديارنا كقِسْمة ... أيسار الجَزُور على الشَّطْرِ

وفي كلماته يبدو بريق المؤاخاة ووحدة النسيج بين المهاجرين والأنصار بعد مَقْدمهم بخمسة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر»(٢)، «فعن عروة قال: قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، فكان أول راية عقدها راية عبيدة بن الحارث: وفيها: آخي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار، على المُوَاساة والحقّ، وقد

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٨/ ٧٠).
(٢) نفس المرجع (٧/ ٣٩٧).

روي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: آخَى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار، وورَّث بعضَهم من بعض، حتى نزلت: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦][1].

على هذا المفهوم من الانسجام والتسامح ذابت الكيانات في مجتمع واحد، يجمع عناصره الإلف والإخاء، وتمثَّلت قُوَّة المجتمع وقام أمانه، فمصالح المجتمعات تتحقق بتكاتف أفراد المجتمع وانسجامهم على المحبة والتسامح، وجسد الأمة عندما يتمزق يكون جسدًا ضعيفًا، حتى لو توهَّم من يملك اليد أن عنده عضلات يمكنه أن يبطش بها، أو من يملك الرأس أن عنده عقل يفكر ويبدع به، فقُوَّة اليد الحقيقية هي عندما تكون جزءًا من جسد متماسك.

❋ ❋ ❋

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، (٢/ ٣٢).

المبحث الثاني

أثر التسامح الدعوي في ترسيخ الأمن الاجتماعي

قبل عرض أهم الصفات التي يتحلَّى بها الدعاة إلى الله تعالى، لا بد من التجذير لها من حيث مصدريتها واكتسابها، وذلك فيما يلي:

أولًا: التسامح وسيلة الأنبياء في تأمين مجتمع الدعوة إلى الله:

ارتبط التسامح بمنهج الدعوة عند الأنبياء ارتباطًا وثيقًا، لضرورة ذلك في تهيئة المجتمع وترويضه ترويضًا آمنا يُبعِده عن الجاهلية والانفلات الأمني، لذلك تقع على كاهل الدعاة إلى الله تعالى نفس المسئولية، وهي تحتاج إلى تعبئة الداعية بالإيمان برسالته، فلا تنتصر دعوة إلا بالداعية الذي يؤمن بها، ويُحسِن عرضَها، ويكون نموذجًا حيًّا لتعاليمها[1]، ويرجع تجذير صفات الدعاة إلى الله تعالى إلى منهج الأنبياء والمرسلين الذي حكاه القرآن الكريم، كما يرجع إلى تربية النبي وتوجيهه للدعاة ليسيروا على أرقى منهج تسامُحيّ حكيم يضمن أمن المجتمع الإنساني.

إن تسامح الدعاة في الدعوة إلى الله أداة لضبط المجتمعات، وضمان لترسيخ مفهوم الأمن، بدلا من القلاقل وسفك الدماء؛ ولا شك أن ذلك قبس من أخلاق الأنبياء والمرسلين التي جمعت إرادة اللين، والرحمة، والحكمة، والصبر، والحِلم، والرضا، والتحمُّل، والعزم عند العفو، والتسامح مهما كان ردّ فِعل المدعو.

ومن خلال القرآن نقف على بعض النماذج الدعوية في حكايته عن تسامح

(١) دعاة لا بغاة، جريشة، صـ ١٧٥ – ١٧٧.

الأنبياء في أممهم، وتحمُّلهم وصبرهم على نتائج النصيحة مع شِدّة معاناتهم وعزمهم في آن واحد، في سبيل تأمين المجتمعات وتهيئتها للسماع:

«وقد حكى القرآن الكريم موقف قوم نوح منه حين نصحهم بنزع الشرك، وكيف اتهموه بالضلال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٠]، فقد دعا نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قومه ودعاهم للخير حين خاطبهم، وعبَّر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة؛ ليتحققوا أنه ناصح متسامح، ومُريد خيرهم، ومُشفِق عليهم، وأضاف ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى ضميره؛ للتحبيب والترقيق لاستجلاب اهتدائهم، وقوله لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ إبطال للحالة التي كانوا عليها، حيث كانوا مشركين، بمدلول قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: أفرِدُوه بالعبادة ولا تُشركوا معه الأصنام، والمعنى: اتركوا عبادة غير الله خوفًا من عذاب يوم عظيم، وبنى نَظْم الكلام على خوفه عليهم دلالة على إمحاض النصح لهم، وحرصه على سلامتهم، حتى جعل ما يضرُّ بهم كأنه يضرُّ به[1].

«ثم نفى عنه التباس ضلالة ما به، دلَّ على أنه على الصراط المستقيم»[2]، وذلك في قوله ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾، وهو ردٌّ لقول الملأ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والملأ من قومه هم الرؤساء والأجلّة والأشراف، وسُمُّوا بذلك لأنهم ملئوا بما يحتاج إليه منهم، ويقال: لأنهم ملئوا الناظر هَيْبة إذا اجتمعوا في موضع، وفي رده عليهم بيان لأدب الخُلق في حسن الجواب والمخاطبة، لأنه

(١) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ابن عاشور، (١/ ١٥٦٢).
(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (٤/ ٣٢٤).

ردّ جهلهم بأحسن الجواب»[١]، «فإنهم جعلوا الضلال متمكنًا منه، فنفى هو أن يكون للضلال متلبس به، وجملة ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي ﴾ صفة لرسول أو مستأنفة، والمقصود منها إفادة التجدد، وأنه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم تأسيًّا لهم من متابعته إياهم، وأنه لهم ناصح، ونصيحته وقعت خالصة للمنصوح مقصودًا بها جانبه»[٢]، وهو مراده من قوله ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي «أمنعكم من الفساد، وأدعوكم إلى التوحيد، وأُحذِّركم من العذاب. وقال أهل اللغة: أنصح لكم وأنصحكم لغتان بمعنى واحد، كما يقال: شكرْتُ لكَ، وشكرْتُكَ»[٣]، وذلك في مجموعه يُحقِّق الأمن في مجتمعهم.

وجاءت الدعوة الحانية المتسامحة في نصيحة سيدنا هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعبادة الله وتوحيده، وكيف نازعه قومه وصبرَ على تسامحه في نصيحته وتحمَّلَ أذى ألسنتهم، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأعراف ٦٥-٦٧]، إنه نصحهم في تسامح بنبذ الشرك وهجرانه، فاتهموه بالسفاهة، وهي «الحُمْق والطيش وعدم البصيرة بالحياة حين خرج عن إجماع قومه، وواجههم بعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، واتهموه بالكذب حين قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾، فيما جئت به من الرسالة، ودعوت إليه من التوحيد ونبذ الآلهة غير الله تعالى، فأجاب هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رادًّا لشبهتهم فقال: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، فلست كما تزعمون أن بي سفاهة،

(١) بحر العلوم، السمرقندي، بتحقيق: د.محمود مطرجي، (١/ ٥٤٠).
(٢) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ابن عاشور، (١/ ١٥٦٣).
(٣) السمرقندي، بحر العلوم، (١/ ٥٤٠).

ولكني أحمل رسالة أبلغكموها، وأنا في ذلك ناصح لكم، مُريد لكم الخير، أمين على وحيّ الله تعالى إليّ، أمين لا أغشكم ولا أخونكم فما أريد لكم إلا الخير»[(١)].

ونبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصح قومه بترك الشرك والظلم، وبشَّرهم بأن الله سيُمكِّنُهم في الأرض، وسيُدخِلهم جنات تجري فيها الأنهار خالدين فيها أبدًا في الآخرة إن استجابوا لنصيحته، وكل الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- نصحوا أقوامهم. والأصل في ذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ مخاطبًا النبي الأمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكُلَّ من يملك مؤهلات الدعوة إلى يوم القيامة: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فبالحكمة والمجادلة تخاطب طاقة الفكر وبالموعظة الحسنة تخاطب عاطفة القلب، ومن خلال مخاطبة الفكر والقلب يرسخ الوازع الديني في النفوس.

وقد حفَّز النبي طُلَّابه من الدعاة إلى يوم القيامة بمكافأة الله تعالى لمن نصح بالهدى، وحذَّر من خالف بالنكال، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»[(٢)]، وهذا يُبيِّن حكمة رسول الله في نصيحته للدعاة أيضًا، ببيان مكافأة الله لمن دعا إلى الهدى وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

ثانيا: من صور التسامح وأثره في أمن المجتمع:

١) الحكمة والتلطُّف والحسن وتحقيق الأمن في العلاقات الاجتماعية:

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، الجزائري، ١٨٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم ٢٦٧٤، كتاب العلم، باب مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً وَمَنْ دَعَا إِلَى هُدًى أَوْ ضَلاَلَةٍ، (٨/ ٦٢).

إن الداعية يرُدّ الناس إلى الحق، ويذُبّ عن الفهم مجاهيل الفكر؛ لذا حثّ الله الدعاة على الحكمة والتلطُّف عند الدعوة فقال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

ودعوته إلى سَبيل ربه، «أي إلى الإسلام ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ بالمقالة المُحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضّح للحق المُزيل للشُّبهة ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنك تُناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها. ويجوز أن يريد القرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طُرق المُجادَلة من الرفق واللين، من غير فظاظة ولا تعنيف»[1]، وذلك أمر من الله تعالى لرسوله «بأن يدعو إلى دِين الله وشرعه بتلطُّف، وهو أن يسمع المدعو حكمة، وهو الكلام الصواب القريب الواقع من النفس أجمل موقع»[2]، وعليه فهو أمر لمن حمل على عاتقه مسئولية الدعوة إلى الله تعالى.

وقد «أمر الله جَلَّ وَعَلَا نبيه موسى وهارون -عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام-: أن يقولا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: ٤٤]، أي: كلامًا لطيفًا سهلًا رقيقًا، ليس فيه ما يُغضِب ويُنفِّر، والقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾[النازعات: ١٧-١٩]، وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته.

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (٢/ ٦٠).
(٢) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (٥/ ٥٣٠).

٢) الصبر والتصبر والاصطبار والعزم على المصابرة أداة للقضاء على الصِّدام الفكري:

إن الصبر والتصبُّر والاصطبار والمصابرة، صفات يضطلع بمعانيها الدعاة إلى الله تعالى عند الدعوة، وآليّة لتحقيق عدم الصدام الفكري، وأداة لامتصاص غضب المدعوين، وذلك «بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره: فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسُن إنْ كان خُلُقًا له ومَلَكه سُمِّي صبرًا، وإن كان بتكَلُّف وتمرُّن وتجرُّع لمرارته سُمِّي تصبُّرًا، كما يدل عليه هذا البناء لغة، فإنه موضوع للتكلُّف، كالتحلُّم والتشجُّع والتكرُّم والتحمُّل ونحوها، وإذا تكلَّفَه العبدُ واستدعاه صار سجيَّة له، وكذلك العبد يتكلَّف التعفُّف حتى يصير التعفُّف له سجيَّة، كذلك سائر الأخلاق»[(١)].

وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبُّر، فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتصبُّر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسُّب مقدمة الاكتساب، فلا يزال التصبُّر يتكرر حتى يصير اصطبارا، وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين: كالمشاتَمة، والمضارَبة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]»[(٢)]، والداعية يتقلَّب بين وجوه هذه الصفات المؤلمة عند دعوته، وهي متفاوتة في قوتها حسب طبيعة المنصوح: فمنهم من يحتاج إلى الصبر، ومنهم من يحتاج إلى تصبُّر، أو مصابرة، أو اصطبار، وهو يلاقي الكثير من الآلام من هذه الأشواك البشرية ما دام في طريق الدعوة؛ لأنهم يعتبرون نصحه لهم وأمره ونهيه فضولًا فيما لا يعنيه، وتدخُّلًا شخصيًّا لا يهُمُّه.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن قيم صـ ١٢.
(٢) عدة الصابرين، ابن قيم الجوزية، صـ ١٣.

ومعنى ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ «اصبِرُوا على دينكم، وصابِرُوا الوعد الذي وعدكم الله»[1] إذن فالمصابرة نتيجة الصبر، فلا يزال الداعية يصبر على خصوم دعوته حتى يصل إليها.

ومن هنا وجَّه الله تعالى نبيه إلى الصبر على خصومه، فتلك سُنَّة يلاقيها الدعاة عند البلاغ، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وذلك لِمَا لاقاه النبي من «تكذيب المشركين لرسالته، بجعلهم القرآن مُفترًى، واستهزائهم به، فأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، وضربَ له المَثَل بالرسل أولي العزم، وأولو العزم: أصحاب العزم، أي المُتَّصِفون به. والعزم: نية محققَّة على عمل أو قول دون تردد»[2].

٣) الحِلم والعفو والصفح عن المخالفين أدواتٌ لترويض نفسيَّة المخالفين:

من صفات الداعية أن يكون حليمًا متسامحًا في دعوته، وإن الناظر في سيرة أُسوة الدعاة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ليجد نموذجًا حيًّا في العفو، ليس مع المؤمنين فحسب، بل مع أعدائه أعداء الدين أيضًا، الذين أمر الله تعالى بمجالدتهم بالسيوف، غير أن تلك الصور من العفو كان لها أثرها في أنفس أولئك، وأدَّت ببعضهم إلى الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ، ليكون للدعاة أسوة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فلم يلجأ إلى العنف، مع من اعتدى عليه أو رماه بمنقصة، بل أحسن إليهم، فأثَّر هذا الإحسان على كثير منهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ

(١) النكت والعيون، الماوردي، (١/ ٤٤٤).
(٢) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ابن عاشور، (٢٦/ ٥٦).

ﱡﭐ... ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﱠ [المائدة: ١٣]، و«ظاهره الأمر بالمعروف والصفح عنهم جميعهم، وذلك بعث على حُسن التخلُّق معهم ومكارم الأخلاق»[(١)].

والدعاة المُخلِصون يَتَّصِفون بهذه الصفة الحميدة، التي تكون عاقبتُها توثُّقَ العلاقات، وزيادةَ المحبَّة، والْتِئامَ الصفوف، وقوَّةَ المسلمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]، والمراد منه أمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بالمصابرة على الابتلاء في النفسِ والمالِ، وتحمُّلِ الأذى، وتَرْك المُعارَضة والمُقابَلة، وذلك لأنه أقرب إلى دخول المُخالِف في الدين[(٢)].

* * *

(١) تفسير البحر المحيط، أبي حيان (٣/ ٤٦٢).

(٢) الحنبلي، أبو حفص، اللباب في علوم الكتاب، (٦/ ١٠١).

المبحث الثالث

أثر التسامح مع الآخر في ترسيخ الأمن الاجتماعي

إن التسامح يحمل القلوب إلى الاستكانة للمجتمع حُبًّا وانتماءً ودفاعًا؛ لأن الاستكانة للوطن تنبعث من التوجيه الإسلامي، وعلى أساسه يتكون التعامل مع الآخرين بمفهوم يتسع اتساع العلاقات الإنسانية بين بني البشر، وللتسامح حاكمية مُطلقَة على الروابط التي تكون لنسيج الوطن والمجتمع، وفيما يأتي نلقي الضوء على بعض آثار التسامح مع الآخر في تكوين الأمن الاجتماعي:

أولًا: تحقيق الأمن الاجتماعي في ظل المودة والرحمة بين المسلمين وغيرهم:

يقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

لعل هذه الآية من أوضح الآيات التي تميِّز بين الولاء وبين التسامح والبِّر وحُسن التعامل، فالآية تُرسِّخ مفهوم الأمن الاجتماعي لغير المسلمين في ديار الإسلام، والتسامح معهم في المعاملة، وعلى بِرِّهم والإحسان إليهم، طالما أنهم مسالمين ولهم ولاء وانتماء لوطنهم، «والروابط التي تجمع بين الناس كثيرة: فمن رابطة الدم، إلى رابطة الفكرة والمبدأ، ورابطة العمل والوظيفة، ورابطة الصداقة والصحبة، ورابطة الجنس والعرق، والرابطة التجارية والاقتصادية، ورابطة العقيدة التي تُعدّ من أقوى الروابط وأمتنها. وقوّة رابطة العقيدة لا تعني أنَّ أدب التعامل مع الآخرين لا يدور إلا في نطاقها، ولا يشمل التعامل مع أصحاب

العقائد الأخرى من غير المسلمين، بل إنَّ أدب التعامل يتسع ليشمل الإنسانية كلَّها، ولا بدّ لنا في هذا السياق من التفريق بين التسامح في التعامل مع الآخرين والولاء لهم، فإن الولاء هو المحبة والنصرة»[1]، والتسامح يعني مودتهم وبرَّهم.

ثانيا: تحقيق الانسجام والتعايش السلمي:

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة: ٥]، والآية أحلَّت طعام أهل الكتاب ونساءهم، وهما أمران يستلزمان التعايش والتساكن والانسجام.

وأكدت النصوص النبوية ما وردَ في الآيات القرآنية من انسيابية التسامح عند ممارسة مفهوم التعايش مع غير المسلمين المُسالِمين في واقع المجتمع الأول، وبإشراف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي جاءت مضامينها في السنة النبوية، ومن أبرزها ما يأتي:

١) عيادة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمرضاهم:

عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**كان غلام يهودي يخدم النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فمرض، فأتاه النبيُّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يعودُه، فقعد عند رأسه فقال له: أَسْلِمْ، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أَطِعْ أبا القاسم. فأَسْلَم، فخرج النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[2].

---

(١) شرح كتاب التوحيد، ابن عبد الوهاب، ص٣٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ١٣٥٦، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، (١/ ٤٥٥).

«ومن العلماء من قيَّد عيادة المريض برجاء دخوله في الإسلام، ومنهم من أجاز بإطلاق»[1].

٢) قبول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهديتهم:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لما فُتحت خيبر أُهدَيت لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاة فيها سُمّ فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجمعوا إلي من كان ها هنا من يهود. فجمعوا له فقال: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ عنه؟ فقالوا: نعم، قال لهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أبوكم؟ قالوا: فلان. فقال: كذبتم، بل أبوكم فلان. قالوا: صدقتَ. قال: فهل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتُ عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبْنا عرفت كَذِبَنا كما عرفتَه في أَبينا. فقال لهم: مَن أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلُفُونا فيها. فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اخسئوا فيها والله لا نخلُفُكم فيها أبدًا، ثم قال: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا؟ قالوا: نعم. قال: ما حمَلَكم على ذلك؟ قالوا: أردْنَا إن كنتَ كاذبًا نستريح، وإن كنتَ نبيًّا لم يضُرَّك**»[2].

والشاهد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبِل الهدية من غير المسلمين، وهذا يدلُّ على الانسجام في التعايش، رغم مخالفتهم في العقائد، ومخالفتهم لما جاء به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومكرهم وخداعهم، وعدم صدقهم، وخيانتهم.

---

(١) قال ابن بطَّال: إنما تُشرع عيادته إذا رجا أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فأما إذا لم يطمع في ذلك فلا. وقال ابن حجر: والذي يظهر أن ذلك يختلف باختلاف المقاصد فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى. وقال الماوردي: عيادة الذمي جائزة والقربة موقوفة على نوع حرمة تقترن بها من جوار أو قرابة. راجع فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي، (ط.دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩) (١٠/ ١١٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم، ٣١٦٩، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم، (٣/ ١١٥٦).

■ ٣) **تعامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم بالاستدانة والرهن:**

انساب التعايش في الوطن مع غير المسلمين بصورة فائقة، فقد تسامح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع اليهود في المعاملات المالية رغم نكثهم وخيانتهم، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير»(١).

وهذا الحديث يدلُّ على مدى عمق التواصل المجتمعي والتعايش مع غير المسلمين تحت مفهوم المُواطَنة وبعيدًا عن الموالاة.

■ ٤) **قيام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجنازتهم واحترام آدميتهم:**

قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متسامحا لجنازة يهودي، وتعامل معهم على أساس إنساني ومفهوم تعايشي، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**مرَّ بنا جنازة، فقام لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقمنا معه، فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي، قال: إذا رأيتم الجنازة فقوموا**»(٢).

ويترجم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سرّ قيامه بعِلَّة تقدير الكرامة الإنسانية في حديث عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض – أي من أهل الذمة – فقالا: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي. فقال: أليست نفسًا؟!»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ٢٩١٦، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقميص في الحرب، (٣/ ١٠٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ١٣١١، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، (٣/ـ١٠٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ١٣١٢، كتاب الجنائز باب من قام لجنازة يهودي، (٣/ ٥٨).

وبذلك تعامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع غير المسلمين في الدولة على أساس المُواطَنة القائمة على العلاقات الإنسانية بين بني آدم.

٥) وثيقة المدينة وترسيخ الأمن الاجتماعي من خلال التسامح:

إن وثيقة المدينة هي أعظم الوثائق الدستورية الإسلامية في الدولة الإسلامية لحقوق المُواطَنة منذ بزوغ شمسها بالمدينة المنورة (سنة ١ هجرية وسنة ٦٦٢ ميلادية)، **ومما جاء في وثيقة المدينة:**

«وإنه من تَبِعَنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أُمّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسَه وأهلَ بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بن عوف، وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأَوْس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظَلَم وأَثِم فإنه لا يُوتِغ إلا نفسَه وأهلَ بيته، وإنَّ جَفْنَةَ بَطْنٌ من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشَّطِيبَة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البِرَّ دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بِطَانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنه لا يُنحَجَزُ على ثَأْرٍ جُرْحٌ، وإنه من فتَك فبنفسه فتَك وأهل بيته إلا من ظَلَم.

وإن الله على أبَرِّ هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصرَ على من حاربَ أهلَ هذه الصحيفة، وإن بينهم النصحَ والنصيحةَ والبِرَّ دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود

يُنفِقون مع المؤمنين ما داموا مُحارَبين»[١].

وكانت تلك الوثيقة نقطة انطلاق لعدة حقوق كفلها الإسلام لغير المسلمين، في صورة تسامحية تُرسِّخ مفهوم المُواطَنة باتساع شديد؛ ليستوعب غير المسلمين على الأساس الإنساني عالية لا تُرى في أيَّة مِلّة أو نِحْلة.

ثالثا: تحقيق مفهوم المُواطَنة بين المسلمين والآخر بشكل آمن:

«سخَّر الله بتسامح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلوب الناس له، حتى زجَّ فيها عناصر الأخلاق واحدًا تلو الآخر، وأقام وطَن الإسلام على التسامح والبِرّ والوئام، ومن يلج مسير التاريخ يُدهَش في وقائعه وهو يستقرئ بين دفتيه كثيرًا من هذه المَشاهد التي حطَّت ركاب القلوب عند طاعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستسلِمة وخاضِعة.

وذلك التسامح هو ضمانة بقاء غير المسلمين في الوطن الإسلامي ليعيشوا فيه حياة كريمة، فقد شملهم الإسلام بيُسره ورِفقه؛ فتسامح معهم في كثير من القضايا والأحكام، ومنحهم كثيرًا من الحقوق»[٢]، وفي حادثة «ثُمامَة» وإسلامه شاهد عظيم يُثبِت أن مثل هذا الموقف لم يك عابرًا ولا وحيدًا، وأن تسامح النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع غير المسلمين في الوطن الإسلامي ثابت لا يتغير، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**بعَثَ النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **خيلًا قِبَل نَجْد؛ فجاءت برَجُل من بني حنيفة يقال له (ثُمَامَة بن أُثال)، فربطوه بسارية من سواري المسجد؛ فخرج إليه النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فقال: (ما عندك يا ثُمامَة)؟ فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعِم تُنعِم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئتَ، فتُرِك حتى كان الغد فقال: (ما عندك يا ثمامة)؟ فقال: ما قلتُ لك، إن تُنعِم**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المعافري، (٣/ ٣٣).

(٢) الاستعانة بغير المسلمين، لطريقي، (١/ ١٨).

تُنعِم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: (ما عندك يا ثمامة) ؟ فقال: عندي ما قلتُ لك، فقال: (أطْلِقُوا ثُمامَة)، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ دين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ، وإنَّ خَيْلَك أخذتني وأنا أريد العُمرة؛ فماذا ترى؟ فبشَّرَه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره أن يعتمر؛ فلَمَّا قَدِم مكة قال له قائل: صبوتَ؟!، قال: لا، ولكن أسلمتُ مع محمد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حِنْطة حتى يأذن فيها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(١)].

إنها مشاهد تُبرِز عَظَمة الإسلام في مراعاة حقوق غير المسلمين والتسامح معهم، وبهذا التسامح فتَحَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلوبًا تلَهَّت بعبادة الحجارة والأوثان، وتلذَّذت بتُرَّاهات الجاهلية، وشهد التاريخ بذلك.

رابعا: تحقيق حقهم في التقاضي ودفع الظلم عنهم:

قال تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، فإن لم يتحاكموا إلينا، كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمي عندهم لأصل إلهي، قال تعالى: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ٢٤٢٢، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، (٤/ ١٥٨٩).

ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤٣][1].

وهذا تطبيق واضح لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

أي: «لا يحمِلَنَّكم بُغْض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد في كل حال، وقال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السماوات والأرض. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سَهْلُ بن عثمان، حدثنا عبدُ الله بن جعفر، عن زيد بن أسلم قال: «كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحديبية وأصحابه حين صدَّهم المشركون عن البيت، وقد اشتدَّ ذلك عليهم، فمرَّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق، يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نصُدّ هؤلاء كما صدَّنا أصحابُهم، فأنزل الله هذه الآية»[2].

«فعاشوا فى أكنافها محاطين بنعمة العدل والإنصاف من المسلمين؛ وذلك لِما نحمله من قيم ومبادئ عظيمة وأحكام عادلة لأهل الذمة يعجز الغرب والشرق أن يعمل مثلها، فإذا بهم يعيشون في رغد من العيش، فالعدل في حقيقته تجسيد لأفكار الرسالة ومثلها الأعلى، وبقاؤها المحور الذى يدور في فلكه الأشخاص والأشياء»[3].

(١) الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، الصَّلاَّبي (١/ ٩٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٢/ ١٢) .

(٣) الكيلاني، أهداف التربية الإسلامية فى تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية، صـ ٣٢١، ٣٢٢.

والتاريخ الإسلامي المجيد زاخر بمواقف عملية كثيرة تُؤكِّد وتُطبِّق قيمة العدل العظيمة، ويشهد لذلك أيضا موقفُ يهود الدونمة، عندما وقع عليهم الظُّلم والخَسْف في محاكم التفتيش.

قرَّر الإسلام الحماية القانونية للمواطنين من غير المسلمين، وكفل لهم المساواة أمام القضاء، وظهر ذلك عندما «جاء رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال له: يا أمير المؤمنين، لقد تسابقتُ مع ابن عمرو بن العاص والي مصر، فسبقتُه فضربني بسوطه، وقال لي: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فلتحضر إلي ومعك ابنك، فلما حضرَا أعطى عمر بن الخطاب السوط للرجل المصري ليضرب ابن عمرو قائلا له: (دونك الدُّرَّة فاضرب ابن الأكرمين)!!»[1].

وقد كفَلَ الإسلامُ غير المسلمين داخل الواطن الإسلامي في التقاضي، «فعن إبراهيم بن يزيد التيمي، عن أبيه قال: وجد علي بن أبي طالب دِرْعًا له عند يهودي التقطها فعرفَها فقال: دِرْعي سقطَتْ عن جَمَل لي أَوْرَق، فقال اليهودي: دِرْعي وفي يدي. ثم قال له اليهودي: بيني وبينك قاضي المسلمين، فأتوا شُريحًا، فلما رأى عليًّا قد أقبل تحرَّف عن موضعه وجلس علي فيه، ثم قال علي: لو كان خصمي من المسلمين لساويته في المجلس، ولكني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **(لا تُساووهم في المجلس وألْجِئُوهم إلى أضيق الطرق، فإن سَبُّوكم فاضربوهم، وإن ضربوكم فاقتلوهم)**.

ثم قال شُرَيح: ما تشاء يا أمير المؤمنين؟ قال: دِرْعي سقطت عن جمل لي أَوْرَق والتقطها هذا اليهودي، فقال شُرَيح: ما تقول يا يهودي؟ قال: درعي وفي

---

(١) مناقب عمر، ابن الجوزي، صـ ٩٨، ٩٩.

يدي. فقال شُرَيح: صدقتَ والله يا أمير المؤمنين أنها لَدِرْعُك، ولكن لا بد من شاهدَيْن، فدعَا قَنْبَرًا مولاه والحَسنَ بن علي، وشهدَا أنها لَدِرْعُه، فقال شُرَيْح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك لك فلا نُجِيزها. فقال علي: ثكلتك أمك، أما سمعتَ عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الحسن والحسين سيِّدَا شباب أهل الجنة؟ قال: اللهم نعم. قال: أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة؟! والله لأوجهنك إلى بَانْقِيَا تقضي بين أهلها أربعين يومًا.

ثم قال لليهودي: خذ الدِّرْع، فقال اليهودي: أمير المؤمنين جاء معي إلي قاضي المسلمين، فقضى عليه ورضي! صدقتَ والله يا أمير المؤمنين، إنها لَدِرْعُك سقطَتْ عن جملٍ لكَ التقطتُها، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فوهبها له عليٌ وأجازه بتسعمائة، وقُتِل معه يوم صِفِّين - السياق لمحمد بن عون- وقال عبد الله بن سليمان: فقال علي: الدِّرْع لكَ، وهذا الفرس لكَ، وفرَضَ له في تسعمائة، ثم لم يَزَل معه حتى قُتِل يوم صِفِّين»(١).

***

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصبهاني، وقال عنه: غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، تَفَرَّدَ بِهِ حَكِيمٌ، وَرَوَاهُ أَوْلَادُ شُرَيْحٍ عَنْهُ عَنْ عَلِيٍّ نَحْوَهُ (٤/ ١٣٩)، وذكره الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني، في سبل السلام، (٤/ ١٢٥)، وورد في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، (٧/ ٢٦).

الخاتمة

من خلال التطواف العلمي السابق، يظهر لنا جليًّا أثرُ التسامح في ترسيخ الأمن الاجتماعي بكل أشكاله، ومن خلال ما سبق نَصِل إلى عِدّة نتائج وتوصيات:

أولًا: أهمُّ النتائج:

١) **أنَّ الإسلام كفَلَ بتسامحه أمْنَ المجتمعات**، وانتظمت تحت منهاجه كافَّةُ أنساقها على اختلاف لغاتها وعقائدها وتوجهاتها، بضوابط الإسلام التي ضمنت تحقيق الأمن.

٢) **عالجَ الإسلام بالتسامح والبرِّ والقِسط** مشكلات غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية، وضَمِن حقوقهم وأحسَنَ إليهم.

٣) **ليس الأمن الاجتماعي على أساس التسامح موقوتًا بتاريخ**، أو مُحدَّد بزمان، أو مرتبط بحقبة تاريخية معينة، بل هو تشريع ربَّاني أصيل يشمل الزمان (أيّ زمان)، والمكان (كُلّ مكان)، ولو راجَعْنا التاريخَ وجَدْنا ذلك.

٤) **أنَّ القرآن والسنة النبوية** يؤكدان انسيابية ممارسة التسامح والأمن مع غير المسلمين المُسالِمين، ويشهد لذلك واقع المجتمع الأول وبإشراف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، والتي جاءت مضامينها في السنة النبوية.

ثانيًا: أهمُّ التوصيات:

١) **عَقْد ندوات ومؤتمرات عالمية يُدعى فيها كُلُّ أصحاب الديانات والنِّحَل؛** لكشف حقيقة الإسلام في ترسيخ مفهوم الأمن الاجتماعي، بالتسامح مع

كل الأنساق على اختلافها.

٢) **تكثيف الجهود العلمية من قِبَل المؤسسات الحكومية والخيرية والإعلامية،** في إبراز تأكيد الإسلام للتسامح والعيش الآمن في الأوطان تحت ظلاله.

٣) **إصدار منشورات تثقيفية لعناصر المنظومة المجتمعية،** تدعو إلى التسامح داخل الأوطان تحقيقًا للأمن والنهوض والتوافق، ونبذ الخلاف والافتراق.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

المصادر والمراجع

١. **شرح صحيح البخارى**، ابن بطال (أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، (ط. مكتبة الرشد – السعودية، طبعة ثانية ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م).

٢. **مناقب عمر**، ابن الجوزي، (ط. دار الكتب العلمية، بدون تاريخ).

٣. **جوامع السيرة**، ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد، الأندلسي، الظاهري، تحقيق إحسان عباس (ط. دار المعارف – مصر، ط. أولى، بدون تاريخ).

٤. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي، (ط.دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩).

٥. **زاد المعاد**، ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر، (ط. مؤسسة الرسالة، بيروت).

٦. **البداية والنهاية**، ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، (ط. مكتبة المعارف، بيروت، بدون تاريخ).

٧. «**الخراج**»، أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، (ط.دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ).

٨. **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، (ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، طبعة ثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م).

٩. **سنن ابن ماجه**، ابن ماجه، (المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ).

١٠. **سنن أبي داود**، أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (ط. دار الكتاب العربي بيروت، بدون تاريخ).

١١. **المجتمع الإنساني فى ظل الإسلام**، أبو زهرة، محمد، (ط. الدار السعودية للنشر والتوزيع- جدة، طبعة ثانية، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م).

١٢. **الفروق**، أبو العباس أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق عمر حسن القيام، (مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م).

١٣. **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (دار الكتب المصرية – القاهرة، طبعة ثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).

١٤. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مسند الأنصار، مؤسسة الرسالة، ط. ثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م).

١٥. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، (ط. دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩).

١٦. **القاموس السياسي**، أحمد عطية الله، (ط. دار النهضة العربية، ط. ثانية، سنة ١٩٦٨م).

١٧. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، (ط. السعادة، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م).

١٨. **صحيح الترغيب والترهيب**، الألباني، محمد ناصر الدين، (مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الخامسة).

١٩. **الجامع الصحيح المختصر**، البخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي) تحقيق: مصطفى ديب البغا، (ط.دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط. ثالثة، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م).

٢٠. **معالم التنزيل**، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، تحقيق: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، (ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م).

٢١. **فتوح البلدان**، البلاذي، (ط القاهرة سنة ١٩٣٢م).

٢٢. **سنن البيهقي الكبرى**، البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (ط. دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ – ١٩٩٤).

٢٣. **شعب الإيمان**، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، (ط. دار الكتب العلمية – بيروت، طبعة أولى، ١٤١٠هـ).

٢٤. **مشكاة المصابيح**، التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، (ط. المكتب الإسلامي – بيروت، ط. ثالثة – ١٤٠٥ – ١٩٨٥م).

٢٥. **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، كتاب المناقب، باب فضل مكة

(ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون تاريخ).

٢٦. **التعريفات**، الجرجاني، علي بن محمد بن علي، تحقيق: إبراهيم الأبياري (ط. دار الكتاب العربي - بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٥هـ).

٢٧. **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام**، جواد علي، (ط. دار الساقي، طبعة رابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

٢٨. **المستدرك**، الحاكم، (ط دار المعرفة - بيروت، بدون تاريخ).

٢٩. **نظرية القيم السياسية**، حامد ربيع، (مكتبة القاهرة الحديثة، سنة ١٩٧٢م).

٣٠. **مجموعة الوثائق السياسية، في العهد النبوي والخلافة الراشدة**، حميد الله، (ط القاهرة سنة ١٩٤١م).

٣١. **الأعلام**، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، (ط. دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، ٢٠٠٢م).

٣٢. **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري (ط. دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

٣٣. **مختار الصحاح**، الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، تحقيق: محمود خاطر (ط. مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥ - ١٩٩٥).

٣٤. **عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين**، رضا، محمد رضا، (ط دار الكتب العلمية، ط ثالثة، سنة ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م).

٣٥. **مناهل العرفان في علوم القرآن**، الزرقاني، محمد عبد العظيم، (ط. عيسى البابي الحــلبي، طبعة ثالثة، بدون تاريخ).

٣٦. **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار**، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (ط. إدارة الطباعة المنيرية، بدون تاريخ).

٣٧. **العدالة الاجتماعية في الإسلام**، سيد قطب، (ط.دار الشروق: القاهرة، ٢٠٠٢).

٣٨. **الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية**، الصلابي، عَلي محمد محمد، (المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ط. أولى، بدون تاريخ).

٣٩. **في سبل السلام**، الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني، (ط. الباب الحلبي، ط. الرابعة ١٣٧٩هـ، ١٩٦٠م).

٤٠. **تاريخ الأمم والملوك**، الطبري، (ط القاهرة، سنة ١٩٧٩م).

٤١. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (نشر جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويت، ١٤٢٢هـ الموافق ٢٠٠١م).

٤٢. **الاستعانة بغير المسلمين**، عبد الله الطريقي، (ط. رئاسة إدارات البحوث العلمية، الرياض، بدون تاريخ).

٤٣. **السيرة النبوية لابن هشام**، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، (الناشر دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ).

٤٤. **الموسوعة السياسية**، عبد الوهاب الكيالي، (المؤسسة العربية للدراسات

والنشر، ط. أولى، سنة ١٩٨٧م).

٤٥. **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري، تحقيق: بكري حياني (ط. الرسالة، ط. الخامسة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٤٦. **كتاب العين، باب الطاء والنون**، الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، (ط.دار ومكتبة الهلال، بدون تاريخ).

٤٧. **في ظلال القرآن**، قطب، سيد قطب، (القاهرة دار الشروق، ط ٢٥، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م).

٤٨. **أهداف التربية الإسلامية فى تربية الفرد وإخراج الأمة وتنمية الأخوة الإنسانية**، ماجد عرسان الكيلاني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة إسلامية المعرفة ٢٠، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م).

٤٩. **نظم الأمن والعدالة فى الإسلام**، محمد الحسيني عبد العزيز. (ط. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢).

٥٠. **المجتمع الإسلامي وأصول الحكم**، محمد الصادق عفيفي، (ط.دار الاعتصام – القاهرة، ط. أولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

٥١. **لسان العرب، باب قلل**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، (ط. دار صادر – بيروت، ط. أولى، بدون تاريخ).

٥٢. **الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم**، مسلم، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، (دار الجيل بيروت، د. ت).

٥٣. **النسائي،** أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، (مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، طبعة ثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦).

٥٤. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،** الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي) (دار الفكر، بيروت - ١٤١٢ هـ).

٥٥. **المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج،** النووي، يحيى بن زكريا، (ط.دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان).

٥٦. **بحوث في الإسلام والمجتمع،** وافي، علي عبد الواحد، (ط القاهرة سنة ١٩٧٧م).

٥٧. **الموسوعة الفقهية،** وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، (الكويت، ط. ثانية، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م).

❁ ❁ ❁

الفهرس

مجلة تدبر

البحث الرابع :

مِنْ أُصُولِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ



أ.د. عَبْدُ الفَتَّاحِ مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ خِضْر

أستاذ ورئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر

عضو الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه {تبيان}

Khedr299@hotmail.com

- حصل على درجة الماجستير من كلية اصول الدين والدعوة بطنطا ـ جامعة الأزهر في التفسير وعلوم القرآن بأطروحته: (المجمل والمبين في القرآن الكريم).
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية اصول الدين والدعوة بطنطا ـ جامعة الأزهر في التفسير وعلوم القرآن بأطروحته: (العلامة الجمل وحاشيته على تفسير الجلالين تحقيق ودراسة).

- من مؤلفاته:
- ١) تفسير سورة يوسف تفسيرا تحليليا
- ٢) الحزب الثاني من القرآن الكريم دراسة بيانية
- ٣) علم الدخل
- ٤) عادات العربية القولية في ضوء القرآن الكريم
- ٥) العلامة الجمل وحاشيته على تفسير الجلالين تحقيق ودراسة

ملخَّص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن بحثي هذا الموسوم بـ«من أصول تفسير القرآن بالقرآن» يُعنى بالجانب التأصيليّ للنوع الأحسن من أنواع التفسير؛ وهو تفسير القرآن بالقرآن.

وتكْمُن أهميةُ التأصيل العِلميَّة للعلوم في إرجاعها إلى معايير معينة نحتكم إليها عند اللزوم، وهذا له ما بعده.

وتفسير القرآن بالقرآن له أصول مُقرَّرة نستطيع الوقوف عليها من خلال القرآن الكريم ذاته، ومن خلال صنيع أهل الرسوخ في العلم من سادتنا المُفسِّرين.

وللحقيقة أقول: إن عدم تأصيل الأصول العِلميَّة المتعلِّقة بتفسير القرآن بالقرآن حتى وقتنا هذا، عرَّض كتاب الله للفَهْم الشاذِّ، والتكلف المردود في تناول ألفاظ القرآن الكريم ونصوصه، وسمَح لكل زاعق وناعق أن يلج مولج المُفسِّرين؛ مما أغرى الجُهَّال بالاجتراء على كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

الهدف من هذه الدراسة:

إيقاظ هِمَم السادة العلماء المتخصصين - في زمن اختلاط المفاهيم - لبذل الوُسع تجاه تراثهم التفسيري، ولنفي ما لحق به من تَحْرِيف، أو انتحال، أو تَأْويل لا يليق، وذلك من خلال جهود علمية صادقة تضع معايير (مقاييس وموازين) تستخلص من خلالها أصول تفسير القرآن بالقرآن، ليصير عِلْمًا ضابطًا لبيان القرآن الكريم، يبدأ بالفهم السليم، وينتهي إلى الاستنباط الأمثل.

■ **وهذا الهدف يمثل جانبين:**

الأول: نظريّ؛ حيث إبراز العلم التأصيليّ المعياريّ الضابط لقبول تفسير القرآن بالقرآن، وما ينبغي أن يكون عليه القبول أو الرفض.

والثاني: تطبيقيّ؛ حيث النماذج التطبيقيَّة لصور تفسير القرآن بالقرآن.

منهج البحث:

سرْتُ في بحثي هذا على المنهج الاستقرائيّ التقعيديّ التطبيقيّ، حيث استقرأتُ ما عليه أثبات العلماء، وما أرسَوْه من قواعد يقينيَّة تُقرِّر أصول تفسير القرآن بالقرآن ومتى يُقبَل، ثم أَتبعتُ ذلك بجانبٍ تطبيقيٍّ عمَليٍّ تمثيليٍّ.

ويُهيب البحث والباحث بألا يتكلم في تفسير القرآن إلا من استكمل شروط المُفسِّر وجمَعَ أدواته العِلميَّة، ووقَفَ على معايير جزئياته؛ حتى لا يقع في الخطأ؛ فيَضلَّ ويُضِلَّ.

كما يُوصي بتدريس معايير التفسير وأصوله كمادَّة تأسيسيَّة لطلابنا المتخصِّصين، مع الإفادة من مستجدات ما يُصنَّف في هذا الشأن، وهذا البحث لَبِنة في ميدان هذه التوصية.

الكلمات المفتاحية:

أصول، تفسير، معايير، القرآن، استنباط.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن تأصيل العلوم بإرجاعها إلى معايير معينة نحتكم إليها عند اللزوم من الأهمية بمكان، وتفسير القرآن بالقرآن له أصول مُقرَّرة نستطيع الوقوف عليها من خلال القرآن الكريم ذاته، ومن خلال صنيع أهل الرسوخ في العِلم من سادتنا المُفسِّرين.

وللحقيقة أقول: إن عدم تأصيل الأصول العِلميَّة المتعلِّقة بتفسير القرآن بالقرآن حتى وقتنا هذا، عرَّض كتاب الله للفهم الشاذ، والتكلُّف المردود في تناول ألفاظ القرآن الكريم ونصوصه، وسمَح لكل زاعق وناعق أن يلِج مولج المُفسِّرين؛ مما أغرى الجُهَّال بالاجتراء على كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

والأمة اليوم - في زمن اختلاط المفاهيم - يجب عليها أن تقف عند تراثها التفسيريّ، تنفي ما لَحِق به من تَحْرِيف أو انتحال، كما تنفي عنه أي تَأْويل لا يلِيق، وذلك من خلال جهود عِلميَّة صادقة، تضع معايير تستخلص من خلالها أصول تفسير القرآن بالقرآن، ليصير عِلْمًا ضابِطًا لبيان القرآن الكريم، يبدأ بالفهم السليم، وينتهي إلى الاستنباط الأمثل.

وأقصد بهذا البحث الكشف عن المعايير (المقاييس والموازين) الضابطة لاعتماد كل أصل من أصول تفسير القرآن بالقرآن، ببيان ما ينبغي أن يكون عليه، تأمينًا لفهمه فهمًا مستقيمًا.

وهذه الدراسة تمثل جانبين:

الأول منهما مَعْنِيّ بالتنظير، حيث إبراز العلم التأصيليّ المعياريّ الضابط لقبول تفسير القرآن بالقرآن، وما ينبغي أن يكون عليه القبول أو الرفض.

والجانب الثاني مَعْنِيّ بالتطبيق، حيث النماذج التطبيقيَّة لصور تفسير القرآن بالقرآن.

هذا وقد سِرْتُ في بحثي هذا على المنهج الاستقرائيّ التقعيديّ التطبيقيّ، حيث استقرأتُ ما عليه أثباتُ العلماء، وما أرسَوْه من قواعد يقينيَّة تُقرِّر أصول تفسير القرآن بالقرآن ومتى يُقبَل، ثم اتبعت ذلك بجانب تطبيقيّ عمليّ تمثيليّ.

وقد بذلتُ فيه وُسعي بقدر طاقتي، والله الموفِّق والمستعان.

* * *

المطلب الأول

معايير صحَّة تفسير القرآن بالقرآن

المعيار الأول: أن يكون القرآن ذاته هو المُفسِّر للقرآن:

بيَّن العلماء أن تفسير القرآن بالقرآن هو أحكَم أنواع التفسير وأحسنُها، حيث نقلوا «إجماع العلماء على أن أشرفَ أنواع التفسير وأجلَّها تفسير كتاب الله بكتاب الله؛ إذ لا أحد أعلمَ بمعنى كلام الله جَلَّجَلَالُهُ من الله جَلَّوَعَلَا»[(١)].

ومن قبل قال الزمخشريّ في الكِشاف: «وأسَدُّ المعاني ما دلَّ عليه القرآن»[(٢)].

وقال ابن القيِّم: «تفسير القرآن بالقرآن أَوْلى التفاسير وأبلغُها ما وجد إليه سبيلًا»[(٣)].

وقد نقل ابن كثير قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا أَحْسَنُ طُرُقِ التَّفْسِيرِ؟ فَالْجَوَابُ: إِنَّ أَصَحَّ الطُّرُقِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُفَسَّرَ الْقُرْآنُ بِالْقُرْآنِ، فَمَا أُجمِلَ في مكان فإنه قد بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وما اخْتُصِرَ من مكان فقد بُسِطَ في موضع آخر»[(٤)].

هذه الأقوال السالفة تُحمَل بلا ريب على تفسير الله تعالى المتكلِّم بالقرآن لكلامه عَزَّوَجَلَّ اتصالًا أو انفصالًا[(٥)]، وهذا المعيار لا يختلف فيه اثنان، ولا مجال

(١) أضواء البيان للشنقيطي (١/ ٨). وعبارة د. الذهبي تتفق مع ما علَّل به الشنقيطي وجه الأحسنية لهذا النوع من التفسير بقوله: «لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه وأعرفُ به من غيره». التفسير والمفسِّرون (١/ ٣١).

(٢) الكشاف، الزمخشريّ، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٥/ ٢٤٥).

(٣) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم (١/ ١١١).

(٤) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية: ٣٩. وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٨.

(٥) أقصد بالاتصال: أن تأتي الآية أو الآيات المفسِّرة متعاقبة مجاورة للآية المفسَّرة، وأقصد بالانفصال: أن تكون الآية المبيِّنة منفصلة في نفس السورة أو في سورة أخرى، ولا يختلف اثنان في تلازم الآيتين=

فيه للاختلاف أصلًا، بخلاف ما إذا توسَّعنا في هذا المعيار بأن نجعل تفسير القرآن بالقرآن معتمِدًا على إعمال الفِكْر بالنظر إلى حيثيَّة معينَّة في الآية، هذه الحيثيَّة تُثير سؤالًا أو استشكالًا مُعيَّنًا أجدُ جوابَه بإعمال الفِكْر، وبذْل الجُهْد، وإفراغ الوُسْع في التدبُّر والتفحُّص في آيات القرآن العظيم، وبالرجوع إلى أدوات المُفسِّر على اختلاف تصانيفها وفنونها اللغويَّة والأصوليَّة والعَقَديَّة... إلخ، كل ذلك مزدان بعِلم الموهبة الممنوحة من ربّ العباد إلى من أخلصَ في حاله مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وتفسير القرآن بالقرآن ليس تفسيرًا متعلقًا ببيان المفردة لغويًّا أو تحليليًّا، فهذا مقدور المفسر من العلماء، لكن ما ليس مقدوره هو هذا البيان الذي يُوقِفنا على هداياتٍ وتوجيهاتٍ وأسرارٍ هي مضمون مُرادات الله من اللفظ المُبيَّن قرآنيًّا.

۞ وعلى هذا فإن هذا المعيار - كما هو واضح من عنوانه - ينقسم إلى قسمين:

صريح، وهو ما لا دخل للعلماء فيه: كبيان المُجمَل، وتخصيص العامِّ، وتقييد المُطلَق، وتأويل الظاهر، وحَمْل قصص الأنبياء والأُمم السابقة بعضه على بعض إيجازًا وبسطًا، وغير ذلك مما يتفق مع خطِّ الأُصوليين في كُتبهم[(١)] مما لا يتطرَّق إليه الاحتمال.

والقسم الثاني: شديد الشبه بالصريح لقُرآنيته، والذي أبعده عن الصراحة في تفسير القرآن بالقرآن هو بذل المجهود، وشدة التأمل والتدبر من العلماء من أجْلِ الوصول إلى تلاقي الآيات على سبيل الإيضاح والبيان.

وهذا لا يُقبل إلا بعد التيقُّن من سلامة العقيدة، وسلامة اللسان باستجماع

= (المفسَّرة والمفسِّرة) لكن دور العالم في الجمع بين الآيتين.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١: ٢٧.

المفسِّر لعلوم الآلة، التي من خلالها يكون البيان، مع الابتعاد عن مجرَّد التشابه اللفظيِّ؛ لذا ينبغي التنبُّه لذلك وغيره مما يُوقع المُفسِّر في خطأ شنيع: هو حُكمه على صنيعه بأنه تفسير القرآن بالقرآن.

كما حذَّر الأصبهانيُّ من التلفيق في تفسير القرآن بالقرآن، حيث قال: «بأن يُلفِّق بين اثنين، نحو قول من زعَم أن الحيوانات كُلَّها مُكلَّفة محتجًّا بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر ٢٤]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، فدلَّ بقوله: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أنهم مُكلَّفون كما نحن مُكلَّفون»(١).

(١) تفسير الراغب: ص١١. بيان أن الحيوانات غير مكلفة رغم أنها أمم أمثالنا، يكون بمعرفة أن المثليَّة ليست من جميع الوجوه كما أفاض في ذلك علماء التفسير، ومنهم العلَّامة الرازيّ في «مفاتيح الغيب» (١٢/ ٥٢٤) حيث قال ما نصه: «الْآيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الدَّوَابَّ وَالطُّيُورَ أَمْثَالُنَا، وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمُمَاثَلَةَ فِي أَيِّ الْمَعَانِي حَصَلَتْ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: الْمُرَادُ حُصُولُ الْمُمَاثَلَةِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ وَإِلَّا لَكَانَ يَجِبُ كَوْنُهَا أَمْثَالًا لنا في الصورة والصِّفَةِ وَالْخِلْقَةِ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ؛ فَظَهَرَ أَنَّهُ لَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْمُمَاثَلَةَ حَصَلَتْ فِي أَيِّ الْأَحْوَالِ وَالْأُمُورِ فَبَيِّنُوا ذَلِكَ.

وَالْجَوَابُ: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَعْيِينِ الْأَمْرِ الَّذِي حَكَمَ الله تَعَالَى فِيهِ بِالْمُمَاثَلَةِ بَيْنَ الْبَشَرِ وَبَيْنَ الدَّوَابِّ وَالطُّيُورِ، وَذَكَرُوا فِيهِ أَقْوَالًا:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: نَقَلَ الْوَاحِدِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «يُرِيدُ: يَعْرِفُونَنِي وَيُوَحِّدُونَنِي وَيُسَبِّحُونَنِي وَيَحْمَدُونَنِي». وَإِلَى هَذَا الْقَوْلِ ذَهَبَ طَائِفَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَقَالُوا: إِنَّ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ تَعْرِفُ الله وَتَحْمَدُهُ وَتُوَحِّدُهُ وَتُسَبِّحُهُ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٤٤]، وَبِقَوْلِهِ فِي صِفَةِ الْحَيَوَانَاتِ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النُّورِ: ٤١] وَبِمَا أَنَّهُ تَعَالَى خَاطَبَ النَّمْلَ وَخَاطَبَ الْهُدْهُدَ، وَقَدِ اسْتَقْصَيْنَا فِي تَقْرِيرِ هَذَا الْقَوْلِ وَتَحْقِيقِهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: الْمُرَادُ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ فِي كونها أُممًا وجماعات، وفي كونها مَخْلُوقَةً بِحَيْثُ يُشْبِهُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيَأْنَسُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَيَتَوَالَدُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ كَالْإِنْسِ، إِلَّا أَنَّ لِلسَّائِلِ أَنْ يَقُولَ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لَا يُفِيدُ فَائِدَةً مُعْتَبَرَةً؛ لِأَنَّ كَوْنَ الْحَيَوَانَاتِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ لِكُلِّ أَحَدٍ، فَلَا فَائِدَةَ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهَا. =

من هنا نستطيع القول: إن تفسير القرآن بالقرآن منه ما لا تدخُّل لأحد فيه،

= **الْقَوْلُ الثَّالِثُ:** الْمُرَادُ أَنَّهَا أَمْثَالُنَا فِي أَنْ دَبَّرَهَا الله تَعَالَى وَخَلقَهَا، وَتَكَفَّلَ بِرِزْقِهَا، وَهَذَا يَقْرُبُ مِنَ الْقَوْلِ الثَّانِي فِي أَنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى الْإِخْبَارِ عَمَّا عُلِمَ حُصُولُهُ بِالضَّرُورَةِ.

الْقَوْلُ الرَّابِعُ: الْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا أَحْصَى فِي الْكِتَابِ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَحْوَالِ الْبَشَرِ: مِنَ الْعُمْرِ، وَالرِّزْقِ، وَالْأَجَلِ، وَالسَّعَادَةِ، وَالشَّقَاوَةِ، فَكَذَلِكَ أَحْصَى فِي الْكِتَابِ جَمِيعَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي كُلِّ الْحَيَوَانَاتِ. قَالُوا: وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وَلَيْسَ لِذِكْرِ هَذَا الْكَلَامِ عَقِيبَ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ﴾ فَائِدَةٌ إلا ما ذكَرْناه.

الْقَوْلُ الْخَامِسُ: أَرَادَ تَعَالَى أَنَّهَا أَمْثَالُنَا فِي أنها تُحشَر يوم القيامة يُوصَل إِلَيْهَا حُقُوقُهَا، كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «يُقْتَصُّ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ».

الْقَوْلُ السَّادِسُ: مَا اخْتَرْنَاهُ فِي نَظْمِ الْآيَةِ، وَهُوَ أَنَّ الْكُفَّارَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِتْيَانَ بِالْمُعْجِزَاتِ الْقَاهِرَةِ الظَّاهِرَةِ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ عِنَايَتَهُ وَصَلَتْ إِلَى جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ كَمَا وَصَلَتْ إِلَى الْإِنْسَانِ. وَمَنْ بَلَغَتْ رَحْمَتُهُ وَفَضْلُهُ إِلَى حَيْثُ لَا يَبْخَلُ بِهِ عَلَى الْبَهَائِمِ، كَانَ بِأَنْ لَا يَبْخَلَ بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ أَوْلَى، فَدَلَّ مَنْعُ الله مِنْ إِظْهَارِ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ الْقَاهِرَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَا مَصْلَحَةَ لِأُولَئِكَ السَّائِلِينَ فِي إِظْهَارِهَا، وَأَنَّ إِظْهَارَهَا عَلَى وَفْقِ سُؤَالِهِمْ وَاقْتِرَاحِهِمْ يُوجِبُ عَوْدَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ إِلَيْهِمْ.

الْقَوْلُ السَّابِعُ: مَا رَوَاهُ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ: «مَا فِي الْأَرْضِ آدَمِيٌّ إِلَّا وَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ بَعْضِ الْبَهَائِمِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُقْدِمُ إِقْدَامَ الْأَسَدِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوَ الذِّئْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْبَحُ نُبَاحَ الْكَلْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَطَوَّسُ كَفِعْلِ الطَّاوُسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُشْبِهُ الْخِنْزِيرَ فَإِنَّهُ لَوْ أُلْقِيَ إِلَيْهِ الطَّعَامُ الطَّيِّبُ تَرَكَهُ، وَإِذَا قَامَ الرَّجُلُ عَنْ رَجِيعِهِ وَلَغَ فِيهِ. فَكَذَلِكَ نَجِدُ مِنَ الْآدَمِيِّينَ مَنْ لَوْ سَمِعَ خَمْسِينَ حِكْمَةً لَمْ يَحْفَظْ وَاحِدَةً مِنْهَا، فَإِنْ أَخْطَأْتَ مَرَّةً وَاحِدَةً حَفِظَهَا، وَلَمْ يَجْلِسْ مَجْلِسًا إِلَّا رواه عنه». ثُمَّ قَالَ: «فَاعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّكَ إِنَّمَا تُعَاشِرُ الْبَهَائِمَ وَالسِّبَاعَ، فَبَالِغْ فِي الْحِذَارِ وَالِاحْتِرَازِ». وبناء على ما تقدم في تفسير المثلية أستطيع القول بأن الحقَّ في هذه المسألة أن المماثلة ليست من جميع الوجوه كما جزَمَ بذلك الرازي وغيره، والمراد بالأُمَّة هنا الجماعة، والمِثليَّة مِثليَّة خَلْق واهتداء، وغير ذلك مما يشترك فيه الأحياء؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، والنذير من الوجوه التي تميز بها البشر: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥]، نلحظ كلمة «لِلنَّاسِ» وعلى هذا يكون التفسير: وما من أُمَّة من الأُمم العاقلة التي يصلُح إرسال النذير إليها وتفهم خطاب التكليف، إلا خلا فيها نذير.

وهذا هو ما ينطبق به أصل المصطلح، ومنه ما لا يأتي إلا باجتهاد المجتهدين من الراسخين في التفسير، وفي كلٍّ تفسير القرآن بالقرآن وبه.

المعيار الثاني: صحَّة الحديث الشريف:

مما يلي معيار تفسير القرآن بالقرآن معيار تفسير السُّنَّة للقرآن[(١)]، لكن أي معيار يجعلنا نقبَل تفسير السُّنَّة للقرآن بالقرآن؟

الجواب: إنه متى رفع الحديث إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتيقَّنَ المُفسِّر من أن الحديث الصحيح المراد يقصد ذات الآية المُفسَّرة، فهو حديث صالح لتفسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ويكون بذلك طبَّق المعيار الثاني لتفسير القرآن، وهو التفسير بالسُّنَّة الصحيحة، وقيَّدْنا هذا المعيار بالصحة؛ لأنه قد اختُلِقَ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تفسير القرآن كما اختُلِقَ عليه في غيره[(٢)].

---

(١) قال الإمام الشافعيّ: (كلّ ما حكم به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو ممّا فهمه من القرآن). قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل:٦٤] ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا إنّي أوتيت القرآن ومثله معه». أخرجه أحمد برقم١٧١٧٣. قلتُ: قال محقق مسند أحمد طبعة الرسالة: ٢٨/ ٤١١، إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير عبد الرحمن بن أبي عوف الجُرَشي، فمن رجال أبي داود والنسائي، وهو ثقة. وانظر مقدمة في أصول التفسير ص ٤٥. وأُنبِّه إلى أن هذا المعيار عام في تفسير السنة للقرآن، لكنني جئتُ به معيارًا فيما يخص تفسير القرآن بالقرآن عن طريق السنة؛ لصدور هذا النوع من التفسير عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يكسبه حصانة من طعن الطاعنين.

(٢) قال الزركشيّ في البرهان: لطالب التَّفْسِيرِ مَآخِذُ كَثِيرَةٌ، أُمَّهَاتُهَا أَرْبَعَةٌ: ذكر على رأسها: النَّقْلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا هُوَ الطِّرَازُ الْأَوَّلُ، لَكِنْ يَجِبُ الْحَذَرُ مِنَ الضَّعِيفِ فِيهِ وَالْمَوْضُوعِ؛ فَإِنَّهُ كَثِيرٌ، وَإِنَّ سَوَادَ الْأَوْرَاقِ سَوَادٌ فِي الْقَلْبِ. قَالَ الْمَيْمُونِيُّ: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: ثلاثة كُتُبٍ لَيْسَ لَهَا أُصُولٌ: الْمَغَازِي، وَالْمَلَاحِمُ، وَالتَّفْسِيرُ. قَالَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ: وَمُرَادُهُ أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّهَا لَيْسَ لَهَا أَسَانِيدُ صِحَاحٌ مُتَّصِلَةٌ، وَإِلَّا فَقَدْ صَحَّ مِنْ ذَلِكَ كَثِيرٌ. (البرهان ٢/ ١٥٦).

وتفسير السُّنَّة يقال فيه ما قيل في تفسير القرآن بالقرآن، من أنه ليس تفسيرًا آليًّا، أي: يُستخدم فيه عِلْم الآلة من النحو والاشتقاق والتصريف والبيان المعجميّ التحليليّ لمادّة اللفظ وما تدور حوله، بل إن تفسير القرآن بالقرآن عن طريق السُّنَّة يوضح جانبًا من جوانب هدايات القرآن واستجلاء أسراره، ومعرفة مُكتنَزات اللفظ القرآني عن طريق مِشكاة النبوَّة.

۞ المعيار الثالث: صحَّة نسبة تفسير القرآن بالقرآن إلى الصحابي:

مكانة الصحابة محفوظة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسُنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

يقول الحاكم في مستدركه: «فَإِنَّ اللهَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - أَنْعَمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِاصْطِفَائِهِ بِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ أَخْيَارَ خَلْقِهِ فِي عَصْرِهِ، وُهُمُ الصَّحَابَةُ النُّجَبَاءُ، الْبَرَرَةُ الْأَتْقِيَاءُ، لَزِمُوهُ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، حَتَّى حَفِظُوا عَنْهُ مَا شَرَّعَ لِأُمَّتِهِ بِأَمْرِ اللهِ - تَعَالَى ذِكْرُهُ -، ثُمَّ نَقَلُوهُ إِلَى أَتْبَاعِهِمْ، ثُمَّ كَذَلِكَ عَصْرًا بَعْدَ عَصْرٍ إِلَى عَصْرِنَا هَذَا، وَهُوَ هَذِهِ الْأَسَانِيدُ الْمَنْقُولَةُ إِلَيْنَا بِنَقْلِ الْعَدْلِ عَنِ الْعَدْلِ، وَهِيَ كَرَامَةٌ مِنَ اللهِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ خَصَّهُمْ بِهَا دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ»[(١)].

وما ينطبق على تفسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **من حيث الصحَّة،** يَنطَبِق معياره على تفسير الصحابي للقرآن بالقرآن، بحيث إن ما ثبتت صحته إلى الصحب الكرام فمقبول يحتج به في التفسير.

---

(١) المستدرك للحاكم: ١/ ٢.

يقول صاحب مناهل العرفان: «القسم الثالث: وهو بيان القرآن بما صحَّ وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم.

قال الحاكم في المُستدرَك: إن تفسير الصحابي الذي شَهِد الوحيَ والتنزيلَ له حُكم المرفوع. كذلك أطلق الحاكم، وقيَّده بعضُهم بما كان في بيان النزول ونحوه مما لا مجال للرأي فيه...»[١] كذا الأمور الغيبية، وألَّا يكون المفسِّر ممن يُورد الإسرائيليات[٢].

المعيار الرابع: اتفاق السياق:

يجب مراعاة معيار السياق في كل من النص القرآني المفسِّر والنص القرآني المفسَّر، فلا يصلح بحال أن أُبيِّن آية قرآنية تحمل استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا بآية أخرى تحمل استفهامًا مَحْضًا، أو أُفسِّر آية خبريَّة بآية إنشائيَّة، أو العكس؛ لأن ذلك يستدعي تخُالف السياقَين، وتخالُفهما يعني أنه لا يصلُح أن تكون إحداهما محمولة على الأخرى.

- **يُمثِّل ابن عاشور لفساد حَمل الآيتين على بعضهما مع عدم الاتفاق في السياق[٣] بأمثلة منها:**

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧] حيث قال: «وقد ألمَّ بمعنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا

---

(١) مناهل العرفان: ٢/ ١٣.

(٢) النكت على ابن الصلاح: ٢/ ٥٣٢.

(٣) قال البناني في حاشيته على جمع الجوامع: «السياق هو ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه» ١/ ٢٠.

لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ [الإسراء: ٤-٨][1]، والسياق يثبت عمومًا وخصوصًا بين الآيتين، ومن هنا لا يصلُح أن يكونا تفسيرًا للقرآن بالقرآن.

ومن خير ما يدل على أن مثل هذا التنظير لا يصلُح في تفسير القرآن بالقرآن، ما ذكره ابنُ عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠﴾ [القيامة: ١٠]، حيث قال: «وينبغي أن يكون المراد بـ (الإنسان) الكافر، جريًا على سياق الآيات السابقة؛ لأنه المقصود بالكلام، وإن كان كل إنسان يُنبَّأ يومئذ بما قدَّم وأخَّر من أهل الخير ومن أهل الشر، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠]. واختلاف مقامات الكلام يمنع من حمل ما يقع فيها من الألفاظ على محمل واحد؛ فإن في القرآن فنونًا من التذكير لا تلزم طريقة واحدة، وهذا مما يَغفل عن مراعاته بعضُ المُفسِّرين في حملهم معاني الآيات المتقاربة المغزى على محامل متماثلة»[2].

---

(١) التحرير والتنوير: ٩/ ١٥٧. والعموم كائن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ حيث اشتملت الآية الكريمة على إعلام الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سبحانه ليبعثن على اليهود مَن يُذيقهم سوء العذاب والإذلال إلى يوم القيامة، والخصوص كائن في ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾ وهو يُبيِّن أن اليهود سيفسدون في الأرض مرتين، وهذا سياق وذاك سياق، وبما أن الجهة مُنفكَّة بين السياقين، فلا يمكن أن يُجمع بين الآيتين قرآنيًّا ليكونا من باب تفسير القرآن بالقرآن.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٤٦ وانظر بحث الزميل د. جمال حسان، تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير دراسة منهجية نقدية ص: ٢٦٠.

ولا يصلُح الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] وأي آية في القرآن تمَّ ذِكر «الناس» فيها؛ لأن «الناس» الأولى والثانية في هذه الآية عامٌّ مخصوصٌ؛ لذا لا تتناسب تطابُقيَّة الآية مع آية أخرى عامَّة أُريدَ بها العُموم(١).

* * *

(١) جامع البيان للطبري: ٧/ ٢٠٤.

المطلب الثاني

أهم صور تفسير القرآن بالقرآن

المطلب السابق يُمثِّل الجانب النظريِّ الذي يخصُّ ضبط المقياس أو المعيار، الذي من خلاله يُقبَل تفسير القرآن بالقرآن، وهذا المطلب - الذي نحن بصدده - يُمثِّل الجانب التطبيقيِّ للمعايير، وذلك بضرب الأمثلة من واقع القرآن الكريم المُبرهِنة على أصل تفسير القرآن بالقرآن.

(١) بيان المُجمَل:

ليس في مقدور كل أحد حمل المُجمَل على المُبيَّن، ولا المُطلَق على المُقيَّد، ولا العامِّ على الخاصِّ، بل إن هذا لخواصِّ أهل العِلْم كما قال شيخنا الذهبي - رحمه الله تعالى -: «ليس حمل المُجمَل على المُبيَّن، أو المُطلَق على المُقيَّد، أو العامِّ على الخاصِّ، أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهيِّن الذي يدخل مقدور كل إنسان، إنما هو أمر يعرفه أهلُ العِلْم والنظر خاصَّة»(١)، وهاكَ بعض الأمثلة:

أولًا: تفسير القرآن بالقرآن:

جدير بي أن أُبيِّن أنه ليس معنى تفسير القرآن بالقرآن إغلاق باب الاجتهاد، أو الشعور بالحرَج من التعرُّض لتفسير القرآن وتدبُّره ممن استجمعَ شروطَ المُفسِّر وآدابه، بل إن القرآن حمَّال أوجُه - أي إن اللفظ يحمل أكثر من معنى - كما قال أبو الدَّرْدَاءِ: «لَا تَفْقَهُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى تَرَى لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا كَثِيرَةً»(٢)، «وفي كلام علي

---

(١) ومثل ما جاء في البقرة: ٢٢٠، ٢٢٢، والمائدة: ٥، والأعراف: ١٨٧، والأحزاب: ٣٣، ٦٣.

(٢) جامع معمر بن راشد ملحق بمصنف عبد الرزاق: ١/ ٢٥٥.

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مخاطبًا من يخوض مع الخوارج: لا تناظروهم بالقرآن فإنه حمَّال ذو وجوه. أي يحمِّل كل تأويل فيحتمِله، وذو وجوه أي: معانٍ مختلفة»(١) اختلاف تنوع لا تضادّ(٢)، أي إن كل المعاني تنضوي تحت جنس واحد.

وقد حفلَ القرآن الكريم بتفسير بعضه بعضًا في آيات كثيرة، وذلك من خلال قنوات تفسيريَّة متعددة، منها ما لا يختلف عليه أحد، ومنها ما كان على سبيل التوسُّع، وها هي أهمُّ قنوات هذا الصنف الأحسن من التفسير:

آيات السؤال والجواب في القرآن الكريم:

* **مثل السؤال عن الأهِلَّة والإجابة عنها في قوله تعالى:** ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

* **والسؤال عن الإنفاق والإجابة عنه في قوله تعالى:** ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾ [البقرة: ٢١٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

* **كذا السؤال عن القِتال في الأشهر الحُرُم:** ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [البقرة: ٢١٧].

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير: ١/ ٤٣٨، والطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ١٨١.

(٢) اختلاف التنوع ما يمكن الجمع فيه بين الأقوال، كالقراءات المتعددة للكلمة واحدة، وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للقارئَيْن: «كلاكما مُحسِن» رواه البخاري كِتَاب الخُصُومَاتِ، بَابُ مَا يُذْكَرُ فِي الإِشْخَاصِ وَالخُصُومَةِ بَيْنَ المُسْلِمِ وَاليَهُودِ رقم: ٢٤١٠. أما اختلاف التضادّ: فلا يمكن الجمع فيه بين القولَيْن؛ إذ الضدَّيْن لا يجتمعان. وللمزيد انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٣/ ٢٦٨.

* والسؤال عن الخمر والمَيْسر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

* والسؤال عن حلال المطعومات: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ [المائدة: ٤].

* والسؤال عن الساعة في مواضع منها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وفي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦].

* والسؤال عن الأنفال في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال: ١]، نلاحظ أن السؤال يتَّجه إلى حيثيَّة مُعيَّنة، كذا الجواب، وهذا لا يمنع بيان العلماء لبقية الحيثيَّات الموجودة في السؤال والجواب.

■ **ومن هذا ما وردَ بصيغة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾**[1].

* منه قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ [المدثر: ٢٦، ٢٧]، ثم بيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٢٨-٣٠].

---

(١) «قَالَ يحيى بن سلام: بلغني أن كل شيء فِي الْقُرْآنِ (وَما أَدْراكَ) فَقَدْ أَدْرَاهُ إِيَّاهُ وعلمه. وكل شي قَالَ: (وَمَا يُدْرِيكَ) فَهُوَ مِمَّا لَمْ يَعْلَمْهُ. وقال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه: (وَما أَدْراكَ) فإنه أخبر به، وكل شي قال فيه: (وما يدريك) فإنه لم يخبر به». تفسير البغوي: ٥/ ١٥٦، والقرطبي ١٨/ ٢٥٦.

* وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: ١٧-١٩].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾ [الطارق: ٢، ٣].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ [القدر: ٢-٥].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾ [الهمزة: ٥-٩].

بيان ما يحتويه لفظٌ ما:

* كاحتواء البرّ للآتي بعده في الآية الكريمة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

* وكقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

* ومنه قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١﴾ [المطففين: ١٠، ١١].

الجمع بين ما يُتوهَّم أنه مُختلِف:

كجمع الآيات الواردة في خَلْق آدم، والسؤال للعباد يوم القيامة، وما جاء في قصص الأنبياء بإرجاع المُجمَل إلى مُبيِّنه، والغامض إلى مُوضِّحه... إلخ.

ذكر الموصوف وإتباعه بأوصافه: كتفسير أولياء الله بأنهم الذين آمنوا وكانوا

يتقون في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

تخصيص العامِّ:

* من ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١]، وقد فُسِّر ﴿مَا يُتۡلَىٰ﴾ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

* وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ [النحل: ١١٥].

هذا الجانب من تفسير القرآن بالقرآن لا دخْلَ فيه لأحد، بل إن القرآن هو الذي بيَّن نفسَه بنفسِه، وهذا لا يعني أنه لا يصحُّ لأحد من المُفسِّرين أن يتدبَّره، ويَسْتكنِه ألفاظَه من خلال الإعراب والتصريف والاشتقاق والبيان ليقدِّم أسرار السؤال، ويظهر ما فتحَ الله عليه به من فيوضات الجواب، وغير ذلك مما سقتُ له أمثلة.

كما أُنبِّه إلى أنه باستقراء القرآن الكريم نستطيع أن نأتي بأمثلة غاية في الكثرة، لكن المقام هنا يضيق عن مزيد من الأمثلة.

أما الذي أعملَ فيه العلماءُ اجتهادَهم بجمع ما يتوافق من القرآن مع القرآن، فصوره متعددة: منها بيان الإجمال الواقع بسبب الاشتراك:

- **مثال الاشتراك في الاسم «القُرْء»:**

في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ فِيهِ إِجْمَالٌ؛ لِأَنَّ الْقُرْءَ يُطْلَقُ لُغَةً عَلَى الْحَيْضِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الطُّهْرِ، وقد أشار تعالى إلى أن المراد بأقراء العِدَّة الأطهار بقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، فاللام للتوقيت، ووقت الطلاق المأمور به في الآية الطُّهر لا الحيض، وتدلُّ له قرينة زيادة التاء في قوله: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ لدلالتها على تذكير المعدود وهو الأطهار، فلو أراد الحيضات لقال: ثلاث قروء (بلا هاء)؛ لأن العرب تقول: ثلاثة أطهار، وثلاث حيضات[1].

---

(١) ولمزيد من البسط انظر علماء أحكام القرآن: منهم الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ١١٣ حيث قال: «قال أبو عمرو ابن الْعَلَاءِ: مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يُسَمِّي الْحَيْضَ قُرْءًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّي الطُّهْرَ قُرْءًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْمَعُهُمَا جميعًا، فَيُسَمِّي الطُّهْرَ مَعَ الْحَيْضِ قُرْءًا، ذَكَرَهُ النَّحَّاسُ...».

قال العلماء: قَرَأَتِ الْمَرْأَةُ قُرْءًا، إِذَا حَاضَتْ أَوْ طَهُرَتْ. وَقَرَأَتْ - أَيْضًا - إِذَا حَمَلَتْ. وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْقُرْءَ الْوَقْتُ، فَإِذَا قُلْتَ: وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ أَوْقَاتٍ، صَارَتِ الْآيَةُ مُفَسَّرَةً فِي الْعَدَدِ، مُحْتَمَلَةً فِي الْمَعْدُودِ، فَوَجَبَ طَلَبُ الْبَيَانِ لِلْمَعْدُودِ مِنْ غَيْرِهَا، فَدَلِيلُنَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ يُؤْمَرُ بِالطَّلَاقِ وَقْتَ الطُّهْرِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُعْتَبَرُ فِي الْعِدَّةِ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ يَعْنِي وَقْتًا تَعْتَدُّ بِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، يُرِيدُ مَا تَعْتَدُّ بِهِ الْمُطَلَّقَةُ وَهُوَ الطُّهْرُ الَّذِي تُطَلَّقُ فِيهِ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ: «مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ». [أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ]، وَهُوَ نَصٌّ فِي أَنَّ زَمَنَ الطُّهْرِ هُوَ الَّذِي يُسَمَّى عِدَّةً، وَهُوَ الَّذِي تُطَلَّقُ فِيهِ النِّسَاءُ.

وَلَا خِلَافَ أَنَّ مَنْ طَلَّقَ فِي حَالِ الْحَيْضِ لَمْ تَعْتَدَّ بِذَلِكَ الْحَيْضِ، وَمَنْ طَلَّقَ فِي حَالِ الطُّهْرِ فَإِنَّهَا تَعْتَدُّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ بِذَلِكَ الطُّهْرِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى.

قال أبو بكر بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ: مَا أَدْرَكْنَا أَحَدًا مِنْ فُقَهَائِنَا إِلَّا يَقُولُ بِقَوْلِ عَائِشَةَ فِي أَنَّ الْأَقْرَاءَ هِيَ الْأَطْهَارُ. فَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ فِي طُهْرٍ لَمْ يَطَأْ فِيهِ، اعْتَدَّتْ بِمَا بَقِيَ مِنْهُ وَلَوْ سَاعَةً، وَلَوْ لَحْظَةً، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ طُهْرًا ثَانِيًا بَعْدَ حَيْضَةٍ، ثُمَّ ثَالِثًا بَعْدَ حَيْضَةٍ ثَانِيَةٍ، فَإِذَا رَأَتِ الدَّمَ مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّالِثَةِ حَلَّتْ لِلْأَزْوَاجِ، وَخَرَجَتْ مِنَ الْعِدَّةِ. فَإِنْ طَلَّقَ مُطَلِّقٌ فِي طُهْرٍ قَدْ مَسَّ فِيهِ، لَزِمَهُ الطَّلَاقُ وَقَدْ أَسَاءَ، وَاعْتَدَّتْ بِمَا بَقِيَ مِنْ ذَلِكَ الطُّهْرِ.=

- **ومن أمثلة الاشتراك في اسم - أيضًا - تفسير القرآن للعتيق:**

في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، فالعتيق يُطلَق بالاشتراك على: القديم، وعلى المعتَق من الجبابرة، وعلى الكريم، وكلُّها قيل بها في الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران: ٩٦] يدلُّ للأول(١).

= احْتَجَّ الْكُوفِيُّونَ بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفَاطِمَةَ بِنْتِ أَبِي حُبَيْشٍ حِينَ شَكَتْ إِلَيْهِ الدَّمَ: «إِنَّمَا ذَلِكِ عِرْقٌ، فَانْظُرِي: فَإِذَا أَتَى قُرُؤُكِ فَلَا تُصَلِّي، وَإِذَا مَرَّ الْقُرْءُ فَتَطَهَّرِي ثُمَّ صَلِّي مِنَ الْقُرْءِ إِلَى الْقُرْءِ». [قال محقق سنن ابن ماجه الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة المنذر بن المغيرة. وأخرجه أبو داود (٢٨٠)، والنسائي ١/ ١٢١ و١٨٣ – ١٨٤ من طريق الليث بن سعد، بهذا الإسناد. وقد اختُلِف في إسناد هذا الحديث على عروة بن الزبير كما بينّاه في مسند أحمد (٢٧٣٦٠)].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ [الطلاق: ٤]. فجعل المأيوس مِنْهُ الْمَحِيضَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْعِدَّةُ، وَجَعَلَ الْعِوَضَ مِنْهُ هُوَ الْأَشْهُرَ إِذَا كَانَ مَعْدُومًا. وَقَالَ عُمَرُ بِحَضْرَةِ الصَّحَابَةِ: عِدَّةُ الْأَمَةِ حَيْضَتَانِ، نِصْفُ عِدَّةِ الْحُرَّةِ، وَلَوْ قَدَرْتُ عَلَى أَنْ أَجْعَلَهَا حَيْضَةً وَنِصْفًا لَفَعَلْتُ. وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ إِجْمَاعٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ عَشَرَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمُ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ، وَحَسْبُكَ مَا قَالُوا! وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨] يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: يَتَرَبَّصْنَ ثَلَاثَةَ أَقْرَاءٍ، يُرِيدُ كَوَامِلَ.

وهذا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا عَلَى قَوْلِنَا بِأَنَّ الْأَقْرَاءَ الْحَيْضُ؛ لِأَنَّ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ الطُّهْرُ يَجُوزُ أَنْ تَعْتَدَّ بِطُهْرَيْنِ وَبَعْضِ آخَرَ، لِأَنَّهُ إذَا طَلَّقَ حَالَ الطُّهْرِ، اعْتَدَّتْ عِنْدَهُ بِبَقِيَّةِ ذَلِكَ الطُّهْرِ قُرْءًا. وَعِنْدَنَا تَسْتَأْنِفُ مِنْ أَوَّلِ الْحَيْضِ حَتَّى يَصْدُقَ الِاسْمُ، فَإِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ فِي طُهْرٍ لَمْ يَطَأْ فِيهِ، اسْتَقْبَلَتْ حَيْضَةً، ثُمَّ حَيْضَةً، ثُمَّ حَيْضَةً، فَإِذَا اغْتَسَلَتْ مِنَ الثَّالِثَةِ خَرَجَتْ مِنَ الْعِدَّةِ.

قُلْتُ: هَذَا يَرُدُّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧] فَأَثْبَتَ الْهَاءَ فِي ﴿ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ﴾؛ لِأَنَّ الْيَوْمَ مُذَكَّرٌ، وَكَذَلِكَ الْقُرْءُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ.

وَوَافَقَنَا أَبُو حَنِيفَةَ عَلَى أَنَّهَا إِذَا طُلِّقَتْ حَائِضًا أَنَّهَا لَا تَعْتَدُّ بِالْحَيْضَةِ الَّتِي طُلِّقَتْ فِيهَا، وَلَا بِالطُّهْرِ الَّذِي بَعْدَهَا، وَإِنَّمَا تَعْتَدُّ بِالْحَيْضِ الَّذِي بَعْدَ الطُّهْرِ. وَعِنْدَنَا تَعْتَدُّ بِالطُّهْرِ، عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ. وَقَدِ اسْتَجَازَ أَهْلُ اللُّغَةِ أَنْ يُعَبِّرُوا عَنِ الْبَعْضِ بِاسْمِ الْجَمِيعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة: ١٩٧] وَالْمُرَادُ بِهِ شَهْرَانِ وَبَعْضُ الثَّالِثِ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أضواء البيان: ١/ ٨.

- **ومن أمثلة الاشتراك في الفعل:**

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التكوير: ١٧]، فإنه مُشترَك بين إقبال الليل وإدباره، وقد جاءت آية تؤيِّد أن معناه في الآية «أقبلَ».

قال ابن كثير: «وَعِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَسۡعَسَ﴾ إِذَا أَقْبَلَ، وَإِنْ كَانَ يَصِحُّ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْإِدْبَارِ، لَكِنَّ الْإِقْبَالَ هَاهُنَا أَنْسَبُ؛ كَأَنَّهُ أَقْسَمَ تَعَالَى بِاللَّيْلِ وَظَلَامِهِ إِذَا أَقْبَلَ، وَبِالْفَجْرِ وَضِيَائِهِ إِذَا أَشْرَقَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ [الليل: ١، ٢]، وَقَالَ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضُّحى: ١، ٢]، وَقَالَ ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ»(١)، كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ [الشمس: ٣، ٤].

- **ومن ذلك الاشتراك في الحرف:**

قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: ٧] فالواو في ﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ محتملة للعطف وللاستئناف، لكن آية الجاثية ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣] أن الواو في قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ جملة مستأنفَة مبتدأ وخبر، وليست معطوفة على الجملة السابقة؛ لأن الختم على القلوب والأسماع والغشاوة على خصوص الأبصار(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم: ٨/ ٣٣٨.
(٢) أضواء البيان: ١/ ٩.

الإبهام:

- ١) إبهام في اسم جنسٍ مجموعٍ:

مثل قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧] فأبهم الكلمات وبيّنها بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣][1].

- ٢) إبهام في اسم جنسٍ مُفرَدٍ:

مثل قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، فقد أبهمها هنا وبيّنها بقوله سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥، ٦][2].

- ٣) بيان الإبهام في اسم جمع:

مثل قوله في حق ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٣]، فأبهم القوم وبيّنهم بأنهم سبأ بقوله سبحانه عن الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٢، ٢٣][3].

---

(١) أضواء البيان: ٣/ ٤٥.

(٢) السابق: ٨/ ٧٥.

(٣) والقوم هم سبأ بلا مخالف.

- ٤) **بيان الإبهام في صِلَة الموصول:**

كقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]، لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ؟ وَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩][1].

- ٥) **بيان الإبهام في معنى حرف:**

مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤] فـ (مِنْ) هنا للتبعيض، لكن هذا البعض المدلول عليه بحرف التبعيض المأمور بإنفاقه مُبهَم هنا، وقد بيَّنه تعالى بقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] والعفو: الزائد عن الحاجة[2].

- ٦) **بيان الإبهام الواقع بسبب احتمال مُفسّر الضمير:**

مثل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧﴾ [العاديات: ٧]، فإنه يحتمل عود الضمير على الإنسان أو الربِّ جَلَّ جَلَالُهُ المذكور في الآية السابقة ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾ [العاديات: ٦]...

قال الفخر: «إِنَّ قَوْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات: ٨] الضَّمِيرُ فِيهِ عَائِدٌ إِلَى الْإِنْسَانِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهُ عَائِدًا إِلَى الْإِنْسَانِ لِيَكُونَ النَّظْمُ أَحْسَنَ..»[3].

---

(١) أضواء البيان: ١/ ٨.
(٢) مفاتيح الغيب: ٦/ ٤٠٢.
(٣) مفاتيح الغيب: ٣٢/ ٢٦٢.

- **٧) بيان الكيفية:**

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١]، لم يُبِنْ كيفية الوعد بها من حيث الاجتماع أو الافتراق، لكن آية الأعراف بيَّنت ذلك، قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] ومن ذلك في القرآن الكثير[(١)].

- **٨) ذِكْر السبب أو المُتعلِّق:**

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، بيَّن سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سبب هذه القسوة بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦][(٢)].

وكبيان مُتعلِّق التحريض في قوله تعالى: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [النساء: ٨٤] بأنه على القتال، فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

- **٩) بيان بقيَّة الحِكَم:**

كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] «حيث ذكر حكمة واحدة من حِكَم خَلْق النجوم في هذه الآية، ثم بيَّن سبحانه في آيات أخرى بقيَّة الحِكَم، فقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات: ٦، ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ

---

(١) أضواء البيان: ٣/ ٥١.
(٢) السابق :٣/ ٥٤.

ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ﴾ [فصلت: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ ﴾ [الملك: ٥](١).

تقييد المُطْلَق:

ومن ألوان بيان القرآن بالقرآن تقييد المُطْلَق، من ذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ ﴾ [المائدة: ٣]، «وَالدَّمُ هُنَا هُوَ الدَّمُ الْمُهْرَاقُ، أَيِ: الْمَسْفُوحُ، وَهُوَ الَّذِي يُمْكِنُ سَيَلَانُهُ كَمَا صُرِّحَ بِهِ فِي آيَةِ [الأنعام ١٤٥] في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا ﴾، حَمْلًا لِمُطْلَقِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مُقَيَّدِ آيَةِ الْأَنْعَامِ، وَهُوَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ عُرُوقِ جَسَدِ الْحَيَوَانِ بِسَبَبِ قَطْعِ الْعِرْقِ وَمَا عَلَيْهِ مِنَ الْجِلْدِ، وَهُوَ سَائِلٌ لَزِجٌ أَحْمَرُ اللَّوْنِ مُتَفَاوِتُ الْحُمْرَةِ بِاخْتِلَافِ السِّنِّ وَاخْتِلَافِ أَصْنَافِ الْعُرُوقِ.

ومن ذلك تفسير المغضوب عليهم في قول الله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة:٧] باليهود؛ لقول الله تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ ﴾ [البقرة:٩٠]. ومن تفسير الضالِّين بالنصاري في ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٧]؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:٧٧](٢).

تخصيص العامِّ:

من أمثلة تخصيص القرآن بالقرآن:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فإن عمومه

(١) السابق: ٧/ ٤١.
(٢) التحرير والتنوير: ٨/ ١٣٦ ومن أراد المزيد وجد.

خُصَّ بالحوامل في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤]، وخُصَّ أيضًا عمومه الشامل للمدخول بها وغيرها بقوله تعالى في غير المدخول بها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٣٤﴾ [البقرة: ٢٣٤] خُصَّ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤].

ونحو ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ﴾ [البقرة: ٢٢١] خُصَّ بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥][(١)].

هذا.. ومن الجدير ذكره هنا أن القرآن الكريم لا نهاية لأنواع بيانه لذاته، وما تمَّ التمثيل له هنا هو مجرَّد سردٍ رمزيٍّ لصنوف غير محدودة ولا معدودة من بيان القرآن بالقرآن[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣/ ٢٠٠.

(٢) يقول عمدة المفسرين لهذا النوع من التفسير في العصر الحاضر شيخنا الشنقيطي، الذي اعتمدتُ في التنظير السابق المذكور عاليه على ما كتبه في أضواء البيان وحُقَّ لي ولغيري أن ينقل منه متيقنا من سيادة مادته في هذا الباب من التفسير: أن المقصود مما ذكره من أنواع البيان في مقدمة كتابه: بيان كثرة الأنواع التي تضمنها القرآن تفسيرا للقرآن واختلاف جهاتها، وعلي هذا كانت غزارة هذا النوع من التفسير التي احتوت كتابه أضواء البيان، والفضل لمن سبق، والاستقصاء يحتاج إلى مشروع علميّ كبير يعمل فيه فريق من خبراء التفسير.

۞ ثانيًا: تفسير القرآن بالقرآن من خلال السُّنَّة:

كنتُ قد بيَّنتُ أن معيار قبول تفسير القرآن بالقرآن عن طريق السُّنَّة صِحَّة الحديث برفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومما صحَّ من ذلك:

* تفسير الظُّلْم بالشِّرْك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»(١)، فقد فسَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية [الأنعام ٥٩] بآية [لقمان ٣٤].

* وقد فسَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية الأنعام: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩] بآية لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤] فيما رواه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ»**(٢).

---

(١) التحرير والتنوير: ٨/ ١٣٦ وما أراد المزيد وجد.

(٢) البخاري كتاب: تفسير القرآن باب: إن الله عنه علم الساعة رقم ٧٣٧٩، ٦/ ٥٦.

❋ وتفسيره صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الدعاء بالعبادة فيما رواه النُّعْمَان بْن بَشِير، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠] قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»، وَقَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: ٦٠]، قال أبو عيسى: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»(١).

■ ومن باب تخصيص العامِّ:

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قال: أَخْبَرَتْنِي أُمُّ مُبَشِّرٍ، أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ، إِنْ شَاءَ اللهُ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**» قَالَتْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **قَدْ قَالَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ٧٢﴾ [مريم: ٧٢](٢).

ومن ذلك – أيضًا – عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢]، فَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا بِالْخَيْرَاتِ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَمَّا الَّذِينَ اقْتَصَدُوا، فَأُولَئِكَ يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَاسَبُونَ فِي طُولِ الْمَحْشَرِ، ثُمَّ هُمُ الَّذِينَ تَلَافَاهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ، فَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ

---

(١) الترمذي كتاب: أبواب تفسير القرآن باب: ومن سورة البقرة، رقم: ٢٩٦٩، ٥/ ٢١١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ – بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَهْلِ بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رقم: ٢٤٩٦جـ ٤ / ١٩٤٢.

ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]»[1].

واللون الغالب فيما فسَّره النبي ﷺ للقرآن ليس من هذا اللون، أي تفسير القرآن بالقرآن عن طريق السُّنَّة، بل تفسير السنة للقرآن عمومًا.

۞ ثالثًا: تفسير الصحابة للقرآن:

مما لا شكَّ فيه أن تفسير الصحابة للقرآن له مقبوليته؛ لأنهم - رضوان الله عليهم أجمعين - عاشوا نور القرآن، ولابسوا تنزيله، وعرفوا أحواله، وصاحبوا من نزل عليه ﷺ، كما أنهم أهل اللسان الذي نزل به القرآن، كما أنهم عرفوا أحوال من نزل فيهم القرآن، مع ما تسلَّحوا به من سلامة مقصدهم، وحُسن فهمِهم، وبالرغم من هذا فهُم لم ينقلوا عن النبي ﷺ كل ما يتعلق بآيات القرآن؛ ولعلَّ السبب هو فهمُهم النابع من لغتهم العربية الأصيلة، ومكنتهم مما عرفوه عن نبيهم ﷺ فيما يخُصّ القرآن وبيانه، وهذا اقتضى منهم الظَّنّ الحسن بمن بعدهم، وأنه مثلهم أو يدانيهم.

ومن أمثلة تفسير الصحابة للقرآن بالقرآن: تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ ﴾ [الطور: ٥] بالسماء ثم الاستشهاد بآية الأنبياء.

عن خَالِدِ بْنِ عَرْعَرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا يَقُولُ: «وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ: هُوَ السَّمَاءُ» قَالَ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٢][2].

ومن أمثلته أيضا: عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ﴿ وَإِذَا

---

(١) المسند :٣٦ / ٥٧، ٥٨، رقم: ٢١٧٢٧. صحَّحه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ٩٥. وقال الشيخ شعيب الأرناؤط في تحقيقه على المسند: «إسناده ضعيف لانقطاعه بين على بن عبد الله وأبي الدرداء بينهما فيه أبو خالد البكريّ كما في تاريخ البخاري ٩ / ١٨.

(٢) جامع البيان للطبري: ٢٧/ ١٨.

ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ [التكوير: ٧] قالَ: هُمَا الرَّجُلَانِ يَعْمَلَانِ الْعَمَلَ، فَيَدْخُلَانِ بِهِ الْجَنَّةَ، وَقَالَ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢] قَالَ: ضُرَبَاءَهُمْ[1].

(٢) اتحاد السياق:

سبق بيان ضرورة اتحاد السياق في تفسير القرآن بالقرآن، وهو قاسم مشترك في هذا اللون من التفسير عمومًا، لكننا ذكرناه هنا منفردًا بعنصر؛ للتأكيد على أهميَّته ومفصليَّته في هذا اللون الأمثل من التفسير، ومن ذلك:

اتحاد السياق في تفسير السِّجِّيل بالطين لورود الآيتين اللَّتَيْن تتحدثان عنه في سياق واحد في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢، ٨٣] وفي نفس قصة لوط - عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه - جاءت الآية الأخرى المُفسِّرة للسِّجِّيل: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤].

ومن أمثلة اتحاد السياق - أيضًا -:

تفسير السماء بالسقف المبنيِّ فوقنا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢] أي: سقفًا مبنيًا فوقكم لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴿٥﴾﴾ [الطور: ٥][2].

ومن ذلك قوله تعالى - أيضًا -: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا

---

(١) السابق: ٣٠/ ٦٩.

(٢) تفسير البغوي :٧/ ٣٥٧

﴿وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾ [ق: ٦]، أي: هي مُصمَتة لا خَرْق فيها، الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك: ٣] من فتور: يعني أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل(١).

وبهذا المثال الأخير تكون ورقات هذا البحث قد تمَّت.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

❊ ❊ ❊

(١) الكشاف: الكشاف: ٤/ ٣٨١.

الخاتمة

بعد سياحة فكرية في هذا البحث الذي استمدَّ مكانته السامية من موضوعه، **أستطيع أن أستخلص منه ما يلي :**

أولًا: يؤكِّد البحث علوَّ مرتبة تفسير القرآن بالقرآن على ما دونه من مراتب التفسير الأخرى.

ثانيًا: يُثبِت البحث أن أصل تفسير القرآن بالقرآن خالص للمُتكلِّم بالقرآن سبحانه، فهو سبحانه الذي يعلَم مراده من كلامه، وهذا هو أصل إطلاق مصطلح تفسير القرآن بالقرآن.

ثالثًا: بالرغم من أن أصل تفسير كلام الله تعلُّم كائن بكلام الله تعالى، إلا أن هذا الأصل لا يمنع الراسخين في العلم المستجمعين لشروط المُفسِّر وآدابه: من النظر إلى زوايا اللفظ القرآني، والبحث عن مكنون هداياته، وإرجاع مُطلَقه إلى مُقيّده، وعامِّه إلى خاصِّه، ومُشكِله إلى مُوضِّحه، ومُجمَله إلى مُبيّنه..إلخ ما يتصل ببيان القرآن بالقرآن.

رابعًا: معيار قبول تفسير القرآن بالقرآن: أن يكون القرآن ذاته هو المفسِّر للقرآن (تصريحًا)، وأن معيار قبول السُّنَّة هو صِحَّة الحديث الشريف - كما أن معيار قبول قول الصحابي هو صحة نسبة قوله إليه، بالشروط المذكورة داخل البحث - مع حتميَّة اتفاق السياق في كل مُكوِّنات هذا النوع من التفسير.

خامسًا: حَفِل البحث بدراسة نظريَّة تطبيقيَّة تُؤكِّد الدراسة المعياريَّة التأصيليَّة لهذا اللون الشريف من التفسير.

سادسًا: يُهيب البحث والباحث بأن لا يتكلم في تفسير القرآن إلا مَن استكملَ شروط المُفسِّر وجمَعَ أدواته العِلميَّة، ووقَفَ على معايير جزئياته؛ حتى لا يقع في الخطأ فيَضلَّ ويُضِلَّ.

التوصيَّات

أُوصي بتدريس معايير التفسير وأصوله كمادَّة تأسيسية لطُلَّابنا المتخصصين، مع الإفادة من مستجدات ما يُصنَّف في هذا الشأن، وهذا البحث يخدم في محراب هذه التوصية.

* * *

المصادر والمراجع

التفسير وعلوم القرآن:

١. «أضواء البيان». الشنقيطي. محمد الأمين. (د.ط) بيروت: دار الفكر، ١٤١٥/ ١٩٩٥م.

٢. «البرهان في علوم القرآن» الزركشيّ. أبو عبد الله بدر الدين محمد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مصر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.

٣. «التبيان في أقسام القرآن». ابن قيِّم الجوزيَّة، محمد بن أبي بكر- تحقيق: محمد حامد الفقي (د.ط)- بيروت: دار المعرفة (د.ت).

٤. «التحرير والتنوير» ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، تونس: دار سحنون تونس (د.ت).

٥. «تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير دراسة منهجية نقدية» د. جمال حسان مخطوط بالأردن.

٦. «تفسير الراغب الأصفهاني» أبو القاسم الحسين بن محمد تحقيق: د. محمد عبد العزيز بسيوني. ط ١، مصر: كلية الآداب بطنطا، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

٧. «تفسير القرآن العظيم» الدمشقيّ، إسماعيل بن عمر، تحقيق: سامي بن محمد سلامة مصر: دار طيبة للنشر والتوزيع (د.ت).

٨. «**التفسير والمفسرون**» الذهبيّ، محمد حسين مصر: مكتبة وهبة بالقاهرة (د.ت).

٩. «**جامع البيان**» الطبريّ، محمد بن جرير. تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركيّ بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية ط١، مصر: دار هجر، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

١٠. «**الجامع لأحكام القرآن**» القرطبيّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ط٢، مصر: دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١١. «**دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر**» الجُرجانيّ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ط١، بريطانيا: مجلة الحكمةـ ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

١٢. «**الكَشَّاف**» الزمخشريّ، أبو القاسم محمود بن عمر. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.(د.ط، د.ت).

١٣. «**معالم التنزيل**» البغويّ، الحسين بن مسعود. تحقق: عبد الرزاق المهدي ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

١٤. «**مقدمة في أصول التفسير**» ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، لبنان: دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م (د.ت).

السُّنَّة وعلومها:

١٥. «**الجامع الصحيح**» البخاريّ، محمد بن إسماعيل، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١. بيروت: دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

١٦. «**جامع معمر بن راشد**» الأزديّ، أبو عروة راشد مولاهم تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.ط٢، باكستان: المجلس العلمي ١٤٠٣هـ.

١٧. «**سنن الترمذي الجامع الصحيح**» الترمذيّ أبو عيسى محمد بن عيسى. تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض. ط٢، مصر: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.

١٨. «**صحيح مسلم**» مسلم بن الحجاج بن مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.(د.ط.ت) بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٩. «**مجمع الزوائد**» الهيثميّ، علي بن أبي بكر. تحقق: حسام الدين القدسيّ د.ط.ت. مصر: مكتبة القدسي، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.

٢٠. «**المستدرك على الصحيحين**» للنيسابوريّ، محمد بن عبد الله الحاكم تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.ط١. لبنان: دار الكتب العلمية - بيروت.١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٢١. «**مسند الإمام أحمد**» الشيبانيّ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. تحقق: أحمد محمد شاكر ط١، مصر: دار الحديث بالقاهرة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.

❊ ❊ ❊

الفهرس

مجلة تدبر



ثانيًا: مُستَخلَصاتُ الرَّسَائِل والمَشَارِيعُ العِلْمِيَّة

مجلة تدبر



تقرير عن رسالة علمية
بعنوان: تدبر القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

الباحث/ عبد الله بن عمر بن أحمد العمر
المحاضر بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

- الدرجة: الماجستير.
- الجهة المانحة للدرجة: كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- سنة الإجازة: ١٤٣٧هـ.
- الوَصْف الماديّ: تقع في مجلد من ٣٦٠ صفحة.

التعريف بالرسالة

تناولت الرسالة دراسة موضوع تدبُّر القرآن الكريم عند شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي مكوَّنة من: مقدمة، وتمهيد، وخمسة فصول، وخاتمة، وفهارس، وهي على التفصيل الآتي:

* **المقدمة:** وفيها موضوع البحث، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهداف الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخُطَّة البحث.

* **التمهيد:** وفيه: ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعنايته بتدبُّر القرآن الكريم.

* **الفصل الأول:** مفهوم التدبُّر ومنزلته عند ابن تيمية، وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول:** مفهوم التدبُّر عند ابن تيمية.
- **المبحث الثاني:** أهميَّة التدبُّر.
- **المبحث الثالث:** حُكْم التدبُّر وأحوال الناس معه.

* **الفصل الثاني:** شروط الانتفاع بالتدبُّر وضوابط سلامته عند ابن تيمية، وفيه مبحثان:

- **المبحث الأول:** شروط الانتفاع بالتدبُّر.
- **المبحث الثاني:** ضوابط سلامة التدبُّر.

* **الفصل الثالث:** الأمور المُعينَة على التدبُّر، والمانِعَة منه عند ابن تيمية، وفيه مبحثان:

- **المبحث الأول**: الأمور المُعِينة على التدبُّر.
- **المبحث الثاني**: موانع التدبُّر.

❋ **الفصل الرابع**: طُرُق التدبُّر عند ابن تيمية، وفيه مبحثان:

- **المبحث الأول**: طُرُق التدبُّر الجُزئيّ.
- **المبحث الثاني**: طُرُق التدبُّر الكُلِّيّ.

❋ **الفصل الخامس**: ثمرات التدبُّر عن ابن تيمية، وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول**: الثمرات القَلبيَّة.
- **المبحث الثاني**: الثمرات العِلْمِيَّة.
- **المبحث الثالث**: الثمرات العَمَلِيَّة.

❋ **الخاتمة**: وتضمَّنَت أهمَّ النتائج والتوصيات.

❋ **الفهارس**: وشملت فهرس الآيات، والأحاديث، والآثار، والأعلام، والمراجع، والموضوعات.

❋ ❋ ❋

مزايا الرسالة

من أبرز مزايا الرسالة:

١) **الاعتماد على شخصيَّة عِلميَّة واحدة**؛ لما يتميز به ذلك من بناء النصوص الواردة عنها على تعريفها للتدبُّر.

٢) **اختيار شخصية ابن تيمية** والتي كان لها العناية البالغة بتدبُّر القرآن الكريم تأصيلًا وتطبيقًا.

٣) **استقصاء نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية في تدبُّر القرآن الكريم، وبناء صورة متكاملة عن الموضوع من خلالها.**

٤) **العناية بمفاصل موضوع التدبُّر** من بيان حقيقته، وموضوعه، وعلاقته بالألفاظ المقاربة والتفسير والاستنباط، والعلاقة بين التدبُّر وثمرته، وأصل ثمرات التدبُّر.

أبرز نتائج الرسالة:

وقد انتهى البحث بجملة من النتائج، استخلص الباحث أهمها:

١) **أن مفهوم التدبُّر عند شيخ الإسلام هو النظر العامُّ**، وقد يختصُّ بنوع منه متى ما اقترَن بغيره في الكلام، كما في اقترانِ التدبُّر بالتذَكُّر في القرآن الكريم.

٢) **أن الاجتهاد في معرفة التفسير**، والاستنباط لمعرفة الدقائق داخلان في عموم مفهوم التدبُّر.

٣) **أن موضوع تدبُّر القرآن الكريم هو ألفاظه ومعانيه**، وفقًا لما عليه أهل السُّنَّة والجماعة في مُسمَّى الكلام، والعُمدة في صِحَّة التدبُّر هو وجود المعنى فكلُّ ما له معنى صحَّ تدبُّره.

٤) **أن التدبُّر بالنظر إلى المفردة غير ممكن ما لم تكن في سياقها.**

٥) **أن التدبُّر سبب ومؤثِّر**؛ والمؤثِّر إمَّا تامٌّ تحقَّقت ثَمَرتُه اللَّازِمة له، أو ناقص لم تتحقَّق ثَمَرتُه، ويصحُّ نفي التدبُّر الناقص لانتفاء ثمرته.

٦) **اختلاف ما يحصل للمتدبِّر من الثمرات ناتج عن أمور متعددة، وجامعُها:** قوَّةُ المقتضي لذلك، وضعْفُ المانِع عنه.

٧) **أن أهميَّة التدبُّر نابعة من أمر الله به سبحانه، وجعله مقصدًا من مقاصد إنزاله، وذمّ أضداده**، وكذلك ما جاء من تدبُّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن الكريم، ويُضاف إلى هذه النصوص مما يُبيِّن أهمية تدبُّر القرآن الكريم: أن تدبُّره سبب للهداية، والإعراض عنه من أسباب الضلال والغواية، وما ينتج عن التدبُّر من الثمرات العظيمة المتنوعة دال كذلك على أهمية التدبُّر وعظيم مكانته ومنزلته.

٨) **أن تدبُّر القرآن الكريم فرْضٌ كفاية على عموم الأمة**، وقد يكون فرْض عَيْن على المُكلَّف؛ بحسب قُدرتِه ومعرفته وحاجته.

٩) **أن أحوالَ الناس في تدبُّر القرآن الكريم على ثلاث درجات**: المتدبِّر تمامَ التدبُّر، والمتدبِّرُ تدبُّرًا ناقصًا، والمُعْرِض عن التدبُّر.

١٠) **أن من أبرز الأسباب المُعِينة على تدبُّر القرآن الكريم**: ذكر الله تعالى ودعاؤه والافتقار إليه، **ومن أشدِّ الأمور المانِعَة مِن تدبُّرِ القرآن الكريم:**

ألَّا يُقدَر القرآن قَدْرُه، فيستَلْهِمَ منه الهُدى، بل يُظَنُّ عدمُ كفايته في ذلك.

١١) أن ثمرات تدبُّر القرآن الكريم متنوعة؛ فمنها القَلبيُّ والعِلْميُّ والعَمَليُّ، والثمرات العِلْمِيَّة هي الأصل فيها، ومنها يتفرَّعُ عملُ القَلْب وعملُ الجوارِح.

❊ ❊ ❊

أبرز توصيات الباحث

من أبرز التوصيات التي أوصى بها الباحث ما يلي:

١) **الانطلاق في دراسة بعض الموضوعات التي لم تُفرَد بالدراسة إلَّا متأخرًا من شخصية واحدة، ودراستها بصورة متكاملة؛** لِما في ذلك من تفسير كلام المُتكلِّم بعضه ببعض، وعدم حَمْله على مراد غيره.

٢) **أهمية استجلاء موضوع تدبُّر القرآن الكريم في ضوء استعمال العرب، والسلف منهم على وجه الخصوص،** وذلك لتحديد المدلول، وما يُبنى عليه.

٣) **الإبقاء على بحث موضوع تدبُّر القرآن الكريم في حيز أعمال القلوب،** وعدم الانتقال به إلى حيز العمليَّات العِلميَّة الدقيقة: كالاجتهاد لمعرفة التفسير، والاستنباط لمعرفة الدقائق، إذ لكل منها عمل عِلْميٌّ خاصٌّ، وإن كان يصِحُّ إطلاقها عليه؛ ومن أبرز ما يستدعي ذلك من الفروق بين أعمال القلوب والأعمال العِلميَّة: الاختلافُ في طبيعَتِها، فالغالب على أعمال القلوب العموم والخفاء؛ مما يستلزم التوصيف العامَّ، أمَّا ما يُذكَر من دقائق فإنما هو اجتهاديّ، ووَصْف لما يجده القائل في نفسه، بينما الأصل في الأخرى التدقيق والتنقيب، فهي جارية على قواعد وأُسس عِلميَّة.

٤) **دراسة موضوع تدبُّر القرآن الكريم دراسة موضوعية في القرآن الكريم،** لا تقتصر على لفظ «التدبُّر»، بل تعُمُّ التدبُّر ومرادفاته وما جاء في معناه.

٥) **دراسة موضوع تدبُّر القرآن الكريم عند ابن القيم دراسة مستقلة**؛ وذلك لِمَا له من عناية واهتمام بهذا الموضوع.

٦) **ترشيد المُمارَسات التي تُعنى بتدبُّر القرآن الكريم في الواقع العمليِّ**، بما أفاده مضمون هذا البحث.

٧) **عدم الاقتصار في الدعوة للتدبُّر على الفوائد المُستنبَطة**، بل تعميمُها لكلِّ ما يصدُق عليه، مع العناية بضوابط كل صورة منه.

❋ ❋ ❋



تقريرٌ عن كتابِ تدبُّر المفصَّل

إعداد

اللجنة العلمية في الهيئة العالمية

لتدبر القرآن الكريم

تقرير عن كتاب تدبُّر المُفصّل

تزخر المكتبة العِلميَّة -بفضل الله تعالى- بنهضة مباركة في القرآن الكريم وعلومه، وقد أسهم في ذلك وجود المؤسسات القرآنية المتخصِّصة التي كان لها اعتناء بهذا الجانب، ومن هذه المؤسسات المباركة: **(الهيئة العالمية لتدبُّر القرآن الكريم)** التي انشئت خصيصًا للعناية بتدبُّر القرآن الكريم والتخصُّص فيه، وكان من أهمِّ أهدافها إنجازُ «**مصحف التدبُّر**» لآيات القرآن الكريم، ليكونَ على هامش المصحف العثمانيِّ.

وبناء على ذلك تمَّ وضعُ لجنة عِلميَّة قامت بوضع الأُسس العِلميَّة المعتبَرة، لينطلق العمل في هذا المشروع المبارك على ضوء هذه الأُسس.

وقد تمَّ -بفضل الله- الانتهاء من المرحلة الأولى لهذا المشروع من سورة (ق)، وحتى سورة (الناس)، وقد طُبِع في مُؤلَّف لطيف عُنْوِن له بـ«تَدبُّر المُفصَّل»

فكرة الكتاب:

هو جمع الهدايات القرآنيَّة من بطون كتب التفسير، وكُتب تدبُّر القرآن الكريم، وممَّا كتَبه أهلُ العِلْم المعاصرون، وتنقيحُها وترتيبُها، ثم صوغُها بأسلوب مُيسَّر مختصر معاصر، مصحوب بإشارات وتوجيهات في تزكية النَّفْس، والحثِّ على العمل والانتفاع بالآيات.

- **وقد جاء ترتيب الكتاب على النحو الآتي:**

* ذكر اسم السورة.
* كتابة الآية القرآنيَّة أو الآيات بالرسم العثماني.

* شرح ما ينبغي بيانُه من معاني غريب المفردات.
* ذكر الهدايات القرآنيَّة المتعلِّقة بالآية أو الآيات.
* إثبات ما سبَق في حاشية المصحف؛ حتى يتسنَّى للقارئ الوقوفُ على الهدايات مع الآيات في موطن واحد.

وقد انتُخِب لهذا المشروع فريقُ عملٍ متخصِّص في الدراسات القرآنية، كان له الفضل -بعد الله- في جمع الهدايات، وفرزها، وتحريرها، ثم صياغتها وتحكيمها.

وحتى تُوحَّد إجراءات عمل الفريق، حَدَّدت اللجنة منهجيَّة عِلميَّة من ستة مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة جمع الهدايات والوقَفات:

وذلك باستقراء جملة من كتب التفسير المتقدِّمة والمتأخِّرة والمعاصرة، من سورة (ق) حتى سورة (الناس)، وجَمْع ما تضمَّنته هذه الكتبُ من الوقَفات والفوائد التدبُّريَّة، إضافة إلى تتبُّع أبرز المُعرِّفات المعنيَّة بكتابة التغريدات القرآنيَّة في موقع التواصل الاجتماعيِّ (تويتر) لأهل التخصُّص، وقد بلغت عشرين مرجعـًا، من أبرزها:

1) **جامع البيان، للطبريّ.**
2) **الجامع لأحكام القرآن، للقُرطبيّ.**
3) **بدائع التفسير، لابن القيِّم.**
4) **تفسير القرآن العظيم، لابن كثير.**

٥) نَظْم الدُّرَر، للبِقاعيّ.

٦) إرشاد العقل السليم، لأبي السُّعود.

٧) تيسير الكريم الرَّحمن، للسَّعديّ.

٨) أضواء البيان، للشِّنقيطيّ.

٩) التحرير والتنوير، لابن عاشور.

١٠) تفسير القرآن الكريم، لابن عُثيمين.

إضافة إلى ستَّة وعشرين معرِّفًا في (تويتر).

۞ المرحلة الثانية: مرحلة فرز وتحكيم الفوائد والوقَفات:

وذلك بعد جَمْعها، وترتيبها حسبَ السُّور والآيات، وحذْفِ المكرَّر منها، وما ليس له تعلُّق بالتدبُّر، أو فيه مخالَفةٌ لمعنى الآية.

۞ المرحلة الثالثة: مرحلة صياغة الفوائد صياغة عِلميَّة أدبيَّة:

أما المرحلة الثالثة فقد كانت لصياغة هذه الفوائد صياغة عِلميَّة أدبيَّة تُراعي مضمونَ كلام المُفسِّر، بأسلوب سهل وعبارة مختصَرة، وذلك حرصًا على تقريب المعاني والهدايات المُنتخَبة من كتب المفسِّرين للقُرَّاء الكرام.

۞ المرحلة الرابعة: مرحلة المراجعة العِلميَّة للهدايات المَصوغة مع نصِّ عبارة المُفسِّر:

وفي المرحلة الرابعة جاءت المراجعة العِلميَّة للهدايات المَصوغة مع نصِّ عبارة المُفسِّر؛ للتحقُّق من تضمُّنها معنى النصِّ الأصليِّ دون إخلال، ولا مخالفة لمعنى الآية.

المرحلة الخامسة: مرحلة بيان معاني غريب المُفرَدات:

وفي المرحلة الخامسة بُيِّنت معاني غريب المُفرَدات، حيث اختِيرتْ أهمُّ الكلمات التي تحتاج إلى شرح وبيان من غريب الألفاظ، وشُرحَت شرحًا موجَزًا، بالاستفادة غالبًا من كُتب (غريب القرآن المُعتمَدة المُتقدِّم منها والمُعاصِر).

المرحلة الأخيرة: مرحلة التحكيم والتقويم العِلميِّ:

وفي المرحلة الأخيرة جاء التحكيم والتقويم العِلميِّ، من قِبَل فريق علميٍّ متخصِّص، وَفق معاييرَ عِلميَّة تضمَن -بإذن الله- إخراجَ هذه المادَّة بأسلوب منهجيٍّ عِلميٍّ مُيسَّر، يكون له أثرٌ مباشر في إعانة القارئ على الانتفاع بالآيات، وحثِّه على العمل والتطبيق.

وقد ذيَّلَت الهيئةُ في مقدِّمة الكتاب وصايا عَمليَّة وطُرق تطبيقيَّة للاستفادة من هذا الكتاب على الوجه الأمثل، سواء للقارئ والقارئة، أو لربِّ الأُسرة وإمام المسجد، أو للمجاميع العِلميَّة والتربويَّة، وهي:

١) **قراءة الوِرد القرآنيِّ المحدَّد**، ثم النظر في الهدايات المكتوبة في هامشه، والعيش معها في ظِلال كلِّ آية؛ لتكونَ منطلَقًا للعمل والتطبيق.

٢) **تخصيص وِرد محدَّد وقراءته على جماعة المسجد في أدبار بعض الصلوات**، يتولَّاه إمام المسجد.

٣) **تخصيص وِرد محدَّد في حلَقات ومدارس ودُور تحفيظ القرآن الكريم**، لقراءته على الطلبة والطالبات، يتولَّاه مُعلِّمو القرآن الكريم ومُعلِّماته.

٤) **المُدارَسة العِلميَّة والعَمليَّة**، ويمكن أن تكون وَفق طريقتين:

■ **الطريقة الأولى:**

تقوم جماعةٌ من الطلاب بتدارس وِرد مُحدَّد من هذا الكتاب بما فيه من هدايات، مع بيان إجماليٍّ لمعنى الآيات؛ لتكون مُنطلَقًا للخروج بهدايات أخرى جديدة.

■ **الطريقة الثَّانية:**

تقوم جماعةٌ من الطلاب بقراءة هدايات الكتاب قراءةً متأنِّية، بقصد تكوين ملَكة التدبُّر، وذلك بالنظر في الهِداية وموضعها في الآية، ودلالة الآية عليها، واستنباط كيفيَّة التدبُّر وطريقته.

وقد كان هذا المشروع برعاية مباركة من مؤسَّسة محمَّد وعبد الله إبراهيم السُّبَيعيّ الخيرية؛ فجزاهم الله خيرَ الجزاء على دعمهم ورعايتهم هذا المشروع، وكلَّ من أسهمَ في خدْمتِه، ونشْرِه وتطبيقِه.

والحمد لله أولًا وآخرًا.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد، وآله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

مجلة تدبر



ثالثًا: تقارير المؤتمرات العلمية

مجلة تدبُّر



المُلتقى الدُّوليُّ السَّادِسُ

بعُنوَان : تدبُّرُ القُرآنِ الكَريمِ

حَقيقَتُهُ - قوَاعِدُهُ - مفَاتيحُهُ - عقَبَاتُهُ

وذلك برعاية معالي وزير الشؤون الدينيَّة والأوقاف

والسيد والي ولاية قسنطينة بالجزائر.

والذي أقيم خلال الفترة من ٤-٦ ربيع الأول ١٤٣٨ هـ

الموافق ٣-٥ ديسمبر ٢٠١٦ م

تقرير عن الملتقى الدولي السادس للقرآن الكريم بعنوان

﴿ تدبُّر القرآن الكريم: حقيقته، قواعده، مفاتيحه، عقباته ﴾

تشهد الساحة العِلميَّة والدَّعَويَّة في مختلف الأقطار الإسلامية والعربية وغيرها نهضة مباركة حول تدبُّر القرآن الكريم، سواء من الناحية المفهوميَّة التأصيليَّة أو التطبيقيَّة، وفي هذا الإطار نظَّمت اللجنة الدينيَّة لجامع الأمير عبد القادر (مدرسة عبد الحميد بن باديس للقراءات) بالجمهورية الجزائرية - الملتقى الدولي السادس للقرآن الكريم بعنوان:

«تدبُّر القرآن الكريم: حقيقته، قواعده، مفاتيحه، عقباته»

وذلك برعاية معالي وزير الشؤون الدينيَّة والأوقاف

والسيد والي ولاية قسنطينة بالجزائر.

والذي أقيم خلال الفترة من ٤-٦ ربيع الأول ١٤٣٨ هـ
الموافق ٣-٥ ديسمبر ٢٠١٦ م

وقد دعت الحاجة إلى هذا الملتقى لمعالجة ظاهرة قِلَّة الاهتمام بتدبُّر القرآن الكريم في مقابل العناية بحِفْظه وإقرائه؛ ممَّا نتج عن ذلك قِلَّة من يتدبَّر آياته ويقف عند حدوده ويتخلَّق بأخلاقه.

فكان هذا الملتقى لأجل الوقوف على مَكْمن الخلل وموضع الداء، ومعرفة أسباب ذلك لمعالجتها.

وقد انطلق الملتقى من أهداف رأى أنها تعالج هذه الظاهرة -بإذن الله-، وهي:

١) الرجوع بالأُمَّة إلى حُسْن التعامل مع القرآن الكريم.

٢) تيسير قواعد التدبُّر لعامَّة المسلمين.

٣) العمل بالقرآن الكريم والتخلُّق بأخلاقه.

٤) جَمْع كلمة المسلمين.

٥) دَرْء الفتن والمصائب عن المسلمين.

كما انتظم الملتقى أربعة محاور أساسيَّة، كل محور منها تندرج تحته محاور فرعيَّة:

- **وجاء المحور الأول حول حقيقة التدبُّر وأحكامه:**

ويندرج تحته الحديث عن مقاصد إنزال القرآن الكريم، وبيان حقيقة التدبُّر في الكتاب والسُّنَّة، ومفهومه عند السلف، كما يتطرق هذا المحور للحديث عن أهمية التدبُّر، وحُكْمه وأثره في صِحَّة العبادة وقبولها، وتحرير المصطلحات القريبة من التدبُّر والمتعلِّقة به.

- **أما المحور الثاني فهو: قواعد التدبُّر:**

ويندرج تحته قواعد التدبُّر في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، والحديث عن قواعد التدبُّر عند علماء السلف من المتقدِّمين، وقواعده لدى المتأخِّرين من أهل العِلْم.

- **وجاء الحديث في المحور الثالث عن مفاتيح التدبُّر:**

واندرج تحته جملة من المفاتيح: كعبادة التفكُّر والتأمُّل، وأثرها في التدبُّر، وتصفية القلب من الأمراض الباطنة، والتزام قواعد التدبُّر، والصيام والقيام وأثرهما في التدبُّر، والاستعداد لتلقِّي القرآن.

■ **وتطرَّق المحور الرابع إلى الحديث عن عقبات التدبُّر العِلميَّة والسُّلوكيَّة، وسُبُل تذليلها:**

ومما يندرج تحت هذا المحور: الإسراف في المعاصي وسُبُل التخلص منها، والعُجْمة وضَعْف اللسان العربيّ وسُبُل التخلُّص منها، الاستعجال في تلقِّي القرآن وقراءته وإقرائه، والمبالغة في إقامة حروفه على حساب حدوده ومعانيه.

واختتم الملتقى بالحديث عن **مناهج التعليم القرآني، ومدى إسهامها في خدمة مشروع التدبُّر.**

وقد استكتب في هذا الملتقى عددٌ من الباحِثين والعلماءِ والمتخصِّصِين في الدراسات القرآنية والإسلامية، وِفْق منهجيَّة عِلْميَّة محدَّدة من اللجنة المُنظِّمة، وخلُص الفريق إلى إجازة الأوراق العِلميَّة المُطبِّقة للشروط، وتمَّ طرحُها والنقاش حولها خلال ثلاثة أيام، خلُص فيها المشاركون إلى جُملة من التوصيات التي يُوصون بتفعيلها والاهتمام بها، وهي:

- إقامة دورات تدريبيَّة وندوات شهريَّة في وسائل مُدارَسة القرآن الكريم قصدَ تدبُّره.
- إنشاء ورشات علميَّة وتربويَّة للطلبة على هامش الملتقى.
- التنسيق مع وسائل الإعلام السمعيَّة والبصريَّة لإنشاء كُرسيٍّ مُدارَسة القرآن.
- دعوة الأساتذة والباحثين إلى العناية بجمع قواعد التدبُّر عند المُفسِّرين.
- طباعة مُداخَلات الملتقى وتسجيلها ونسخها في أقراص، ونشرها في الشبكة العنكبوتية لتعُمَّ الفائدة.
- التواصل مع الجهات العِلميَّة القرآنيَّة للإفادة والاستفادة.
- اقتراح عنوان للملتقى القادم بعنوان «الإصلاح الاجتماعي في ضوء القرآن الكريم».

وقد لاقى الملتقى صدًى طيِّبًا في الأوساط العِلميَّة والقرآنيَّة، بفضل من الله تعالى، ثم بجهود المُنظِّمين والرُّعاة لهذا الملتقى، فالحمد لله أولًا وآخرًا.

❊ ❊ ❊

Tadabbor Magazine

The Second Edition, First Year, Ragab 1438 AH, April 2017 AD



Tadabbor Magazine

It's a periodical scientific precise magazine. It is concerned with refereeing and publishing research and scientific studies which are related to fields of interpretation of the Holy Qur'an. This magazine is being issued twice a year.

Vision:-

This magazine should be researchers' first choice to publish their researches which are related to interpretation the holy Qur'an.

Mission:

This magazine should be precise scientific pot for researchers to publish their scientific works which related to interpretation the holy Qur`an according to international professional criteria for publication.

Target:-

- Encouraging scientific research which is related to interpretation of the holy Qur`an.
- Publishing scientific research and studies which are related to interpretation on the holy Qur`an.
- Applying a scientific communication between those concerned with Qur`anic studies through the exchange of experiences.

- Opening new horizons for a scientific research which is specialized in the fields of interpretation the holy Qur`an.

Publishing fields in the magazine:-

First: Research and studies in the fields of interpretation the holy Qur`an:

- Scientific Rooting in Interpretation of the Holy Qur`an.
- Qur`anic Topics.
- Qur`anic Purposes.
- The Inimitability of the Holy Qur`an.
- Qur`anic Rhetoric.
- Teaching Interpretation of the Holy Qur`an.
- Deduce from the holy Qur`an.

Second: Forums and conferences reports which are related to the interpretation of the holy Qur`an.

Third: Abstracts of the outstanding scientific researches in the fields which are related to the interpretation on the holy Qur`an.

Fourth: The issues raised by the Editorial Board for which asks the specialists in the fields related to the interpretation of the holy Qur`an.

❊❊❊

Terms and Conditions of Publishing

First: The nature of the published materials:

The magazine aims to provide an opportunity for researchers in all countries around the world to publish their scientific production in the field of the interpretation of the holy Qur`an. This field is authentic and serious, and has the ethics of scientific research and scientific methodology.

The magazine publishes materials which were never previously published in the Arabic language and accepts the materials in any of the following categories:

- The Old research.
- Scientific reviews.
- Abstracts of outstanding scientific thesis.
- Reports of forums and scientific conferences.

Second: Guidelines for researchers to submit their researches:

1. Research's pages number must not exceed (50) pages, size (17*24), including Arabic and English summaries and references and not less than 25 pages.
2. Page margins should be 2 cm from the (top, bottom, right, and left) a single line spacing.

3. (Lotus Linotype) is the font to be used for Arabic with size (16), size (12) for footnote and abstract and size (11) for tables and shapes.

4. (Roman New Times) is the font to be used for English with size (12) and size (10) for footnote, abstract, tables and shapes.

5. Qur`anic verses should be written in (Lotus Linotype) with size (16), plain-colored.

6. Footnotes on each page should be put in the bottom separately. Footnotes' numbering of each page is independent and footnotes are adjusted automatically not manually.

7. Research data is written in Arabic and English, and should include (research title, researcher's name, title and his/her contact information, and titles of his/her previous scientific thesis).

8. The abstract's number of words must not exceed (250) words. It must include the following elements: (subject of research, its objectives, its methodology, the most important results and the most important recommendations) and taking care of editing accurately.

9. Each abstract (Arabic/English) is followed by function words (key words). These words should indicate the subject of research and main issues included accurately, so that its number not exceeding (6) words.

10. The research should be free of any linguistic and/or grammatical mistakes.

***

Research Elements

The researcher regulates his research in accordance of (scientific research methodology) as follows:

1. Writing an Introduction contains: (subject of research, its borders, its objectives, its methods, its procedures, and research plan).
2. Indicating the previous studies - if available - and his scientific addition on.
3. Dividing research into sections (subjects) according to (the research plan), so that they are related to each other.
4. Displaying a specific idea in each section (subject) to be a part of the central idea.
5. The research is written in an accurate scientific formulate. This formulate is free from linguistic and/or grammatical mistakes with the accuracy of the documentation.
6. Writing a conclusion with summary for the research which includes (results) and (recommendations).
7. Writing the underlying footnote by mentioning (the book's title, author's name, and part / page) by the applicable scientific approach in documenting the Islamic studies and the Arabic language. Example: Tongue of Arabs by Ibn Manzor (233\2). Qur`anic verse: it is referred to only in the text with the name of the chapter, followed by a colon: then the verse number (Al-Nisaa`:55).

Researcher should be documenting the references at the end of the research according to the following order:

1. If the reference is a book: (<< the title of the book>> Author's last name (nickname) then the first name and other names, the name of examiner - if available - , then edition statement, the city of publishing, publisher's name then the year of publication. Ex: <<Al-Game`Al-Sahih>> .Al- Tirmidhi, Abu Issa Mohamed Ibn Issa. Examining by: Ahmad Muhammad Shakir and others. 2nd Edition, Bairut: Dar Ehyaa` Al-turath Al-Arabi, 2004 AC.

2. If the reference (a scientific thesis not printed): (<< the title of the thesis>>. then Researcher's last name (the family name), then the first name and other names. Then, the type of thesis (Master | Ph. D.). The place: the name of the college, the name of the university, and then year). Example: << Jacob bin Shaybah Alsodosi: his implications and approach in the wound and the amendment(Aatharih wa manhagih fi Al-Garh wa Altadeel >>. Al-Mutairi, Ali bin Abdullah. Master Thesis, Saudi Arabia: College of Education, King Saud University, 1418 AH.

3. If the reference (an article of the magazine): (<< the title of the article >>, Author's last name (family name), then the first name and other names, then the magazine or Journal name, the place , hardcover number (editions number), the year of publication, the page from .. to ..). Example: << Imam Affan bin Muslim Al-SSaffar and

his method of receiving, performance and criticism>>. Al-Mutairi, Ali bin Abdullah. Qassim University Magazine: Islamic science, Qassim. (3), (1), 1431 AH, 35-85.

4. In addition to the mentioning of some abbreviations that have not such a statement in the reference data, which are as follows:

- Without the name of publisher: (W. P).
- Without the edition number: (W. P).
- Without the date of publication: (W. D).

- Reasearcher should mention resources at the end of research according to the following:

- Sending a research site to the magazine is considered to be an undertaking by the researcher that the research has not been published before, neither it was submitted for publication, and will not be submitted for publication as well, until the end of arbitration proceedings in the magazine.

- The editorial board of the magazine has the right of the initial examination of the research, and reports his eligibility for arbitration, or rejects it.

- The researcher acquainted with the summary of arbitrators' reports for consideration and adjusts accordingly. He explains his opinion whereas it is not objected with their words and the body settled the dispute between them.

- In the case of (the acceptance of the research for publication), a message is sent to the researcher about (the acceptance of the research for publication). When the research is rejected for publication, a message is sent as (an apology) for the researcher.
- The researcher, after the publication of his works in the magazine hass the right to publish it again after six months of its issuance, but He must refer to the publication of his work in the magazine.
- Sending a research via magazine's website is considered as an acceptance from the researcher of the terms of publishing in the magazine, and the Editorial Board has the right to determine the priorities of research publishing.
- The opinions which are expressed in the published researches reflect the views of the researchers only, and not necessarily the opinion of the magazine.
- The Certified authentication system for foreign references in the magazine is the system of (Chicago University).
- In case of publishing the research, the researcher is given two copies of the magazine and also ten copies of the edition, which his research was published in.
- Published scientific articles in the magazine reflect the views of its owner.

❊❊❊

TADABBOR MAGAZINE

Index

3) Reports of Scientific Conferences

- Report of The Sixth International Assembly for Contemplation of The Holy Qur’an.

4) Summaries in English Language:

❊❊❊

The Rhetoric of The Qur’an

At the end of the verses A Rooting study

by

Prof. Dr Ahmad bin Muhammad Al-Sharqawi

Professor of Qur’an Sciences at Al-Azhar University

Arab Republic of Egypt

Research summary

This study illustrates the meaning of appendix in Qur’an, the importance of its study, and the difference between appendix and a comma.

Reviewing the appendix in the Qur’an is important on many levels. For instance, utilizing this science in order to reach more understanding of the book of Allah (The Holy Qur’an), emphasizing the important aspects of the Qur’anic inimitability, making apparent the complications of the appendix and the refutation of the orientalists and their ideologies and those who oppose the understanding of the religion regarding the unity and the structures of the Qur›an, whilst also providing benefits from this science in order to establish the preservation of the Qur’an.

The research also examines the subtle points along with the benefits of the appendix. These benefits include; clarification, sound understanding, beauty of expression, richness of meaning, worthy explanation, good conclusion and caution.

Likewise, I also explained the subtle points, of which are, taking into consideration the objectives of the holy Qur'an, its exegesis coupled with the principles, sound understanding of the Arabic language and its related science, the overall view of the surah and the consideration of the context.

I then explained the disciplines related to appendixes, which are as follows; conclusion, commentaries, chapters and their relationships, generalization and clarification.

Finally within the conclusion, I included a conclusion, the important recommendations, research references and an index.

Keywords: rhetoric, appending, verses, The Holy Qur'an.

The Qur'anic Methodology: Its Foundations and Principles in Interaction

A Reflective and Contemplative Study on Sūrat al-Hujurāt

Dr. Said Bin Rahsid Al Sawafi

Assistant Professor – Islamic Science Department

College of Education- Sultan Qaboos University

Abstract

This research is about an important aspect of human life; it illustrates the Qur'anic Methodology, its foundations and principles in interaction, through a reflective and contemplative study of Sūrat al-Hujurāt.

The study is divided into an introduction, an opening and two chapters. The introduction gives an idea about the topic and its importance, the aim of the study, the methodology, the research questions, the literature review, and the research plan. The opening chapter is about Sūrat al-Hujurāt, the text of the revelation and the requirements of the content.

The first chapter comprises the method of interaction with Allah and His Messenger, and includes two subtitles. The first one discusses the method of interaction with Allah, may He be exalted, in Belief ('Aqīdah) and Legal system (Sharī'ah).

The second subtitle is about the interaction with the Prophetic

context. The second chapter is about the method of human interaction.

This title includes two subtitles: While the first one is about interaction in the shadow of the unity of mankind, the second one deals with the method of interaction in terms of human societies. Finally, the conclusion includes the most important results and recommendations.

The aim of this research is to present the methodology of the Holy Qur'an for the interaction of the Muslim with Allah and His Messenger, Peace be Upon Him.

It also highlights the interaction between the Muslim and other non-Muslim human beings as mentioned in Sūrat al-Hujurāt.

It finally extracts the importance of this Qur'anic method and explains its role in organizing Muslim life.

***

Tolerance in The Holy Qur'an and Its Reflection in Establishing The Social Security

Wafaa Bint Saleh Al-Fayez

Professor Assistant of Akida and Islamic Culture

Department of Islamic Studies Faculty of Arts

The King Faisal University

Summary

Tolerance is a divine enactment The Holy Qur'an has established its ties to settle the entire nation, especially due to the hatred of the hateful ones, so Islam addressed the whole existence and demanded to establish tolerance in order to harmonize with the nature of life in it.

The Holy Qur'an, by enshrining tolerance in societies, exempts mankind from assuming the status of intellectual systems for planning the life of a decent human being. As the system of Islam is the only valid system for the survival of a safe life.

The Islam way, until the Day of Resurrection, is based on the principle of the revival of tolerance among people, giving the strong relation between tolerance and security. A reader of Allah's words in the verses of The Holy Qur'an would find what they hope for in a life curriculum that is drawn based on the principle of tolerance in one state.

When Qur’an addressed the human beings regarding this aspect, it addressed them according to their human nature, reminding them with their origin.

The Qur’an is full of tolerant constitutions, and its merciful message is a comprehensive one which is addressed to all people, with the imperative of maintaining the security of humanity on the principle of tolerance. An attentive person in divine guidance in the Holy Qur›an finds what they seek to prove the authenticity of tolerance in establishing social security.

❊❊❊

Fundamentals of Interpretation of Qur’an By Qur’an

Prof. Dr. Abdul Fattah Muhammad Ahmad Khedr

Professor and Head of Department

of Qur’an Inerpretation - Azhar University

Praise to Allah, The Lord of all lords. And peace and blessings to be upon the most honorable messenger; our master Muhammad, and on his family and his companions.

This research of mine titled as “Fundamentals of Interpretation of Qur’an By Qur’an” is concerned with the rooting aspect of the best method for interpreting Qur’an; that is interpreting Qur’an by Qur’an. The importance of scientific rooting process of sciences lies in bringing them back to certain criteria which we seek their guidance when necessary.

Interpretation of Qur’an By Qur’an has its established fundamentals that we can refer to through The Holy Qur’an Itself and through our genuine interpretation masters’ work.

And for honesty, I must say that not having the scientific assets that are related to interpretation of Qur’an by Qur’an rooted till this moment has caused an abnormality in understanding the book of Allah (The Holy Qur’an) and rejected artificial understanding the words of the Holy Qur’an and its texts. It has also allowed every loud-mouthed to endure the interpreters way, which encouraged ignorant ones to dare the words of Allah (The Holy Qur’an).

The aim of this thesis: to awaken the intention of specialized scientific interpreters - during such era of mixed concepts- to do their best towards their heritage of interpretation, and to disproof any distortion, plagiarism, or misleading interpretation that might have occurred. That could be reachable through honest scientific efforts that are dedicated to set indicators (measurements) to abstract the fundamentals of interpretation of Qur'an by Qur'an; so it becomes an established criterion science for illustrating the Holy Qur'an; a science that starts with the right understanding and ends with the most accurate conclusion.

This aim represented in two aspects:

1. The theoretical one which is concerned with presenting the rooting science standards which are responsible for adapting the criteria of accepting or rejecting interpretation of Qur'an by Qur'an.
2. The applicable one which is concerned with applicable samples of interpreting Qur'an by Qur'an.

Methodology:

In this research of mine, I've followed the practical inductive methodology; starting by reviewing standards of fundamentals of Interpreting Qur'an by Qur'an and when it should be accepted, which were already approved and established by scientists, I then followed them in accordance with a practical applicable aspect.

The research and researcher request that not everyone to endure interpretation of Qur'an except those who acquired all terms of an interpreter and owned all the scientific tools required, an interpreter must stick to the standards to avoid any mistake the might mislead him and his followers.

It is also recommended to teach the standards and fundamentals of interpretation as a major subject for our specialized students, and also to keep them updated with all updates in such field, and so this research is considered as a seed for this recommendation.

❊❊❊

- Report of “Illustrative Tadbbor” Compilation
- Thesis Report (Contemplation of The Holy Qur’an According to Sheikh Ibn Taymema – May Allah have mercy upon him)
- Report of The Sixth International Assembly for Contemplation of The Holy Qur’an

❊❊❊

TADABBOR MAGAZINE

Periodical, Scientitic and Arbitral Magazine specializes in arbitration and dissemination studies and searches related to Holy Quran, biannual issued

The Second Edition, First Year Ragab 1438 A.H. April 2017 A.D

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

﴿ص﴾ ٢٩

TADABBOR MAGAZINE Index:

